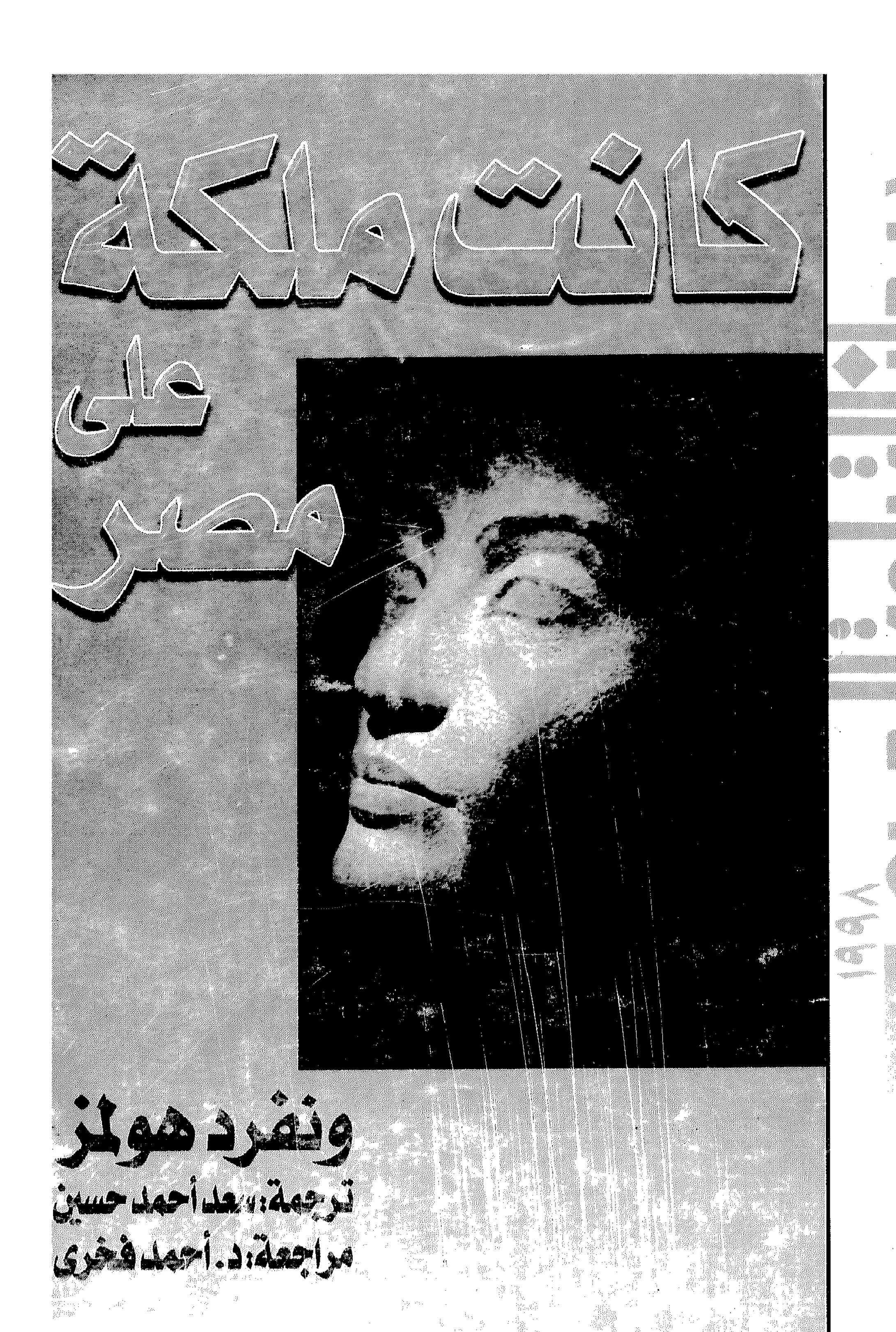
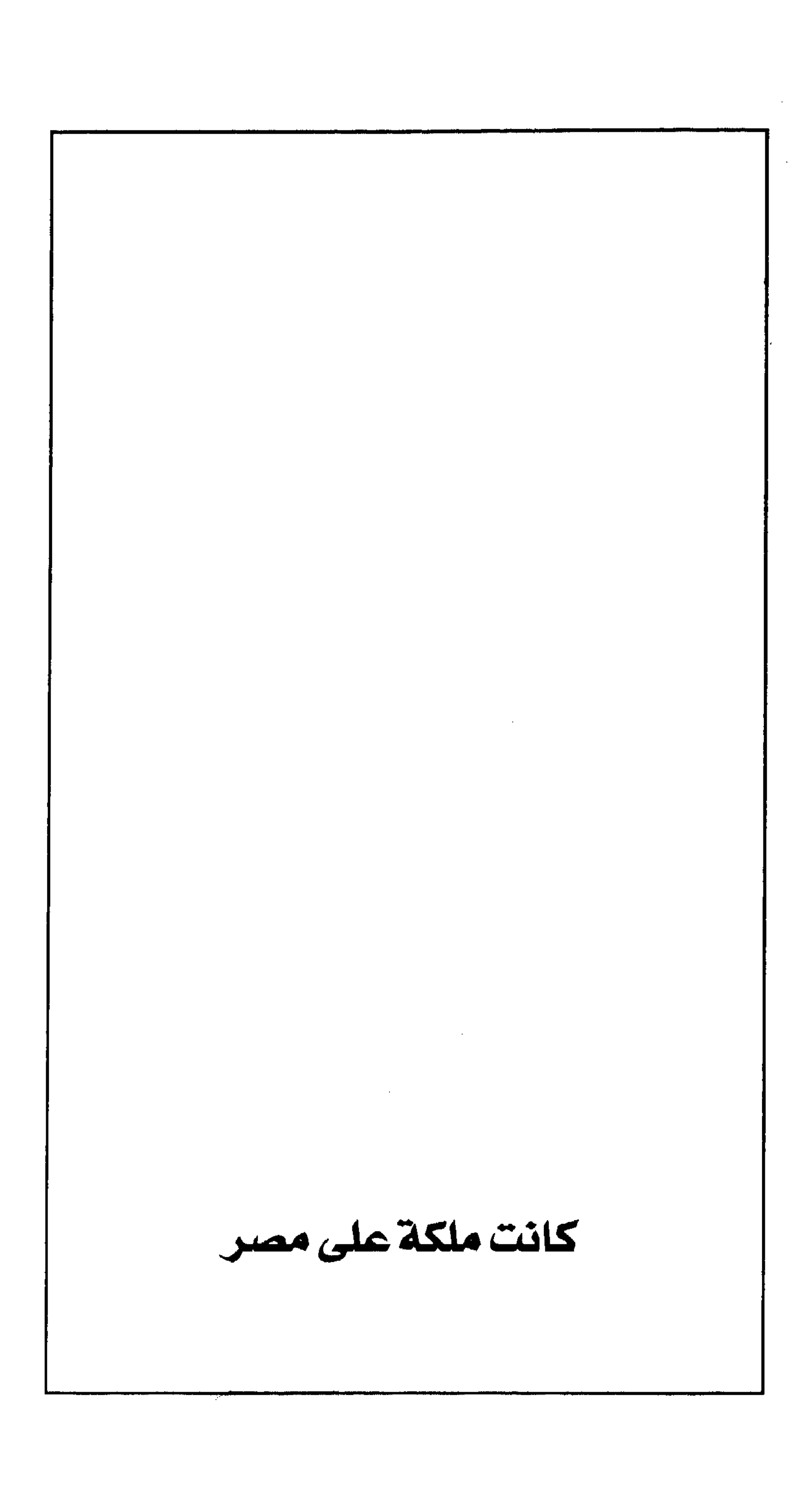


مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

الهيئة المصرية
العامة للكتاب



كانت ملكة على مصر

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

كانت ملكة على مصر

ونفرد هولمز

ترجمة: سعد أحمد حسين

مراجعة: د. أحمد فخرى



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

كانت ملكة على مصر

ونفرد هولمز

ترجمة: سعد أحمد حسين

مراجعة : د. أحمد فخرى

عن سلسلة الألف كتاب

الغلاف:

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سميرسرحان

هذه هى الترجمة العربية لكتاب :

SHE WAS QEEN OF EGYPT

تــاليف :

Winifred Holmes

مقدمة المراجع

عرفت السيدة وينيفرد هولمز عندما كانت تقيم فى مصر مع زوجها وأطفالها اذ أنهم قضوا فى القاهرة بضع سنوات عندما كان زوجها يعمل فى شركة شل بالقاهرة .

كانت السيدة هولمز دائمة التردد على المتاحف وعلى جميع المحافل العلمية واتصلت بأكثر المشتغلين بالتاريخ والآثار ، وكان لها هى وزوجها أصدقاء عديدون يأنسون اليها ويحبون صحبتها ولا يضنون على مسز هولمز بأى مساعدة لأنها كانت مخلصة حقا فى اقبالها على القراءة ، وتحب اذا قرأت شيئا أن تلم بأطراف موضوعه .

وكنت أحب كثيرا أن أسمعها تتحدث عن مشاهداتها فى مصر وعن قراءاتها كما كنت أحب بنوع خاص أن أسمع منها ذكرياتها عن الهند لأنها أقامت مع زوجها هناك بضع سنوات قبل حضورهما الى مصر بزمن غير قصير ، وكنت أحب حديثها عن الهنود الذين كانت تحبهم من قلبها ولم أسمع منها الا عطفا قويا على قضاياهم وعلى حياتهم وأمانيهم واعترافا بفضلهم عليها ، وكانت رغم مشاغلها الأسرية كثيرة السفر الى جميع أرجاء مصر فى الصعيد أو فى الوجه البحرى أو فى الصحراء ، تبحث عن أسواق القرى ومواسم الحصاد ، وتوزع اهتمامها بين تاريخ البلاد وحياة أهلها . واهتمت اهتماما خاصا بالأديار القبطية وبخاصة ديرى الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا ولهذا كنت أتوقع أن يكون كتابها عن مصر خاصا بالأديار أو على الأقل عن ناحية

من نواحى التاريخ فى العصر القبطى لأننى أعرف نشاطها فى الكتابة وأعرف أنهـا كانت تكتب كثيرا من المقالات فى الصحف والمجـلات الانجليزية وأنها كتبت كتابين عن الهند .

وغادرت أسرة هولمز مصر عام ١٩٥٥ بعد أن انتهى عمـله فى شركة شل ولم يعرف أحد من أصدقائهم شيئا عنهم الا أنهم عادوا الى منزلهم فى لندن ، ثم ذهبت الأسرة الى سنغافورة وظننا أنهم نسـوا مصر الى حين ولكن مسز هولمز لم تنس مصر ، وها هو كتابهـا عن ملكات مصر الأربع حتشبسوت ونفرتيتي وكليـوباترة وشجرة الدر خير شـاهد على أنها لم تضيع وقتها فى مصر عبثـا كما فعل ويفعـل الألوف غيرها ، وقد سررت عندما وصلتنى نسخة من كتابها منذ أكثر من عامين فقرأته بامعان وأحببت أسلوبها الجميل ، لأنها تحب دائما أن تكتب لمن هم فى سن الشباب ، واذا كان التوفيق الكامل قد جانبها فى بعض التفاصيل التاريخية ، فان ذلك لا يغير أبدا من أهميـة الكتاب وأهمية موضوعه . والزاوية التى كانت تنظر منها الى حياة كل ملكة من هذه الملكات . ويسرنى أن أقرر أن المؤلفة تستحق التهنئة ، لأنها نجحت فى الاحساس بكل عصر من عصور أولئك الملكات بالرغم من تفاوت الزمن بينهن ، كما أنها حافظت بأمانة على الوقائع التاريخيـة قدر استطاعتها ولم تطلق لخيالها العنان أو تخلق شخصيات خيـالية تعكر على المؤرخ الجاد صفو قراءته وتسبب له الضيق ، فاذا اضطرتها التحلية الأدبية الى اضافة شيء من عندها أضافته فى رفق وحرص حتى لايؤثر ذلك فى قليل أو كثير على الموضوع الأصلى .

وكثيرا ما فكرت بينى وبين نفسى وتساءلت عما يمنع كتابنا من تناول الموضوعات التاريخية بمثل هذا الأسلوب ، وتمنيت أن يكون بين أيدى أبنائنا فى المدارس وفى المنازل كتب من هذا النوع ، فلما

أسندت الى الوزارة مراجعة ذلك الكتاب قبلت عن طيب خاطر لأنى أومن بفائدته عند ظهوره مترجما الى اللغة العربية .

قد اضطررت اضطرارا لحذف أشياء قليلة والتعليق على بعض ما ورد فى صلب الكتـاب لا انتقادا له أو تهوينا من شأنه ، بل على العكس من ذلك للرفع من قيمتـه والاستزادة من الفـائدة المرجوة من ترجمتـه .

وخير ما أختم به هـذه المقدمة هو تحية السيدة وينيفرد هولمز على اهتمامها بتاريخ بلادى وشكرها على كتابتها فيه ، وأرجو رجاء صادقا أن يستمتع بقراءته أكبر عـدد ممكن من شـباب الجمهورية العربية المتحدة ليعرفوا حيـاة أربع من النساء اللاتى امتزن بقوة فى الخلق وشجاعة فى الكفاح ، وكانت كل منهن ملكة على مصر ، وفرضت اسمها فرضا لا على عصرها فحسب بل وعلى التاريخ ، وستظل ذكراهن باقيةما بقى النيل جاريا فى البلاد ، وطالمـا بقى سكان مصر يحنون الى سماع تاريخ من عاشوا قبلهم فى هذا الوادى الكريم .

احمـد فخـرى

المقدمـــة

فى جميع أنحاء مصر يجتمع الناس ليستمعوا الى الراوى ، وهو يتنقل من قرية الى قرية فى جميع الأراضى الخضراء الخصـبة الممتدة بين النيل والصحراء . ويفتن الراوى مستمعيه مثلما كان يفعل الشاعر فى الأيام القديمة ، لمـا يرويه من قصص عن أبطال وملوك وملكات مصر القديمة العظام . ويغنى الراوى بمصاحبة ربابة بدائية « كمان الشاعر » ويقص الشيء الكثير عن الفراعنة الذين بنوا الأهرام ، وكان نفوذهم يشمل القطرين البحرى والقبـلى ، ويقص قصص تحوتمس ورمسيس المحاربين العظيمين اللذين أتت فتوحاتهما بالأموال الوفيرة من ممالك عديدة كانت تأتى باتنظام لمدينتهم الجميلة « طيبة » ذات البوابات المـائة . ويقص قصة الاسكندر الأكبر والفارس صـلاح الدين وقصص أبطال أحدث منهم مثـل أبو زيد وعنتر ، وقصصـا أسطورية عن أبطال من العرب ، وقصص الملكات .

ولكن قصص أربع من ملكات مصر أسرت خيال الشاعر والفلاح على حد سـواء وأقدم أولئك الملكات عهدا هى حتشبسوت « زعيمة النبيلات » التى حكمت باعتبارها فرعون وشـيدت أثرا من أعظم آثار العالم وهو معبد الدير البحرى ، وتليها نفرتيتى وترجمة اسمها « الجميلة قد أتت » والتى لايزال جمالها يأخذ بأنفاسنا بعد أن مضت على أيامها آلاف السنين ، ولكن التاريخ يحدثنـا عنها أنها لم تكن امرأة قوية الخـلق شجعت روجهـا على الثورة ضد كهنة آمون رع

وشـاركته فى شجاعته بل مخاطرته التى قضى عليهـا بالفشل ، وظلت أمينة ووفية حتى النهاية • وتليها فى ترتيب الزمن ، كليوباترة « حية النيل » التى كانت أكثر من شخصية روائية رائعة ، ولكنها حاربت بشجاعة ، حاربت بكل ما تملكه من امكانيـات لتحفظ مصر حرة ومستقلة وبعيدة عن متناول قوة روما الناشئة • وأخيرا شجرة الدر تلك المرأة المحبوبة التى كانت محجبة وتعيش فى حريم زوجها سلطان مصر ، والتى استطاعت باخفائها خبر موته أن تحرز النصر فى معركة المنصـورة ضد الصليبيين ، وقد توجت بعد ذلك كأول وآخر امرأة حاكمة لعصر الدولة الاسلامية •

وعندما تكشف القصص عن نفسها فى مصاحبة الموسيقى الحزينة التى تؤديها الربابة ذات الوتر الواحـد يزداد اعجـاب جماعة سكان القرى ـ فلاحى مصر ـ ويصيحون منفعلين « ياسـلام » ويبدءون فى التحيز ويشتد غضبهم على أعداء الأبطال والبطلات والملوك والملكات ويفرحون لفرحهم ويبكون علانيـة لآلامهم ويتأوهون لمصـائرهم المفجعـة •

ولايوجد ما يربط هذه القصص الأربعـة معا ، اللهم الا أنها قصص تروى عن ملكات حـكمن مصر وحفرت شخصياتهن لنفسـها أمكنة فى قلوب الرجال والنساء والأطفال فى كل الأجيال فى بلادهن وفى غير بلادهن •

وتتقدم المؤلفـة بالشكر لأصدقائهـا العديدين فى مصر الذين ساعدوها على جمع البحوث العلمية ومن ألهموها لوضع هذا الكتاب وتخص بشـكرها الدكتور أحمد فخرى أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بجامعـة القاهرة والدكتور عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى بالقاهرة والدكتور باهور لبيب مدير المتحف القبطى بالقاهرة

والمسيو كتافاجو أمين مكتبة الجمعية الجغرافيـة بالقاهرة والسيد علي الجزار والسيد أبو النجـا وكثيرين غيرهم • كمـا تقدم شكرها للآنسة نيلسن أمينة مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية فى لندن والآنسة جوان كويل أمينة مكتبة المعهد البريطانى برانجون (وأمينة مكتبـة المعهد بالقاهرة سابقا) •

كمـا أتقـدم أيضـا بالشـكر للناشرين الذين سمحوا لى بنقل عبارات من المؤلفات التى أثبتها فى نهاية كل فصل من الفصول وأعبر أيضا عن شكرى لجمعية الآثار المصرية بلندن ولسكرتيرها الآنسـة وينفريد كيفز لسماحها للرسـام الذى قام بعمل الرسوم باستخدامه بعض الصور فى مؤلفات لتكون أساسا للرسـوم المنشور فى هـذا الكتـاب •

وينيفرد هولمز

حتشبسوت
زعيمة النبيلات

« تذكرى أن دماثة الأخلاق هى التى ستجعل الناس يحبونك . انهضى لوالديك وأولئك الذين هم أرفع منك مرتبة » هكذا كانت تكتب فى مثابرة مرة بعد مرة تلك الفتاة الصغيرة ذات البشرة الخمرية ، اللطيفة ، والأنف المعقوف قليلا ، والذقن المستدير الذى ينم عن صلابة .

لم تكن تكتب ذلك على صفحة كراسة بقلم ومداد ، ولكن على قرطاس من البردى وفى يدها بعض أعواد سويت أطرافها من نوع من أنواع البوص . أما الكتابة التى كانت تكتبها فلم تكن الا الكتابة الهيراطيقية التى استخدمها المصريون القدماء ، ولم تكن الفتاة الا وريثة عهد الفراعنة ، والمكان هو القصر الملكى فى طيبة ، أما الزمان فهو أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الآن .

ازدهرت تلك المملكة العظيمة التى أنشأها بناة الأهرام وهى التى نسميها « الدولة القديمة » والتى كانت عاصمتها فى منف بالقرب من القاهرة ، العاصمة الحديثة لمصر . ولكن الحروب والثورات أدت الى زوالها منذ عهد بيد . وتلتها الدولة الوسطى ، ولكنها تحطمت بدورها على أيدى المغيرين الأجانب القادمين من آسيا[1] والذين سماهم

---

(1) فى الأصل الانجليزى « آسيا الصغرى » وهو خطأ لأن الهكسوس خليط من بعض القبائل الهندو ـ اوربية التى هاجرت من اواسط آسيا واختلطوا بمن كانوا فى غربى آسيا فى ذلك الوقت من شعوب سامية ، ثم تقدم هذا الخليط من الاقوام الى الحدود المصرية . (المراجع)

المصريون الهكسوس • وأسماهم البعض ملوك الرعاة ، وبعد مائتى عام من حكمهم البغيض طردهم الأمير الطيبى المحارب ، « أحمس الأول » مؤسس الأسرة الفرعونية الجديدة المعروفة باسم الأسرة الثامنة عشرة ، ووحد البلاد مرة أخرى ووضع فوق رأسه التاج التقليدى الذى يزدان بكل من العقاب والحية رمز القطرين ، الوجه القبلى والوجه البحرى ، وأصبحت طيبة ، التى نعرفها اليوم باسم الأقصر ، عاصمة للبلاد • هكذا بدأت الدولة الحديثة ، وكان أحمس الأول هو الجد الأكبر للأميرة حتشبسوت •

أما جدها أمنحوتب الأول ، ثانى فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، فقد أكمل أعمال أحمس وذلك باعادة تنظيم البلاد التى انتشر فيها الخراب ، وتهدئتها وتقويتها ، وبتركيز القوة فى يديه بالعمل على تقوية الجيش • لقد ذهب الهكسوس مخلفين وراءهم ذكرى لا تنسى من الكراهية والمرارة ، ولكنهم أيضا تركوا لمصر شيئا يشكرون عليه وهو معرفة الحصان وهو حيوان لم يكن معروفا للمصريين حتى وقت مجيئهم •

وتلاه الفرعون تحوتمس الأول ، والد حتشبسون ، الذى استطاع بما كان لديه من أحسن الجياد فى العالم المشدودة الى عربات حربية خفيفة ، وبما لديه من رماة السهام المشهورين من أبناء وادى النيل ، استطاع أن يشن الحرب على أعداء مصر فى عقر دارهم وأن يطاردهم شمالا وشرقا حتى ضفاف الفرات ، مدعيا ملكية الأقطار التى أخضعها •

وحوالى نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد ، عندما كانت حتشبسوت تعيد كتابة القول المأثور الذى يأمرها بأن تنهض لمن هم أرفع منها فى المكانة كانت مصر قد بدأت أزهى عصورها كامبراطورية،

وكانت حتشبسوت ، وهى تجلس القرفصاء على حصيرتها المصنوعة من نبات الحلفا ، لتكتب وهى جالسة فوق الأرض ، هى الأميرة الملكية « سيدة الأرضين وارثة عرش طيبة » .

وفى الواقع كان هناك شخصان فقط أرفع منها منزلة : أمها الملكة أحمس ، الزوجة الملكية العظمى ، ووالدها تحوتمس الأول الفرعون الحاكم ، ومع ذلك فكان لابد لها من أن تثابر على نقل وتعلم الحكم المأثورة عن الحكماء المصريين القدماء ، كأى فرد من زملائها ، مثل أخيها غير الشقيق تحوتمس الأول والأمراء والأميرات الصغار . كان بعضهم من أبناء الملوك والملكات الأجانب الذين وقعوا فى أسر أبيها فى غزواته الخارجية ، وعدد قليل من أبناء الوزراء والأسرة النبيلة الذين كانوا من أصحاب الحظوة لدى الملك ، وما من شك فى أنها كانت تخشى المعلم الذى كان يلقنها الدروس وتخشى أساليبه العنيفة مع تلاميذه مهما كانت منزلتهم ، اذ كان المعلمون الصارمون يعتقدون « أن أذنى الطفل انما توجدان فوق ظهره لا يسمع الا عندما يضرب » . ولكن المثل الأعلى للعدالة الذى كان يطبق على الجميع بالتساوى بدون خوف أو محاباة ، قد أصبح جزءا أساسيا فى حياة المجتمع المصرى ولم يكن فى استطاعة حتشبسوت أن تطالب بأية امتيازات خاصة فى معاملتها ، وعلى هذا كان يتحتم على الأميرة حتشبسوت ـ ومعنى اسمها « زعيمة النبيلات » ـ أن تضبط مشاعرها الحادة المستبدة وأن تعامل غيرها بأدب ، وأن تقبل على تعلم علوم الأخلاق والسلوك الصحيح ، بالاضافة الى القراءة والكتابة والحساب والفلسفة والطقوس الدينية وقواعد اللغة والانشاء .

ولكن عندما كان يحين وقت الظهر وتنتهى الدراسة فانها كانت ، على الأرجح ، من أوائل الذين يلقون بالقلم ، وتقوم من الأرض لكى

تمشى قليلا • وفى هذا الوقت تكون الشمس فى كبد السماء الزرقاء الصافية ــ وشمس الوجه القبلى شديدة الحرارة فى الواقع ــ بالرغم من أنها وغيرها كن يلبسن أرق الأقمشة الخفيفة التى كانت من نسيج الكتان الفاخرة المصنوعة باليد ، وكانت تجمع أطرافها وتطوى عند الخصر ، وبالرغم من أن حلقات الدروس كانت تعقد فى بهوأعمدة مكشوف يواجه الجهة الشمالية الباردة ، فان الجو فى تلك اللحظة يكون قد اشتد قيظه الى حد لا يسمح بالدرس وتركيز الذهن • ولهذا السبب كانت المدرسة الملكية فى بيت فرعون كغيرها من مدارس البلاد تبدأ فى وقت مبكر فى الصباح وتنتهى عند الظهيرة كما تفعل الكثير من مدارس مصر فى الوقت الحاضر •

فاذا ما انتهى اليوم المدرسى ، وذهب المعلم القاسى المتقدم فى السن ، أصبحت حتشبسوت مرة أخرى وارثة للعرش • فاذا ما أحست بالظمأ ، كانت هناك جارية لتحضر لها جرعة ماء فى الاناء الفخارى الطويل الذى كان موضوعا ليبرد عندما يمر عليه النسيم ، وعندما كانت ترغب فى غسل يديها قبل وجبة الغداء كانت هناك جارية أخرى تقوم على خدمتها عند مكان الغسيل المرتفع فى الغرفة ، وتصب الماء المعطر على يديها •

فاذا ما حان وقت الطعام كانت تذهب مع أخيها غير الشقيق تحوتمس ، وكان شخصا واهنا ضعيف البنية اذا قارناه بحتشبسوت ذات العقل المتأجج والبنية القوية ليأكلا مع والديهما •

وفى المناسبات الرسمية كان الملك وأسرته وضيوفه يجلسون على كراسى مذهبة مزخرفة ويقوم الخدم بتقديم الطعام لهم •

ولكن عندما كانت الأسرة المالكة تتناول طعامها فى الجناح الخاص فانهم كانوا يجلسون دون كلفة فوق أرائك غير مرتفعة ، تنحنى أمامهم

خادمات صغيرات السن يقدمن لهم الطعام المكدس فى صحاف ممتلئة يأتون بها من المطبخ وهى ساخنة • وكانوا يأكلون بشهية ، وكان الطعام مكونا من قطع لحم البقر ولحم العجل الطرى وطيور الماء المشوية ، ومن البط والأوز التى كانوا يأتون بها من مستنقعات البردى القريبة من شاطىء النهر ، ومن أسماك النيل والأرغفة المستديرة الطازجة والفطائر المصنوعة من دقيق القمح والشعير والبلح ، ومن العسل والجبن وينهون وجبتهم بكميات كبيرة من الفاكهة الطازجة اللذيذة الطعم ، مثل التين والكنب والقثاء [1] والبلح وتزينها زهور وأوراق وسيقان اللوتس الزرقاء ذات الرائحة الذكية • أما شرابهم فكان من النبيذ أو الجعة المبردة فى أوانى الفخار ، واذا حدث أن أحست ملكة أو أمير بنشوة الشراب كما كان يحدث للرجال فانهم لم يروا فى ذلك أمرا مستهجنا • وعند نهاية الطعام كانوا يتعطرون بعطر زيتى يغرفونه من أوانيه بملاعق طويلة محفورة حفرا جميلا • وفى الولائم كانت السيدات والفتيات يصففن شعورهن بحيث يجعلن فى أعلى الرأس مكانا لوضع العطر الذى يضعه الخدم فوق شعورهن ، وكن يلبسن حول رقابهن عقودا من زهور اللوتس الزرقاء التى كن يفضلنها لجمالها وطيب رائحتها •

لقد عرفنا كل هذه التفاصيل الدقيقة وغيرها من الصور والنقوش البارزة التى يرجع تاريخها الى ذلك العصر • فقد كان هؤلاء الناس الذين عاشوا قبلنا بزمن طويل يحبون الحياة ، وتمتعوا بحياتهم الى درجة كبيرة ، وظنوا أنهم بتكليفهم للفنانين ومهرة الصناع بتصوير

---

(١) فى الاصل « البطيخ » ولكن المصريين القدماء لم يعرفوا البطيخ ، وانما كانوا يعرفون انواعا عدة من الخيار والقثاء ، كما جاء ذكر الرمان بين أنواع الفاكهة ولكن الرمان لم يكن قد ادخلت زراعته الى مصر فى أيام حتشبسوت بل زرع فى أيام تحوتمس الثالث بعد ذلك . (المراجع)

تلك الحياة بصدق وبهجة على جدران مقابرهم يستطيعون أن يحصلوا عليها مرة ثانية فى العالم الآخر . وفوق ذلك فان الرمال الجافة ومناخ مصر الحار غير الممطر قد حفظ لنا برديات لا يحصيها العد ، وهى مؤلفات كتبها علماء مصحوبة برسوم ، وتتناول الشعر ، وبعض صفحات من التاريخ ، ومؤلفات فى القانون ، والطب ، ونظام الحكومة، والزراعة ، وكتب عن الديانة والسحر ، وقصص الحياة الشخصية لبعض الناس ، وبذلك استطاع العلماء فى عصرنا الحديث بما امتازوا به من الصبر أن يكشفوا لنا عن أسرارهم .

ومع أن القصر الملكى فى طيبة ، لم يعد له وجود اذ هدمه فى القرن السابع قبل الميلاد الملك الآشورى آشوربانيبال عندما غزا مصر [1] فاننا نستطيع بفضل هذه السجلاب الرائعة أن نرى صورة ما حدث تقريبا فى ذلك اليوم من أيام الصيف القائظة فى ذلك الزمان البعيد .

ففى داخل القصر نجد البهو الملكى المظلم الرطب بأرضياته وجدرانه الملونة بالنقوش الزاهية ، وأعمدته المزخرفة ، بينما كان الفرعون تحوتمس الأول ذلك المحارب العظيم وأحد مؤسسى الامبراطورية ، وكان قصير القامة ممتلىء الجسم ، وكان أصلع الرأس متوسط العمر ، قد أخذ هو وزوجته وابنه وابنته فترة استجمام ، وقد ارتدى الأربعة ملابس بيضاء يأكلون ويضحكون ويتحدثون .. وكانت خادمات القصر الصغيرات يرتدين ملابس بيضاء ولكنها أقل حجما وأكثر شفافية . وكان رئيس الخدم يراقبهن بحرص ليقدم المزيد

---

(١) كان كل ملك يبنى قصره ، وكانت كلها من الطوب اللبن ، وبالرغم من أننا نعرف على وجه العموم أن أشور بانيبال هدم الكثير من مبانى طيبة وأحرقها فليس هناك أى دليل على أن قصر تحوتمس الأول ، أو حتى بقاياه ، كانت قائمة فى القرن السابع قبل الميلاد . (المراجع)

من الطعام ، وكان رئيس الطهاة يحوم على مقربة من الباب مؤملا تقدير ما بذل من جهد .

وفى الخارج ، خلف الحدائق والأسوار المحيطة بالقصر ، كانت تقوم مدينة طيبة عاصمة القطرين أى مصر العليا ومصر السفلى وقد بنيث مساكنها بالطوب اللبن ، وكانت المساكن - كما هى اليوم - وبداخلها صوامع الغلال المخروطية الشكل ، ذات سطوح مستوية يجفف الناس عليها ملابسهم نهارا وينامون عليها فى ليالى الصيف .

وكانت مساكن رجال البلاط والقواد وأسر النبلاء ، تحاط مثل القصر بأسوار مستطيلة عالية ، وفى داخلها الحدائق . وفيها تنمو الأشجار الظليلة والنباتات المزهرة ، وكان لكل حديقة بركة تنبت فيها أزهار اللوتس ينتعشون بمياهها الزاخرة بالأسماك التى تمنع توالد البعوض .

وقد عرفنا من حياة حتشبسوت فيما بعد أنها كانت تحب الزهور والحدائق والأشجار وكل شىء ذى أريج زاهى الألوان ، ولكنها كانت طفلة فى ذلك الوقت ومن المحتمل أنها كانت تنهر بستانيى القصر بشدة وتأمر بجلدهم عندما يهملون ملء بركة أزهار اللوتس فى أيام انخفاض النيل أو عندما ينسون رى النباتات ، فلاشك فى أن حتشبسوت كانت طفلة محبة لاظهار سلطتها .

وخلف المساكن والضياع الكثيرة كان يقوم معبد آمون اله مدينة طيبة الذى كان على هيئة الكبش ، وكانت تجرى فيه بعض عمليات البناء ، وكان يقف بالمدخل جمع من أهالى طيبة وهم ينظرون فى دهشة الى جذوع الأشجار الكبيرة ، وهى أشجار ضخمة لا ينمو مثلها فى مصر ، ينظرون اليها وهى تنقل من السفن الى الشاطىء يدحرجونها

فوق « ورافيل » الى حيث كان نحـاتو الأحجار يعملون فى كتل من الحجر الجـيرى الناصعـة البيـاض ، وكان يمنع أولئك الناس من الاقتراب حراس متكئون على حرابهم يراقبون فى بلادة الأرقاء وهم يكدون فى الجر بالحبـال • وكانت الأرض كلها ملكا لفرعون ، وعلى كل فرد أن يقوم بنصيبه من العمل فى المبانى العامة سـواء فى المعابد والقبور التى يشيدها ويجملها « جلالته » ، أو فى مشروعات الرى واقامة السدود •

ومن أقدم ذكريات حتشبسوت ، ما أحنت به لأول مرة نحو سر معبد آمون وقدس الأقداس الداخلى الذى كان يسمع « بيت اللهب » حيث يظهر الاله ذو الرأس التى على هيئة الكبش ، ومن بين الظلام يتقبل ، دون أن يتحرك ، قرابين الطعام والزهور والبخور التى يقدمها أبوها والكهنة •

وفى أيام الدولة القديمة عندما كانت عاصمة مصر فى منف على بعد مئات الأميال نحو الشـمال ، وفى أيام الدولة الوسطى ، عندما كان لكل اسرة اقطاعية حاكمة الهها الخاص بها ، كان آمون الها محليا فقط ، الها محليا معبودا فى مدينة لا أهمية لها من مدن الوجه القبلى• ولكن طيبة قد أصبحت الآن مدينة هامة ، وأصبحت مقرا للحكومة فى الدولة الحديثة وعاصمة امبراطورية مترامية الأطراف ، وأصبح الهها آمون الها مهما أيضا ، وكان الناس ينظرون اليه باعتباره واسطة تصل دعوات الناس وابتهالاتهم الى الآلهـة الأخرى عن طريقه ، وكانـوا يطلقون عليه لقب « ملك الآلهة » [1] •

---

(١) فى الأصل الانجليزى وزير الآلهة ، ولكن لقبه الحقيقى هو « ملك الآلهة » . (المراجع)

وعدد الآلهة والآلهات التى ترسم ولها رءوس على هيئة رءوس الحيوانات فى مصر القديمة كبير جدا ، وسبب ذلك أنه فى عصور ما قبل التاريخ كان لكل منطقة قبلية حيوانها الطوطمى ، فكانت بويسطة فى دلتا النيل تتخذ القط ، وفى منف كان الثور ، وفى الفيوم التمساح ، وفى غيرها كان العقاب والبقرة وابن آوى والأسد والحية وطير الأيبس ، ... الخ .

وعندما تطورت الديانة أصبحت هذه الطواطم معبودات ، آلهة وآلهات يحمى كل منها المدينة وما حولها ، مثل آمون اله طيبة ، وانضوت كل هذه الطواطم القديمة تحت سيادة آلهة مصر العظام مثل رع اله الشمس وأوزيريس اله النيل والعالم الأسفل وايزيس أخته وزوجه . ولكن الطواطم التى على صورة الحيوانات ظلت محتفظة بكل مميزاتها الخاصة . فكانت حتحور البقرة ، والتى كانت مقدسة للحب والجمال ، تمثل اما على شكل بقرة واما على هيئة امرأة ذات وجه عريض ولها جدائل شعر ملتوية على شكل القرنين ، وأذنان كأذنى البقرة . وأصبح الصقر الذى كان يمثل أحيانا فى صورة نصفها طائر ونصفها انسان رمزا للاله حورس ابن أوزيريس ، وكان الاله ذو الرأس التى على هيئة ابن آوى رمزا لأنوبيس اله الموتى ، والعجل أبيس اله الزراعة ، وطائر الأيبس ذو المنقار الطويل رمزا للاله تحوت الرسول السماوى واله الكتابة والرياضيات والطب والسحر ، وقد سمى والد حتشبسوت باسم تحوتمس أى « تحوت قد ولد » نسبة اليه .

وكانت حتشبسوت تتابع انتصارات أبيها تحوتمس فى النوبة وسورية وبلاد ما بين النهرين بالاعجاب والفخر وأحست وقتئذ أنه كان يجدر به أن يحيى ذكرى تلك الانتصارات بتوسيع وتجميل معبد آمون .

ويمكننا أن نتخيل فرعون بعد أن تناول وجبة الغداء وقد استدعى أنيني مهندسه الأول ليعرف منه على وجه الدقة كيف كانت تسير عمليات البناء والوقت الذى ستنتهى فيه هذه العمليات ، ولاشك أن حتشبسوت قد استمعت الى ذلك باهتمام ، وأحست بالحسرة لأنها لم تكن الا فتاة ، اذ لو كانت صبيا لتيسرت لها الفرصة فيما بعد لتبنى معابد ضخمة وتترك آثارا خالدة لتمجيد الآلهة وتمجيد مصر • انها لن تشيد أهراما ، لقد بنى الأجداد أهرامهم ليؤكدوا ألوهيتهم الأبدية ، ولكن بالرغم من كل المداخل الخفية والممرات السرية وغرف الدفن الوهمية التي ابتكرها مهندسوهم وبنوها لهم ، فانهم لم يستطيعوا منع لصوص المقابر من شق طريقهم الى أسرارهم الخفية والاعتداء على مومياتهم الملكية للحصول على ما كان معها من أشياء ذهبية • لقد انتهت أيام تشييد الأهرام وأصبح الفراعنة يعتزون الآن ، بتشييد معابد للآلهة تحمل أسماءهم •

وكان تحوتمس وكبير مهندسيه أنيني يناقشان موضوع البوابتين الجديدتين اللتين تقرر تشييدهما أمام المعبد ليكون مدخل المعبد أعظم روعة ، وسيكون للبوابة برجان عاليان ، بيلون ، تنقش عليه انتصارات تحوتمس بالنقوش والكتابات • وسينقش على هذه المبانى اسمه الملكى وشعاره باللغة الهيروغليفية داخل خانات (ونحن نطلق على هذه الخانات الملكية اسم خرطوش) وسوف يكون هناك بهو مسقوف يربط بين البوابة الخارجية والداخل ، ويرتفع سقفه فوق أعمدة ضخمة من أشجار الأرز التى جلبوها من لبنان — احدى المناطق التى أصبحت تابعة لمصر منذ عهد قريب • وكان فى استطاعة أنيني أن يخبر صاحب الجلالة أن جذوع الأشجار الضخمة كانت فى تلك الآونة ترفع من السفن التى حملتها فوق مياه النيل آتية بها من عرض البحر ، وأن

أمهر حفارى الخشب وغيرهم من مهرة الصناع فى البلاد قد استعدو فى موقع البناء ، وهم على استعداد ليبدءوا العمل فى الحال • وأظهر تحوتمس رضاءه ، ولكن كانت لديه وقتئذ فكرة جديدة ليناقشها مع أنينى • فلكى يزيد جمال المعبد الى أبعد حد كانت لديه الرغبة فى اقامة مسلتين من الجرانيت تنتهى كل منهما برأس مثلثة مذهبة تتجمع عندها أشعة الشمس ، وعلى هاتين المسلتين سوف يدون الى الأبد كأحد الفراعنة اسمه وأعماله العظيمة • وحنى أنينى رأسه بوقار ، فان رغبات جلالته يكفى أن تذكر فقط •• وكل ما يستطيعه خادمه المتواضع هو أن يرجو أن يعطى فسحة من الوقت ليكمل البوابات وأبهاء الأعمدة ••••

وعندما أخذ النوم يداعب جفنى حتشبسوت بعد الطعام ، شرد ذهنها بين الرجلين • وفى داخل القصر كان الضوء خافتا والمكان قليل الحرارة نسبيا • أما فى الخارج فكانت الشمس فى عنفوانها وهى فى كبد السماء الصافية ، وكانت الحرارة تعم وتذيب كل شىء وتحيله الى صورة واضحة المعالم • وعندما تطلعت الى النيل العظيم كان من العسير عليها أن تفرق بين المياه البطيئة الجريان الخضراء اللون وبين الأرض اللهم الا أن المياه تبدو مرقطة ببقع بيضاء وهى القلوع التى تدفع بالسفن وهى تمضى مصعدة فى النهر مستعينة بالرياح التى تهب من الشمال ، أما عندما كانت تلك السفن تتجه نحو الشمال فانها كانت تعتمد على التجديف ، اذ كانت لها مجاديف على الجانبين ، وكان لها مجداف كبير لتوجيهها نحو اليمين أو اليسار وكانت مقدماتها ومؤخراتها مرتفعة وتتجه نحو الداخل ، شبيهة بسنابل القمح المحزومة وقد انحنت رءوسها عند هبوب الريح •

وكانت هناك معدية تنقل الفلاحين عبر النهر الى القرى والمزارع

على الشاطىء المقابل الذى كان على وشك أن يغمر بمياه الفيضان عندما يرتفع النهر بعد أسابيع قليلة ، وعندئذ يختفى ذلك الشريط الضيق من الأرض الخصبة الخضراء وتحل مكانه صحراء دهناء اللون لها قمم صخرية خشنة قاحلة لا زرع فيها ولا حياة ، وتختلط أغانى البحارة وهمهمة الكلام والضحك بصراخ الحدأة وهى تحوم فى السماء . كان قدماء المصريين قوما مرحين بالرغم من أن حياتهم كانت ملكا للفرعون وكانت حريتهم محدودة كما نعرف تمام المعرفة .

ولم تعد حتشبسوت تسمع بعد الغداء هذه الأصوات البعيدة . وانتهى الحديث الذى كان يدور بالداخل أيضا . وانصرف أنينى الى بيته القريب ونسج الصمت خيوطه على كل القصر فى ساعة القيلولة حتى أصبح شبيها بقصر أسطورة الأميرة المسحورة ، حتى البواب ، فقد غلبه النعاس فى حجرته . والحراس ؟ حسنا ، فليس هناك من بينهم من ظل يقظا فيرى أو يروى . ان هذا هو الوقت الذى تدير فيه الشمس رءوس القوم وتضطرهم الى النوم فينطفىء نشاطهم كما ينطفىء النور ، وبينما كانت تنام فى الحجرات الداخلية فى القصر ، ورأسها مستلقية فى راحة على مسند رأسها الخشبى المحفور فى ذلك الوقت الشديد الحرارة ، فهل كانت هذه الفتاة الملكية تحلم بما تتمنى أن تحققه من القوة والعظمة (التى كانت تنتظرها) وذلك المجد الذى لا مثيل له عندما تتوج وينادى بها ... هى ... المرأة فرعون على مصر ؟ أم أنها كانت تحلم بأشياء صبيانية ... بقلادة جديدة من الأحجار الملونة المقطوعة على شكل أوراق الزهور ؟ أو بسوار من الذهب النوبى كهدية من هدايا العام الجديد ؟ أو بالتغلب على تحوتمس الصغير فى لعبة الداما أو على والدها فى لعبة من ألعاب الزد ؟ ... أم أنها كانت تحلم بالحب ؟ اننا نستطيع أن نخمن وأن

يستولى علينا العجب ، ولكن هذا هو كل ما نستطيع أن نفعله ما دمنا لم نحصل على يومياتها أو كتاب معترف به عنهـا ليرشدنا الى الحل الصحيح • ولكن الحلم بالوقوع فى الحب لم يكن الا كرؤية السراب، فقد كان حظها فى الزواج مرتبطا بالمولد والتقاليد وليس لديها حق الاختيار • كان عليهـا أن تتزوج من تحوتمس ، أخيها من أبيها ، تلك الشخصية الواهنة الرقيقة اذا قورنت بشخصيتها النشيطة •

ان زواج الأخ من أخته وغير ذلك من صلات القرابة الضيقة ، عند الفراعنة ، أصبحت أمورا تبدو أمامنا الآن بعيدة غامضة ، ومع ذلك فلها تفسير بسيط • كانت النساء فى مصر هن أصحاب الحق فى الملكية وكانت الوراثة تنتقل بينهن ، وحتى الملك يصبح فرعون حاكما عن طريق زواجه بالوراثة للعرش •

كانت أم حتشبسوت الملكة أحمس من السلالة الملكية القديمـة التى كانوا يعتقدون أنهـا من نسـل الشمس ذاتها • وقد استطاع تحوتمس الأول ، وكانت أمه من عامة الشعب ، أن يخلف أباه أمنحوتب الأول على العرش بصفة شرعية عن طريق زواجه بالملكة أحمس (١) • وقد أصبحت حتشبسوت ابنتهمـا الثانية هى الوارثة للعرش عندما ماتت أختها الكبرى الأميرة الصغيرة « خبينت ــ نفرو » ، ولم يكن لهما ابن ذكر ليتولى العرش على هـذا سـوف يئول تاج الفراعنـة المزدوج الى تحوتمس أخى حتشبسوت من أبيها اذ كان ابنا لتحوتمس الأول من احدى الزوجات الثانويات ، وكان يتحتم عليه قبل أن يضع التاج على رأسـه وينـادى به الشعب فرعون لهم ، أن يتزوج من

---

(١) لا يوجد فى الوثائق المصرية القديمة ما يثبت ان تحوتمس الأول كان ابنـا لامنحوتب الأول او ان أمه كانت من عامة الشعب ، وكل ما يمكن أن نقوله عنه انه كان من امراء البيت المـالك • (المراجع)

حتشبسوت الوارثة الشرعية للعرش • وعلى هذا فانه ــ بالنسبة لها وله ــ لم تكن هناك فرصة أخرى للاختيار • فهل كانا يدركان ذلك ؟ من يدرى ؟ فلم يصل الينا أى دليل نعرف منه حقيقة احساسهما نحو بعضهما البعض • كان زواجهما وقتئذ فى طى المستقبل البعيد اذ لم يكونا غير طفلين فى ذلك الوقت يحلمان فى مثل تلك الساعات القائظة من الظهيرة فى القصر النائم فى ذلك الزمان السحيق •

***

والأطفال هم دائما أول من يستيقظ بعد نومة القيلولة • وهذا ما كان حادثا فى القصر الفرعونى بمدينة طيبة • كان لحتشبسوت رفيقات لعب كثيرات ، ونظرا لما كان فيها من نشاط وحيوية فمن المؤكد أنها كانت تتمتع باللعب معهن سواء فى قاعات القصر أو فى الخارج فى الحديقة • وكان هناك فى بركة اللوتس سمك يداعبنه بأعواد من القش وربما كانت هناك ضفادع أيضا • وكان بعض الملوك يحتفظون فى برك حدائقهم بحيوانات أكثر غرابة ، فقد أرسل آخر ملك من ملوك الهكسوس شكوى الى أمير طيبة يقول فيها ان الصوت الذى تحدثه أفراس النهر الموجودة فى بركة قصره بضايقه وعليه أن يسكتها والا ••• وقد دخلت أفراس النهر هذه فى التاريخ ، لأن شكوى الملك الهكسوسى والاستحالة الواضحة فى امكان المحافظة على هدوء أفراس النهر ، كانت القشة التى قصمت ظهر البعير ، وأصبحت الشرارة التى ألهبت الثورة المصرية وأدت الى انتصارات جد حتشبسوت العظيم على هؤلاء الأجانب البغيضين الذين كانوا يعيشون فى مصر •

وربما كانت هناك حية لامعة الجلد قد شربت من الماء ثم انسلت بعيدا ، فقد كانت الحية مخلوقا مقدسا ، وكانوا يعبدونها وكان والد

حتشبسوت يحمل حية مرصعة بالأحجار الكريمــة كجزء من التاج الفرعونى ــ « الأوريوس » ــ المعروفة باسم « سيد الحياة » ، وهى حية ذات درقة منتشرة وكانت على استعداد لتهجم وتقتل أعداءه ، وفى الاستطاعة أن تحمل حيــة مرصعة فى تاجك ، ولكنه من الحكمة مع ذلك أن تبتعد عن الحية التى تراها فى الحديقة ، فقد تغضب الآلهة الحامية على بعض أتباعها أحيانا •

وكان من الممكن زيارة الاصطبلات الملكيــة عندما تقل بهجــة الحديقة وفى ذلك اليوم كان ملاحظ الجياد قد أبلغ أن احدى الأفراس على وشك أن تضع مهرا ، وربما يكون المهر قد تمت ولادته فعلا • فقررت حتشبسوت أن تذهب لترى ما هناك ، لأنها كانت تحب الجياد المتوقدة نشاطا ، المجلوبــة من آســيا ، وكانت تستمتع بالركوب فى العربات الصغيرة ذات العجلتين التى تجرها تلك الجياد ، وهى تسرع قدما وقد تطايرت أعرافها وذيولها فى الهواء • وتحتاج قيادة هــذه العربات الى فروسية وتوازن كبيرين اذ لابد لك من أن تقف منتصب القامة عندما تركب مثل هــذه العربة وتقودها ، وكانت حتشبسوت تمسك جيدا بأبيها عندما كانت تركب معه •

وكان يمكنها الاستماع الى فرقة موسيقى القصر ، وتصغى الى الفتيات وهن يلعبن على آلات وترية ذات رقاب طويلة وهى الطنبور (أو العود) وعلى آلات الجنك (الهارب) الصغير ليصــاحبن أحد المغنين • كمــا كان هنــاك العــازف الأعمى الذى كان يبدو رجلا كهلا للأطفــال الذين كانوا يحبون الأغانى التى يغنيها أو قصص البطولة التى يرويها لمستمعيه ، ولادخال السرور على قلوبهم كان هناك أيضا راقصون من الرجال والنساء ولاعبو الأكروبات والحواة والحيوانات التى تؤدى بعض الألعاب • ان الحياة لم تكن مملة أبدا فى القصر الملكى بمدينة طيبة •

وعندما يكون لدى أبيها فسحة من أعباء الحكم فانه كان يستصحبها هى وأمها عندما يخرج الى المستنقعات لصيد بط الماء • كانوا يذهبون فى زورق خفيف وينتقلون به فى هدوء بين سوق النباتات المائية الطويلة ، مثل البوص والبردى وذلك حتى لايضيعوا فرصة الصيد • وهناك كانت تكمن بعض الأخطار كما كانت تتيسر المتعة فأحيانا توجد التماسيح وأفراس النهر التى يمكن أن تعكر عليهم صفوهم •

كانت حتشبسوت تستمتع بمثل هذه الرحلات وما فيها من مغامرة • كانت تجلس فى الزورق وتمد يدها الى الماء وتعبث بسيقان اللوتس وتلتقط الأزهار الزرقاء والوردية اللون لتضعها فى شعرها الفاحم ولكنها لم تكن لتستطيع أبدا أن تشارك فى الفرحة العامة عندما يصيب سهم هدفه ، ويفرفر طائر ويسقط ميتا ، فقد كانت تحب الحياة والأشياء الحية ولكنها لم تكن محاربة أو صائدة مثل أبيها •

ولكن الحزن حل يوما من الأيام فى حياتها السعيدة • فقد وقعت أمها الزوجة الملكية العظمى الملكة أحمس ، والتى كانت تحبها من أعماق قلبها ، فريسة للمرض الذى أودى بحياتها • ووقتئذ تبدل كل شىء أمام عينى حتشبسوت وعرفت لأول مرة فقط معنى الحزن • كانت الملكة أحمس امرأة ذات روح مرحة وتتضح شخصيتها بجلاء فى الرسوم البارزة التى بقيت لنا لنراها بعد موتها بزمن طويل على جدران المعبد الرائع الذى بنته ابنتها الفرعون حتشبسون فى الدير البحرى • ويبدو على ملامح وجهها الجد والرقة والحزم واحساس لطيف بحب المرح ، فاذا نظرنا الى صورة ابنتها على مقربة منها يمكننا أن نقول ان حتشبسوت قد ورثت عن أمها أنفها الأرستوقراطى وعينيها المستطيلتين وذقنها المستدير • ولم تكن الملكة احمس على جانب كبير

من الجمال ، وكانت حتشبسوت أكثر جمالا ولكنها كانت جميلة فى عينى ابنتها التى كانت تحبها • وهـذه الصور المنقوشـة على الحجر ملونة ، ولا تزال الألوان واضحة ومحفوظة ، والبسمة الحانية التى تعلو وجه الملكة تضىء الصحراء القاحلة ويتردد صـداها فى الفراغ المحيط بها • وفى واحدة منها ترى الاله تحوت وهو يقدم الملكة الى آمون وينص نقش حتشبسوت « أن اسمها أحمس وهى أجمل من أية امرأة أخرى » والآن ها هى قد أصبحت فى عداد الموتى ، وخلا القصر من بسمتها وصوتها ، وضحكتها لم تعد هناك لتلجأ اليها حتشبسوت، ان ألم بها كرب ، أو عند حاجتهـا اليها لتشركها فى سر أو دعابـة وخلال تلك الأيام السبعين التى تحنط فيها الجثـة ويقوم الكهنـة بالطقوس الجنائزية الى أن ينتهى الأمر بوضع التابوت الحجرى فى المقبرة التى نحتت فى الصخور التى على الجـانب الآخر من النيل كانت حتشبسوت تلجأ على ما يظهر الى مربية عجوز باحثة عن الراحة ولتشد من عزيمتها ، وكانت هذه المربية أيضا من اللائى كن قد أحببن الملكة الوديعة أحمس •

وكانا يتخيلان معا الملكة الراحلة وهى راكبة فى مركب الشمس وهو يقوم بالرحلة فى بلاد الغرب الموحشة وفى أثناء الليل تسير نحو الأفق الشرقى • وهنـاك يركب الاله رع من جديد مركب النهـار بينما تبقى هى لتصبح « روحـا مضيئة » وكان الكهنة يرتلون عند صلاة الدفن :« قولوا لها المرح لأنها قد وصلت الى الأفق » •

وكانا يتخيلان معا أيضا أحمس وهى واقفة فى ساحة المحاكمة بين الآلهة ليوزن قلبها مقابل ريشة واحدة رمز الصدق والاستقامة ، فان كانت خطاياها كثيرة الى الحـد الذى تميل كفة الميزان فان الوحش الغريب الخلقة « عمعمت » الذى يقف الى جوارها ، والذى يبدو جزء

منه على هيئة تمساح وجزء على هيئة أسد وجزء على هيئة ضبع وجزء على هيئة فرس النهر ، يلتهمها فى الحال . ولكن ابنتها ومربيتها كانتا واثقين تماما من أن قلبهـا كان نقيا وأنها لن تكون فى حاجـة الى الجعران الموضوع فوق صدر مومياتها ، وقد نقش على جعران القلب هذه الكلمات « يا قلبى لا تكن شاهدا ضدى » وسوف يكون قلبها أخف وزنا من الريشة التى فى الكفـة الأخرى من الميزان ، وسـوف يسجل تحوت كاتب المحكمة ذلك على برديته ، وسـوف يقودونهـا للمثول أمام كبير القضاة أوزيريس الجـالس على العرش باعتبـارها روحا بريئة ، وسوف يمضى الوحش عممت فى ذلك اليوم جائعا .

وربما كانت وفاة أحمس هى السبب فى تحول ابنتها بشـكل واضح نحو الدين ابتغاء السلوى والعزاء ، اذ ترى فى نقوش وكتابات حتشبسوت أنهـا كانت امرأة متدينـة جدا وتحس بفؤادها بالقوى الكامنـة وراء القوى الدنيويـة التى تحيط بها احاطة تامة ، ونظرا لموت أمها « الزوجة الملكية العظمى » أخـذت هى مكان الصـدارة باعتبارها الوارثة لعرش مصر . ولكى يستمر أبوها فى حكمه بصفة شرعية وأن يظل الشعب راضيا ، عليه أن يشركها معه فى الحـكم .. ملكة تحكم الى جانبه بمقتضى حقها . وذهبت عنها فى لمح البصر حرية طفولتها وأصبحت مرغمة على المشاركة فى حمل الأعباء والمسئوليات التى تقع على عاتق كل ملك مطلق السلطة .

كانت أعمال الدولة التى يجب أن تمر بين يدى فرعـون ثقيلة ومتشعبة وكان عليه فى كل يوم أن يوقع كثيرا من أوراق الدولة ، كان عليه أن يعتمد عقود تمليك وهبات للمعابد والمقابر ، مقابل ما يقوم به الكهنة من خدمات وقرابين ، وكان عليه أيضا أن يسهر على الأشغال العامة من مبان وقنوات ومناجم ، وأن يسهر على قانون البلاد ، وعلى

الجيش ، وعلى الزراعة ، وأن يقابل البعثات الأجنبية ويتلقى الجزية وأن يطلع على تقارير الحكام ورؤساء الحاميات فى الجهات البعيدة من الامبراطورية ، ويجيب عنها •

وكان هناك وزيران رئيسيان يقومان بعمل كل شىء له ، وكان وزير الشمال يعيش فى منف (١) ، أما وزير الجنوب فكان فى طيبة ، وكان هو القوة الكبرى فى البلاد بعد سيده الملك ، وكان لمنصبه أكبر نصيب من المسئولية ، وكان عليه أن يقسم أمام الآلهة عند تنصيبه بألا يسىء استخدام سلطته ووظيفته الكبيرة ، بل يعامل كل فرد معاملة عادلة صغيرا كان أو كبيرا فقيرا أو غنيا ، وأن يتأكد من أن جميع موظفيه يسيرون على هذ السنة • لم يكن هناك برلمان أو جمعية عمومية لتختار الوزير وتعين من يساعده ، بل كان فرعون نفسه هو الذى يختارهم جميعا على أساس ما يلمسه فيهم من قوة خلق ومقدرة•

وكان وزير الجنوب يأتى الى مكتب فرعون فى كل صباح ويقدم له تقريرا عن حالة البلاد ، كان يأتى اليه ومعه عرائض لا يحصيها العد، ووثائق للبت فيها والتوقيع عليها ، وكان عليه أن يرتب رحلات يقوم بها فرعون على صفحة النيل ، الشريان الرئيسى فى البلاد ، ليزور المدن فى الشمال وفى الجنوب ليراه شعبه ويتأكد بنفسه من أن كل شىء يسير سيرا حسنا • وكانت حتشبسوت بصفتها شريكة فى الملك تشترك فى هذه الرحلات ، ونستطيع أن نقول ونحن واثقون أنها كانت مهتاجة الاحساس وتشعر بسعادة خاصة عند ترتيب احدى تلك الرحلات

---

(١) فى الأصل الانجليزى ان مقر وزير الشمال كان فى « أون » مدينة الشمس ومكانها هليوبوليس ، ولكن الحقيقة أنه كان فى منف . (المراجع)

وكان تحوتمس الأول قبل كل شيء رجلا عسكرى النشأة • لقد قاد بنفسه جيشه المكون من الرماة وراكبى العربات عندما قام بحملاته الناجحة خارج البلاد وكان رجاله يحبونه كل الحب لشجاعته ، وحسن زمالته ، وقيادته الملهمة وكان يهتم كحاكم للبلاد بحالة الجيش أكثر من أى شيء آخر ، وكانت ابنته هى التى أظهرت النبوغ فى حكم البلاد فى السلم والادارة الصالحة وهى السياسة التى استفادت منها البلاد فيما بعد فائدة كبرى •

وبعد انتهاء زيارة الوزير ، يأتى رئيس الخزانة ليقدم تقريره اليومى عن حالة البلاد المالية • كانت الضرائب تدفع من المحاصيل نفسها وكان مقدارها فى العادة خمس المحصول إذا كان جيدا • كان جامعو الضرائب يستولون على خمس الزيت والحبوب والكتان والقمح والصوف والخضروات وجميع المحاصيل الأخرى التى ينتجها الشعب ، وكانت الحبوب تخزن فى أهراء كبيرة وتبقى تحت تصرفه القصر • ومن الاختصاصات التى كانت تحت اشراف رئيس الخزانة موضوع الجزية الأجنبية فقد كان يتحتم عليه أن يتأكد من أنها تدفع فى وقتها المحدد لها وأنها هى الكمية الصحيحة ، ومن الأنواع اللائقة ، قبل أن يقيد كبير الكتاب جميع مفرداتها وتنقل لايداعها فى مبنى خاص فى طيبة يسمى « البيت الأبيض » وكان هذا البيت فى تلك الأيام ممتلئا الى آخره ولا يكاد يتسع لجميع أنواع الجزية التى كانت ترسل الى مصر من بلاد النوبة وآسيا منذ أن قام تحوتمس بحروبه •

كانت حتشبسوت وزميلاتها قد تعلمن أنه بينما كان للبلاد الأخرى نيل فى السماء « أى كانت تعيش على المطر فقد كان لمصر » نيل ينبع من العالم الأسفل « وأنه كان نهرا مباركا • انهن لم يعرفن شيئا عن منابعه فى الجبال التى تقع الى الجنوب • ففى « ليلة النقطة »

وهى تحدث مرة واحدة فى كل عام كانت الالهة ايزيس تذرف دمعة واحدة ، وعند ذلك يفيض ذلك النهر الغامض العجوز وتزداد مياهه ويتحول الهواء الجاف الى هواء مشبع بالرطوبة ، وتصبح ملابس الناس وجلودهم لزجة الملمس ، ويكثر البعوض والحشرات الأخرى وينتشر المرض فى كل مكان ولكن لم يكن أحد يهتم بذلك فالنيل يرتفع لأن أوزيريس قد أرسل الفيضان السنوى .

وفى عيد « بدء النيل » كان الكهنة يضعون تمثال الاله آمون فى سفينة مقدسة ويخرجون به من معبده فى طيبة ويجدفون به على صفحة النيل ليقدموا القرابين الى المياه . وقد ذكر اليونان بعد ذلك العصر بألف سنة أن القربان الأكبر فتاة حية ، وسواء أكان ما قالوه صحيحا أم غير صحيح أو أن تلك العادة لم تمارس الا بعد العصر الذى نتحدث عنه ، وهو الأسرة الثامنة عشرة ، فان ذلك شىء لا نعرف عنه شيئا لأنه لم تصل الينا أية وثائق خاصة به (١) . وما من شك فى أن فرعون ، وكان هو الآخر الها يعيش بين الناس ، وكان يقدم هو والكهنة المآكل والزهور والنبيذ والجعة الى أوزيريس عندما كانوا يبتهلون الى الاله آمون ليكون الفيضان مباركا .

كان الناس يبتهجون ويمرحون مرحا شديدا فى الاحتفال بالنيل (ومازال المصريون يحتفلون بذلك العيد حتى الآن ولكن فى صورة مختلفة) . كانت السفينة المخصصة لذلك الاحتفال سفينة فخمة تليق بالاله ، وكانت تظل فى مكانها فى المعبد طيلة أيام السنة ، ولكن الآن وقد سحب الناس جميع السفن العادية من الماء ووضعوها فى أماكن

---

(١) لم يتحدث الفراعنة أو اليونان عن تقديم فتاة قربانا للنيل ، وانما كان بذلك الوصف الغريب محض خيال تمخضت عنه مخيلة كاتب عربى وهو ابن عبد الحكم . (المراجع)

أكثر ارتفاعا من المستوى الذى يتوقعون أن تصل اليه مياه الفيضان وتوقف سير السفن حتى تعود المياه الى هدوئها ، فان سفينة آمون خرجت وسارت على صفحة النيل فى عظمة ليقوم الاله بنزهته •

وأخذ النهر يرتفع بالتدرج حتى هدم شاطئيه ، وغطى الفيضان الحقول المزروعة فأغرقها ، وأصبحت القرى مثل الجزر فى وسط المياه، وكثيرا ما اكتسحت مياهه الحمير والماشية والكلاب ، وفى بعض الأحيان الناس أيضا • ولكن الثمن الذى كانت تدفعه البلاد قليل اذا قورن بالخيرات المنتظرة وذلك الماء الأسمر المحمل بالغرين الذى يجلبه النهر معه ، كان النيل يجلب الطمى والحياة والخصب ، وهو أحد عجائب الدنيا • وبعد قليل ، عندما تصبح مياه الفيضان أشبه بمرآة تنعكس فيها السماء وبعد أن يكون باذر الحبوب قد خرج ليبذرها وقد جمع ملابسه ولفها حول خصره ، يأتى اليوم الذى يصبح فيه مكان تلك المياه مرة أخرى حقولا خضراء تتماوج زراعتها • حقا انها لمعجزة •

ان كل شىء يعتمد على الفيضان ، ليست المحاصيل فحسب بل الحيوانات والناس • لقد قال هيرودوت المؤرخ الاغريقى ان « مصر هبة النيل » ومازال هذا صحيحا حتى اليوم كما كان بالأمس بالرغم من وجود الخزانات الحديثة التى تسيطر على الفيضان وتنظم تصريف مياهه •

وكانت التقارير الخاصة بارتفاع مياه النهر ترسل الى الوزير فى طيبة يوميا ليرفعها الى فرعون ، وكانت هذه التقارير تبعث بها المحطات المخصصة لقياس هذه الزيادة وتسمى « مقاييس النيل » أقاموها فى أماكن بارزة فى داخل النهر • ويمكن للانسان أن يرى ما بقى من تلك المقاييس فى جزيرة الفنتين وفى أسوان وجزيرة الروضة بالقاهرة •

وكان يتوقف تقدير مقدار الضرائب فى السنة القادمة ومشروعات الزراعة على ارتفاع الفيضان فى هذه السنة ، اذ أن الفيضان القليل يعنى المجاعة أو الفاقة على الأقل ، ولهذا كانت الضرائب تحدد على أساس قيمة أقل من القيمة المعتادة ليساعدوا الناس على اجتياز ما يصيبهم من محنة . وكان فرعون هو الشخص المسئول عن جميع المشكلات التى تؤثر فى كيان البلاد كلها وكان من المحتم على حتشبسوت أن تتلقى الدروس فيها وتلم بها فى وقت مبكر من حياتها.

***

كان تتويج فرعون وطقوس اعتلائه للعرش على أكبر جانب من الأهمية من ناحية العقيدة الدينية ، لأنه لم يكن الحاكم المطلق التصرف فى البلاد فحسب ، ولكنه كان أيضا الكائن الذى تجسد فيه الاله حورس بن أوزيريس الذى تعتمد عليه حياة البلاد وخصبها . وقبل أن يتم عمل الطقس الأخير من طقوس تتويج حتشبسوت ووضع تاج مصر المزدوج فوق رأسها فى معبد آمون فى طيبة كان على حتشبسوت أن تقوم برحلة تقليدية الى مختلف معابد الآلهة الأخرى فى أماكن عدة فى البلاد فيما بعد على جدران معبدها فى الدير البحرى وذلك بعمل رسوم بارزة ومنحوتة فى الحجر ، وبالكتابات الهيروغليفية .

وهذا هو وصفها لتلك الرحلة : « وكانت جلالتها فتاة جميلة .. بدأت جلالتها الرحلة نحو الشمال تابعة لأبيها ملك الوجه القبلى والوجه البحرى .. له الحياة الى الأبد . لقد ذهبت الى أمها حتحور أميرة طيبة والى الآلهة « بوتو » سيدة « توب » والى آمون رب عرش الأرضين .. وكانوا جميعا مسرورين منها » .

وعندما أصبحت ملكة على البلاد قدمت القرابين فى المعابد وأقامت التماثيل وأصلحت كل ما كان مخربا ، وفى مقابل ذلك كانت تقدم اليها تلك المعابد شارات الملك التى كانت لمدنها عندما كانت عواصم الأقاليم مستقلة •

وعندما عادت الى طيبة ، تمت مراسيم تتويجها وجلست على العرش وكان اسم العرش الخاص بها « كا ــ ماعت ــ رع » بنت الشمس ، ونراها فى رسوم هذه الطقوس التى نجدها فى معبد الدير البحرى تقف بين كاهنين يمثلان الالهين حورس وست وهما يضعان تاجى الصعيد والدلتا فوق رأسها •

وعند ذلك عانقها أبوها وقدمها الى كبار الموظفين وأشراف البلاد الذين كانوا مجتمعين هناك ، وفى هذا المنظر نراها فى صورة شاب يقف أمام الملك وعلى احدى بيلونات تحوتمس فى الكرنك نراه يكمل القصة قائلا : « تعالى أيتها (١) المباركة ، انك أنت الشخص الذى آخذ بين ذراعى ، لكى ترى جميع أوامرك وهى تنفذ فى القصر •• لقد تسلمت وظيفة التاج المزدوج ، وحلت بك بركة قوتك السحرية ، انك قوية بشجاعتك ، وصاحبة السلطان فى الأرضين عندما تشرفين فى القصر وجبينك مزدان بالتاج المزدوج الموضوع فوق رأسك لأنك أنت وريثتى » وبعد ذلك يخاطب المجتمعين : « ان هذه الابنة •• حتشبسوت الحبيبة ، اضعها فى مكانى •• ومنذ الآن سترشدكم ، فاستمعوا الى قولها واخضعوا لأوامرها •• ان من يعبدها سيعيش ، وأما من يقل شرا ضد جلالتها فانه يموت » ،

---

(١) من نقوش معبدها بالدير البحرى •

والآن وقد تم تتويج حتشبسوت فانها أصبحت حاكمة مع أبيها ، لا بالاسم فحسب ولكن فى الواقع أيضا •

***

كان تحوتمس قد أخذ يحس بمتاعب التقدم فى السن ، لقد قارب الستين من العمر وأصبح أصلع بعد أن تساقط كل شعر رأسه وكان يخيل لمن يراه أن أسنانه البارزة أصبحت أكثر بروزا عن ذى قبل • وأخذ يترك مهام الدولة اليومية شيئا فشيئا لحتشبسوت ، وكان يستعيض عن ذلك بصحبة زملائه الذين اشتركوا معه فى حروبه • كان أحدهم وهو « أحمس بن أبانا » قد حارب مع أبيه أمنحوتب ومع جده أحمس من قبله • وكان بحق من رجال الحروب القدماء ، وقد قرر هذا القائد بعد حروب تحوتمس فى آسيا أن الوقت قد حان ، ليستريح من الخدمة اذ كان قد بلغ التسعين أو ما يقرب منها ، وكتب فى نقشه فى مقبرته : « انى قد كبرت ووصلت الى سن كبير ، وسأرتاح فى المقبرة التى أعددتها بنفسى » • كان تحوتمس يحب الاستماع الى ما يقصه ذلك المحارب القديم من ذكريات ، ولكن أحمس بن أبانا قد ذهب الى مقرة الأبدى وأحس تحوتمس ان الوقت قد حان ، ليفكر فى تشييد قبره الذى يدفن فيه ، وحان الوقت أيضا ، ليسجل تاريخ حكمه على جدران الأماكن المقدسة فى البلاد •

فعلى جدران معبد أوزيريس فى أبيدوس ، وهى تقع الى الشمال من طيبة ، وهو أحد المعابد التى رممها وأضاف اليها وجملها ، نراه يترك مثل هذه النقوش على الحجر وهى مكتوبة بالهيروغليفية ، انها كلمات شخص يحدثنا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وهى لا تخلو من المباهاة والاعتزاز : « لقد فعلت أكثر من أى ملك حكم قبلى • وكان

الآلهـة مسرورين بحكمى وكانت معـابدهم فى أعياد مستمرة لقد مددت حدود « تامرى » (مصر) الى آخر ما تصـل اليه الشـمس وجعلتها فوق كل بلد آخر » (1) •

وكان موضوع اختيار مكان لمقبرته الشخصية يسبب له بعض الهموم • ففى أى بقعة يمكن أن يدفن ومعه كل ما يوضع مع الفراعنة من مظاهر العظمـة والفخفخة ، ويتفـادى التعدى على تلك المقبرة وسرقتها ، والاعتداء على تابوته وأثاثه الجنازى الفخم ؟ انه لايمكن أن يضمن الخلود الا اذا ضمن عدم الاعتـداء على قبره لأن روحـه « الكا » يجب أن تتمكن من أن تعود مرة بعد أخرى الى بيتها لتتمتع مرة أخرى بمباهج الحياة على الأرض •

فمنذ سنوات كثيرة كان أمراء وأشراف طيبة يدفنون فى الضفة الأخرى من النهر ، على حافة الصحراء ، بعيدا عن متناول فيضـان النيل • ولكن مكان تلك المقابر كان معروفا ولم يكن خافيا على الناس أو سرا عليهم • أليس يوجد مكان أفضل من هـذا المكان بين تلك المرتفعات والوديان فى تلك التـلال الجرداء التى تصليها الشـمس بنارهـا ؟

فعلى الوزير اذن أن يعد حملة لتذهب الى الضفـة الأخرى من النيل فى الناحية الغربيـة منه ، وأن يترك مكان المقابر القريبـة من الزراعة وأن يتوغلوا فى أرض الصحراء التى تغرب فيها الشمس ، تلك الصحراء التى يمرح فيها الغزال وطائـر الأيبس ، والغراب وثعلب الصحراء ، ويعيش فيها العقرب والصل ، وهما سامان ويسببان الموت

---

(1) من كتاب ابيدوس الذى وضعه ماريت •

لكل من الانسان والحيوان • يجب ألا يكون هناك أى شخص ليراهم، يجب ألا يعرف أحد شيئا عن المهمة التى خرجوا فى البحث عنها •

بدأت الحملة الملكية السرية عملها فى وقت الفجر ، وذهب كل من تحوتمس وحتشبسوت ومعهم الوزير الى المعدية التى على الشاطىء الآخر ، ولم يكن هناك أحد من الناس فيراهم ، لقد أدى الوزير عمله كما يجب •

وعندما تقدمت الحملة فى سيرها وأخذت تقطع ذلك الشريط المزروع متجهة نحو الصحراء كانت الشمس تلقى بأشعتها على الرمال التى تلونت بلون شبيه بجلد الأسد وأحالت لون قمم الصخور بين شعب التلال من اللون الأشهب القاتم الى لون النحاس • لم يعد هناك موضع واحد فيه أثر للزرع لتلقى حتشبسوت بأنظارها عليه ، ومع ذلك فعندما استدار بهم الطريق بين الصخور تجلى أمامهم منظر فيه جمال طبيعى ، منظر مكان غريب ولكنه على قدر من الجمال يجعله صالحا ليكون مقرا لقبر فرعون • وكان يحوم فوق رءوسهم صقر عندما تركوا مكان المعبد الجديد الذى سيعتقد الناس جميعا أن تحوتمس مدفون على مقربة منه عندما يأتى ذلك اليوم ، وسيقومون بطقوس دفن غير حقيقية بينما تكون مومياؤه فى حقيقة الأمر مدفونة داخل تابوتها سرا فى ذلك القبر الخفى •

وهناك ، عندما مروا بمقابر أمراء طيبة الأشراف فى المكان المعروف الآن باسم القرنة ، اتجهوا نحو الشمال الغربى الى واد ضيق شبيه بعنق الزجاجة تظلله صخور التلال التى تلتوى التواءات متتالية لا نهاية لها ، كما بدت لهم فى ذلك اليوم ، انهم كانوا يخترقون قلب سلسلة الجبال •

لم يكن يسمع فى ذلك المكان أى صوت اللهم الا صوت الهواء الذى يهب فوق رءوسهم والذى كان يزحزح أحيانا قطعة من الحجر أو يقذف ببعض الرمال فتتطاير فى الجو من بعض الفجوات الخفية بين الصخور • فالى أين يقصدون ؟ ألا يعطى تحوتمس اشارة ليتوقفوا عن السير ؟ لقد كانت حتشبسوت صامتة ومنطوية على نفسها ، ان الكلام كان أشبه شيء بالتجديف فى هذا المكان البعيد الذى يسوده الغموض والوحدة • ولكن حالتها النفسية قد تغيرت عندما رأت يربوعا شب أمامها وسحلية ذات لون أزرق وأصفر تنقض على حشرة، فلم تكن الا فتاة صغيرة • وبعد ذلك أوقفهم دليلهم لكى يتبع أثر صل ذى قرنين الى جحرة الذى اختفى فيه ويقتله بعصاه التى كان يحملها فى يده •

وأخذوا بعد ذلك يجدون السير حتى أخذ الوادى فى نهاية الأمر يتسع أمامهم ، فانبهرت أنفاسها • وفى اللحظة نفسها رأى أبوها ورأى الوزير ما وقعت عليه عيناها • لقد كانت الجبال التى تحيط بذلك الوادى الضيق أشبه بالجدران الشامخة وفى أعلاه قمة ، انها هرم طبيعى ، الشكل المقدس الذى يرتبط بعبادة الشمس ، لقد لاحت لهم هذه البقعة غير المطروقة كأنهـا وجدت خصيصا ليكون فيها البيت الأبدى لفرعون ، لتكون فيها مقبرته •

اننا نعرف هـذا المكان اليوم تحت اسم وادى الملوك ، وكان تحوتمس الأول الذى دفن فى ذلك الوادى فيما بعد هو أول من دفن فيه ثم تلته حتشبسوت ، كما دفن فيه ملوك الدولة الحديثة تقريبا ، وهم فراعنـة مصر عندما كانت فى أوج قوتها وسؤددها • ويمكنك أن تذهب وترى المقابر ذات التوابيت (١) الخشبية والمنحوتـة فى جوانب

---

(١) المعروف أن التوابيت فى هـذا المكان كلهـا من الحجر وليست من الخشب كما تقول المؤلفة .
(المراجع)

الجبل ، فى حجرات قطعت فى داخل الصخر فى نهاية سراديب طويلة مظلمة • وجدرانهـا وسقوفها مغطاة بطبقة من الملاط وعليها صـور ملونة غريبة للآلهة والآلهات المصرية ، ومن بينها صور لفرعون وهو فى سفينة الشمس التى تقطع السماء فى أثناء الليل وتستقبلها فى العالم الآخر الهة شجرة الجميز وفى يدها اناؤها المملوء بالمـاء المنعش ؛ لقد وزنوا قلبه فوجدوه طاهرا فأخـذوه أمام الاله أوزيريس كروح مبجلة ، ان الألوان ما زالت جميلة حية وتظهر كما لو أنهم انتهوا من عملها اليوم فقط •

ولكن حتى هذا المكان الخفى ، الذى لم يستمر سرا خافيا مدة طويلة ، لم تسلم مقابره من السرقة ، وربما كان اللصوص هم أنفسهم الأشخاص الذين عملوا فى قطع تلك المقـابر وزخرفتهـا • والمقبرة الوحيـدة التى نجت من التخريب هى مقبرة توت عنخ آمون التى لم يكن العمـل قد تم فيهـا عند دفنـه ، والتى كانت صغيرة الحجم بالنسبة الى غيرها ، وقد عثر مكتشفها هوارد كلوتر الذى كان يعمل لحساب اللورد كارنارفون على موميائه سليمة كمـا عثر على حليـه كاملة فى داخـل تابوته الحجرى • وكان توت عنخ آمون فى تابوت موضـوع داخل بضعة توابيت أخرى كل منها أصغر من الآخر ، كما عثر فى الصالة التى قبل حجرة الدفن على عرباته وأثاثه وحليه ووسادات رأسـه ، وكلها من ممتلكاته الثمينة التى كانت روحه (الكا) تحب الاستمتاع بها عندما تعود من العالم الآخر لتتذوق ملذات الحيـاة فوق الأرض •

وقد سرقت المقابر الملكية الأخرى منذ عهد طويل وسرق اللصوص الموميات والكنوز التى فيها ، ولم يعثر على مومياء حتشبسوت ،

وما من شك فى أن اللصوص حطموها عندما جردوها مما كان معها من ذهب وحلى [1] .

وفى طريقهم الى وادى الملوك ألقت حتشبسوت نظرة على المكان الذى قررت أن تبنى فيه معبدها الجنائزى فيما بعد ، وهو مدرج واسع فى أحضان الجبل الصخرى تقف صخوره كأنابيب الأرغن ، وتصلح صلاحية تامة لأن يشيد أمامها بناء ملىء بالأعمدة والأبهاء المفتوحة التى يتخللها الضوء والهواء ، وتخيلت أنه يمكنها أن تسطر هناك أمجاد حكمها وما ستحققه من انتصارات .

ويعرف معبد حتشبسوت فى الوقت الحاضر باسم الدير البحرى لأنه حدث بعد موتها بقرون كثيرة أن بعض المتوحدين فى القرون المسيحية الأولى اتخذوه مكانا يعيشون فيه ، وبنوا فى أحد مدرجاته كنيسة متواضعة من الطوب اللبن ليتعبدوا فيها ، ولكن هذه المبانى من الطوب اللبن قد أزيلت من مكانها كما نظف المعبد مما كان يغطيه من رمال ، ونراه الآن قد وقع كثير من أحجاره من أماكنها وتحطم الكثير من التماثيل ، سواء ما كان واقفا منتصبا منها أو على شكل أبو الهول ، ولكنه رغم ذلك كله من أجمل المعابد فى مصر كلها . ومن دواعى المسرة لنا أنها كانت تحب الفخر والمباهاة كغيرها من الفراعنة وكانت تحب تشييد المبانى والتظاهر ، وان فكرة التواضع كمظهر من مظاهر العظمة لم تخطر لها على بال .

وبمجرد اختيار ذلك الوادى الموحش الذى تعلوه قمة هرمية الشكل ليكون مقرا لتحوتمس ، بدأ « أنينى » يخطط وينظم أمر

---

(١) عثر على مقبرتين لحتشبسوت ، ولكن لا يوجد اى دليل على أنها دفنت فى واحدة منهما ، أو دفنت فى وادى الملوك على الاطلاق ، اذ أن نهاية حكمها كانت نهاية حزينة نظرا لما كان بينها وبين تحوتمس الثالث من عداوة . (المراجع)

حفر المقبرة التى تحت سطح الأرض . وجاءوا بالصناع من طيبة على الضفة الأخرى من النهر وأسكنوهم فى مساكن أشبه بالسجن بنوها لهم فى مكان بين تلين حتى يسهل وضع الحراس على كل ناحية من الناحيتين ليمنعوهم من الهرب . وكان من الضرورى أن يبقى العمل فى طى الكتمان ، ولهذا كان محرما على العمال أن يغادروا المكان فى أى وقت من الأوقات حتى لا يتحدثوا بذلك الى غيرهم ، ومازالت بقايا القرية التى كانوا يعيشون فيها باقية حتى الآن .

ويلوح أن تحوتمس قد أحس باقتراب منيته فأخذ يفرق العطايا من الذهب والفضة على معبد الاله أوزيريس فى أبيدوس حتى يقوم الكهنة بتقديم القرابين وعمل الصلوات له بعد موته ، وحتى يستمروا فى ذلك الى الأبد . وأخيرا عندما بلغت حتشبسوت سن العشرين فى عام ١٩١٤ ق.م ، وكان تحوتمس قد قضى خمسة وعشرين عاما على العرش « استراح من الحياة وذهب الى السماء ليختلط بالآلهة » .

***

وهنا بدأت حتشبسوت وقتا عصيبا فى حياتها . لقد كانت وريثة للعرش ، وتم تتويجها ، وكانت شريكة مع أبيها فى الحكم ، ولهذا فانه من المعقول أن تكون هى الفرعون الذى يلى تحوتمس على العرش . ولكن تقاليد البلاط ودسائس الكهنة بدأت تتدخل فى الأمور لأن فكرة حكم امرأة ووضع جميع السلطات فى يديها كانت أمرا يغضب كثيرا من الناس . ولهذا السبب كان من المحتم أن يشترك معها أخوها غير الشقيق ، وذلك الشخص الواهن الصحة المسمى تحوتمس الثانى ، وأن يكون شريكا لها فى الملك كفرعون للبلاد وأن تصبح هى زوجة ملكية لا أكثر من ذلك .

ولم تكن هنـــاك فائدة ترجى من وراء الاحتجاج ، فقد كانت الظروف ضـــدها ، وبدءوا يعدون معدات زواجهـــا من تحوتمس ، وسمحت حتشبسوت لوصيفاتهـــا وقلبها مثقل بالهموم بأن يعد لها الحمام ويعطرنها ويلبسنها ويجملنها بأنواع العطور ومواد التجميـــل التى كانت المصريات يحببنهـــا فى ذلك الوقت : كالكحـــل لتخطيط الحواجب وعمل شرطة صغيرة بجوار كل عين لتظهر أكثر اتساعا ، والحنـــاء لصبغ يديها باللون الأحمر وكذلك قدميها ليظهر جمالهما فى الصندل ذى السيور الجلدية • وأوضحت المرآة التى أمسكتها أنهـــا شابة وجميلة ، وكان مديحها يتغنى به من حولها وهم يحملونها الى معبد الاله آمون حيث زوجهـــا الكاهن الأكبر الى تحوتمس الصغير الذى كان مظهره أقرب الى الفتاة منه الى الشاب بسبب شعره الأسمر المجدول صناعيا ، وقوامه النحيف • وكان العـــازف على الجنـــك يغنى قائلا :

« انها عذبة الحب ، ابنة الملك » فيردد الآخرون : « انها عذبة الحب ابنة الملك » •

ان ضفائر شعرها سوداء مثل سواد الليل •

خصلات شعرها سوداء مثل نبيذ العنب ،

ان قلوب النساء تنعطف نحوها وهن فرحات

وينظرن الى جمالها الذى لا يمكن أن يقرن به أحد

انها عذبة الحب ابنة الملك

ما أجمل ذراعيها وهى تتمايل برقة فى رقصها •

وتسيل قلوب الرجال وتصبح كالمـــاء عندما تنظر اليهم

ان جمالها أعظم من أن يصفه لسان مخلوق

انها عذبة الحب ابنة الملك

ولكن بينما كانت تستمع الى كلمات تلك الأغنية فمن الجائز ان صدى أغنية أخرى كانت تتردد فى أعماق نفسها ، أغنية غناها لها فى اليوم السابق أحد الأشخاص الذى يحرم عليها أن تتزوج منه •

تعالى الى واخترقى الحديقة أيتها الحبيبة

ان حبى مثل كل زهرة تتفتح •

انها طويلة وممشوقة كنخلة صغيرة •

وعلى كل خد من خدودها حمرة تشبه الورد فى لونها •

ولسنا نعرف الا القليل عن حكم تحوتمس الثانى القصير المدة اللهم الا أن ثورة قامت فى الجنوب ، ولكنه بدلا من أن يقود الجيش بنفسه ويسير الى الأعداء — كما كان يفعل أبوه لو كان فى مكانه — فانه اكتفى بتوجيه أمر شديد من القصر يأمر فيه قواد جيشه ألا يتركوا شخصا ذكرا من شعب العدو على قيد الحياة • وفى أحد نقوش ذلك العهد نراه يضع قدمه دليل الانتصار فوق رقاب الأسرى المكبلين بالأغلال ، والذين لا يستطيعون الحراك ، وهم الذين عادت بهم الحملة التأديبية التى أرسلها اليهم •

كان تحوتمس شخصا ضعيفا وربما كان مريضا فى الوقت نفسه وبعد وقت قصير أصبح واضحا أنه سائر فى طريق الموت وبدأت حتشبسوت تحكم البلاد باسمه كفرعون ، وأخذ رجال البلاط وكبار الموظفين يتساءلون ما الذى سيحدث عندما يموت ؟ لم يكن هناك أمير آخر يستطيع أن يخلفه على العرش كما لو أنها ستحكم البلاد

فى النهاية بمفردها • وسر أصدقاؤها الذين يعرفون قدرتها وقوة خلقها من هذه الفكرة وكانوا على أتم استعداد ليخدموها باخلاص عندما يحين الوقت •

ولكن شخصا آخر فى معبد آمون بالكرنك كان يدبر المؤامرات للوصول الى العرش مثيرا الشعور العام بين الكهنة والناس ضد فكرة قيام امرأة بحكمهم • فهل كانت حتشبسوت على علم بتلك المؤامرة عن طريق جواسيس القصر ؟ أو أن ما حدث بعد ذلك كان مفاجأة تامة لها ؟ لقد مات تحوتمس عام ١٥٠١ ق•م • وفى أحد الأيام، بعد موته بوقت قصير ، وعندما كانت فى المعبد لتشهد احتفالا يخرج فيه موكب الاله آمون ، وقفت المحفة التى تحمل تمثال الاله أمام كاهن صغير السن وأبت أن تتزحزح بعد ذلك ، فوافق جميع الحاضرين على أن ما حدث ليس الا علامة بأن آمون قد اختاره ليصبح زوجها ، وليكون الملك القادم •

ولم يكن أمام حتشبسوت الا الخضوع • فان ذلك الكاهن الصغير الذى كان يسمى أيضا تحوتمس والذى أصبح يسمى فيما بعد تحوتمس الثالث ومن ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، كان ابن أخيها وتجرى فى عروقه الدماء الملكية من ناحية أبيه ، ولكن أمه « ايزيس » لم تكن الا احدى الزوجات الثانويات ، لقد أتت الدسائس بثمارها •

وفى اليوم الثالث من شهر مايو ١٥٠١ ق•م• ترك تحوتمس عمله كأحد صغار الكهنة فى معبد آمون ليدخل القصر الملكى للفراعنة • كان عمر حتشبسوت فى ذلك الوقت أربعا وثلاثين سنة فتزوجها وعادت الى مركزها السابق أى زوجة الملك : « الزوجة الملكية الأولى » ومنذ اليوم الأول سادت بينهما المنافسة والمرارة ، ولكن كان هناك أطفال من تحوتمس الثانى ، ابن وابنتان • فأما الابن فقد مات فى

طفولته ولم يبق اسمه على أى أثر من الآثار ، وأما الابنتان فاسمهما « نفرو رع » « ومريت رع حتشبسوت » .

ولم تكن الملكة وحدها هى التى تحس بعدم السعادة لما وصلت اليه الأمور بل كان هناك آخرون غيرها ، وعلى الأخص « سنموت » ذلك الرجل القادر الطموح الذى عينته ليكون مربيا لابنتيها . كان سنموت شديد الذكاء جم النشاط كما نستطيع أن نرى ذلك فى قسمات وجهه وأنفه المعقوف ومحياه الغامض المليء بالتجاعيد كان مخلصا لحتشبسوت ومعجبا بها كل الاعجاب ، ولم يلبث حتى جمع حوله شركاء له وكون حزبا للملكة ، ولم يلبث هذا الحزب الا وقتا قليلا حتى اشتد نفوذه وأصبح قويا لدرجة أن فرعون الذى لم تكن لديه الخبرة الكافية أصبح عاجزا عجزا تاما على حكم البلاد واضطر لاخلاء المكان لزوجته . وأخيرا تم اعلان حتشبسوت فى عام ١٤٠٤ ق.م. ملكا على الصعيد والدلتا وحكمت مصر وحدها كفرعون .

كانت هذه اللحظة هى لحظة النصر . ففى أغانى المديح التى كانت تغنى أمام فرعون فى كل يوم كانوا يسمونها « حورس الأنثى » وأضافوا تاء التأنيث فى آخر الكلمة التى تدل على « الجلالة » وأخذت ترتدى ملابس الرجال عند ظهورها فى الاحتفالات الرسمية كما كانت تلبس لحية مستعارة صغيرة كما كان يفعل الفراعنة فى المناسبات الرسمية . لقد كانت تتمنى دائما أن تكون ولدا وها هى قد أصبحت حرة لتقوم بدور الملك بدلا من دور الملكة فى مصر كلها .

ويشير أنينى « الى تحوتمس الثالث بأنه الملك الذى يجلس على عرش من أنجبه » ولكنه يقول أيضا « ان اخته [1] ، الزوجة الآلهية

---

(١) فى الأصل الانجليزى « تحوتمس الثالث » ولكن الحقيقة أن النص يشير الى تحوتمس الثانى وسلطانها فى أثناء حياته وفى الفترة التى تلت موته ، اى فى بداية اشتراكها فى الملك مع تحوتمس الثالث . (المراجع)

حتشبسوت كانت تدير شئون الصعيد والدلتا بتدبيرها ، وكانت مصر تعمل لها وهى مطأطئة الرأس ، وكانت صاحبة الأمر ، لأنها البذرة الممتازة التى خرجت من الآلهة » .

والخانات الملكية التى كتب اسم حتشبسوت فى داخلها ، والتى تظهر على جدران الدير البحرى والكرنك وفى غيرهما من الأماكن فى مصر صريحة فى معانيها « ملك الصعيد والدلتا ، كا ــ ماعت ــ رع ، ابنة الشمس صديقة آمون حتشبسوت ، حورس الذهبى : مانحة السنين الهة الاشراقات ، هازمة جميع البلاد ، التى تحيى القلوب ، زوجة آمون الكبرى ، السيدة القوية » .

ولكن ما الذى فعله تحوتمس عند هزيمته ؟ هل هرب ؟ هل ظل فى القصر حزينا مكتئبا ؟ ان التاريخ لا يوضح لنا ذلك ، ولكن من الصعب ان تتصور أن الاثنين يستطيعان بعد ما حدث بينهما أن يكلم أحدهما الآخر . فقد رأى تحوتمس انهيار ما كان يطمع فيه ، أما هى التى كانت زوجته ، فانها بالرغم من أنوثتها كانت المنتصرة المتسلطة .

ولكن الدراسات الأثرية رغم ذلك تلقى شيئا من الضوء على شعور تحوتمس فعلى أثر موتها أخفى معظم نقوشها ومبانيها فى الكرنك ، وأقام أمامها جدرانا شيدت من الحجر كما أمر بتشويه خاناتها الملكية وصورها . ويختلف الأثريون فيما بينهم اختلافا كبيرا فيما اذا كان تحوتمس قد أمر حقيقة بهذا التشويه انتقاما منها أو أن ذلك قد حدث فيما بعد ، بعد فترة من الزمن عندما أبى الناس أن يصدقوا أن امرأة يمكن أن تصبح فرعون للبلاد ، وأن تضفى على نفسها كل هذه الأمجاد . ولكن الحقيقة ما زالت ماثلة أمامنا فقد حدث التحطيم ولو درسنا حياتهما معا لوجدنا كل شىء يشير الى الانتقام والمرارة التى تجمعت مع مرور السنين .

وعينت حتشبسوت مناصريها المخلصين الذين كانوا من حزب الملكة فى أعلى المناصب فى البلاد عندما تم لها الفوز • وأصبح « سنموت » أقرب الناس اليها مديرا للقصر وحاملا للأختام الملكية وعينته فى وظيفة « أنينى » مشرفا على بيوت آمون وعينت أخاه « سنمن » فى وظيفة كبرى أيضا ، وعينت « حابوسنب » الذى كان من الأشراف الأقوياء وزيرا للجنوب وكاهنا أكبر لآمون فجمع بين يديه الاشراف على كل من الناحيتين المدنية والعسكرية •

***

والآن وقد أصبحت حتشبسوت فى نهاية الأمر ، وحدها حاكمة للبلاد فما الذى فعلته لمصر ؟ هل تخرج الى الحرب وتستولى على البلاد الأجنبية كما فعل أبوها ؟ أو أنها تبدأ بوضع الأمور فى نصابها وتبنى مصر كبلد مزدهر آمن ؟ وكان السلام هو أقرب الأشياء الى قلبها كامرأة ، كما كانت تحب أيضا الحياة وفنون السلم • وكانت تحب دياناتها من كل قلبها بما فيها من آلهة كثيرين ، وكانت تحس بحق أنها واحدة منهم ، وكان لها أن تكتب على جدران معبدها فى الدين البحرى : « أنا الهة ، وأنا بداية الوجود » ولم يكن هذا القول تجديفا فى نظر المصريين ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الفرعون ليس الا حوْرس بن أوزيريس الذى يعيش فى الأرض وأن رفاهية مصر كلها تعتمد عليه •

ورأت حتشبسوت أن خير ما ينسيها أحزانها الخاصة ومتاعبها هو أن تنشط فى العمل ، فأ ى شىء أفيد وأكثر عزاء من أن تشيد معبدا لنفسها ؟ وعندما رأوا ذلك المكان المستدير فى بطن الجبل الذى وقع عليه اختيارها ، كانت حماسة كل من سنموت والوزير حابوسنب لا تقل عن حماستها • كان هذا المكان فى الوقت ذاته مقدسا للالهة

حتحور التى كانت حاميـــة له ، وكانت تنيل العاشقين ما ترغب فيه قلوبهم ولهذا كانوا يقدمون لها القرابين ، فما أجمله من مكان يصلح ليكون معبدا لهذه المرأة الجميلة التى كانت فرعون لمصر ، ولم يمض الا زمن قصير حتى أصبح ذلك الوادى الموحش مليئا بنشاط كبير •

والى جانب الموقع الذى اختارته كان يقوم معبد عمره أكثر من خمسمائة ســنة بناه الملك منتوحوتب الذى كان واحـــدا من أسرة حكمت مصر من قبل وكان معبده فى أيام حتشبسوت مخربا ومهجورا •

وأوحت عمارة معبد منتوحوتب الى سنموت أن يتخذه مثالا يحتذيه ، لأنه كان متلائما مع الموقع الطبيعى الذى حوله اذ أن أكثر أجزائه كان مفتوحا وغير مغلق على أماكن مظلمة تحيط بها الأسوار شأن معظم المعابد المصرية ، ولهـــذا آثر أن يقتبس تخطيطه ليكون أساسا للمعبد الجديد الكبير الذى كان يبنيه لملكته حتشبسوت •

وكان اهتمام هذه الملكة بالفن والعمارة كبيرا الى درجة تجعلنا نجزم بأنه كان يتحتم على سنموت أن يعرض عليها جميع التخطيطات التى يقوم بعملها ليحصل على موافقتها قبل الشروع فى تنفيذها • فالبوابة التى فى السور المحيط بالمعبد تؤدى الى طريق فخم تقوم على جانبيه تماثيل رابضة على صورة أبو الهول ورءوسها على هيئة رأس الملكة نفسها ، وفى آخر الطريق يبدأ أول طريق صاعد ، ثم الى درجات تؤدى الى مدرجات ذات أعمـــدة يتلو بعضها بعضـــا وعلى كل من جانبى الطريق وضع تصميم أحواض صناعية لتنمو فيها الزهور ، وفى كل ناحية بركة لنباتات البردى •

ولانشاء مثل هذه الحديقة الرسمية استلزم الأمر عمل حفرات وملئها بطمى النيـــل الخصب ، كما كان يتحتم على موظفى المعبد أن

يقوموا بسقيها كل يوم . وقد كشفت الحفائر بعد رفع الرمال التى غطت هـذه المنطقة عن تلك الحفرات وفيها بقايا من النباتات ذات الزهـور التى كانت تنمو فيهـا البرك والضحـلة التى كانت على شكل T ، وكانت تنمو فيها نباتات البردى . ولاشـك أن هـذه الحديقـة اليانعة كان لها وقعهـا على المتعبـدين بعد أن أجهـدوا أنفسـهم فى السـير فى تلك الصـحراء المحرقـة ذات اللون الذهبى وفى صعود المدرجات . وفى السـاحة الخارجيـة التى كانت تقوم فيها تماثيل كبيرة فى صورة الاله أوزيريس كان الكهنـة يتلقون من أولئك الزائرين ما حملوه من هدايا أتوا بها ليقدموها لالههم ، ثم يقودونهم بعد ذلك ليقدموا القرابين لتمثاله فى داخل الهيكل الخفى عن الأنظـار .

وكان اليوم الذى حددوه للطقس المعروف باسم « مد الحبل » ووضع حجر الأساس فرصة لعمل احتفال عام كبير ولاشك أن منظم هذا الاحتفال هو سنموت « مدير بيت الاله آمون » وقد سـارت حتشبسوت فى المقدمة ووراءها وزير الجنوب وجميع مديرى الادارات وكهنة آمون . وحفروا حفرة فى كل ركن من الأركان الأربعـة فى الأساسات المحفورة وذبحوا ثورا وقطعوه الى أجزاء ثم سار الكهنـة الى تلك الحفرة وملئوها باللحم وغير ذلك من المـأكولات ودعـوا الآلهة ألا يتعرض فرعون لأى ألم من آلام الجوع فى العالم الآخر .

لقد عثر رجال الآثار فى العصور الحديثة على ودائع الأساس فى معبد حتشبسوت بالدير البحرى ، كما عثروا على أرجل وأضلاع من لحم الثيران وعثروا أيضا على أرغفة من الخبز المخروطية الشـكل وعلى كعكات مستديرة صغيرة الحجم وعلى شعير وتين وعنب وعناب وبلح وبعض الخضروات والسمان ونماذج صغيرة لأوانى النبيذ .

كما عثروا أيضا على شىء فريد وهو مجموعة من نماذج أدوات البناء التى ينتظر أن يستخدمها العمال ومن بينها قدوم النجار وفأسه ومطرقته وأزميله وبوتقة صاهر المعادن ، كما عثروا على قالب صانع الطوب وفأسه الخشبى وغرباله الذى يغربل به الرمال .

وبالرغم من أن المعبد الجديد كان مقاما تكريما للاله آمون ولابنته حتشبسوت فربما قد أحس هذا الاله بشىء من الغيرة لأن هذه المبانى لم تشيد فى معبده الكبير فى الكرنك . وعلى أى حال فقد ذكرت حتشبسوت أنه زارها فى المنام وطلب منها أن « تخلق (بونت) فى بيته » ، وكلمة بونت هى الكلمة التى تدل على بلد غامض فى الجنوب الشرقى من مصر وكان له شاطىء خصب فيه أشجارالبخور الثمينة ، واليه كان المصريون يرسلون الحملات للتجارة ولاحضار البخور الذى كانوا يحتاجون اليه لاحراقه فى أثناء القيام بالطقوس الدينية فى المعابد . ولا يعرف أحد على وجه التحقيق مكان بلاد بونت ، وقد اقترح بعض الجغرافيين والمؤرخين كلا من بلاد الصومال وزنجبار والشاطىء الجنوبى من بلاد العرب .

فكيف يتيسر لحتشبسوت تحقيق رغبة الاله ؟ وليس هناك الا جواب واحد لامرأة فى مثل خلقها ، يجب عليها أن ترسل أسطولا تجاريا الى بونت ليأتى بأشجار كاملة النمو لتزرعها فى حديقة آمون داخل أسوار الكرنك .

ونرى جميع تفاصيل هذه الرحلة على جدران معبد الدير البحرى . فقد أشرف كل من سنموت والوزير على اعداد خمس سفن حملوها بالسلع التجارية المصرية وبهدايا الملكة الى زعيم بلاد بونت . وأخيرا جاء اليوم الذى قالت عنه نبوءة المعبد انه يوم سعيد للسفر ، فخرجت حتشبسوت وهى تلبس الملابس الرسمية وعلى رأسها التاج ،

واجتمع على جانب النهر كبار الموظفين والكهنة وجميع سكان طيبة ، وقدموا القرابين لتطيب نفس آلهة الهواء لكى يرسلوا دائما رياحا طيبة ، وجاءت ردود العرافين مبشرة بالخير فرفعوا الهلب ونشروا الشراع وساروا متجهين نحو الشمال تتبعهم تمنيات الشعب الطيبة وتردد أصداءهم خلفهم •

وقد حدث فى أيام الدولة الوسطى أن المصريين حفروا قناة تربط النيل عند نهاية الدلتا بالبحر الأحمر ، وقامت حتشبسوت بتنظيف هذه القناة وأعادت استخدامها لكى يستطيع أسطولها أن يسير فيها ويخرج الى خليج السويس وبعده الى مياه البحر الأحمر • ونرى فى النقوش الخاصة بهذه الرحلة على جدران المعبد سفن الأسطول وهى تسير والى جانبها أسماك نيلية فى المياه ولكنا نرى بعد ذلك تحت سطحها أسماء البحر الأحمر ، وقد تمكن علماء الأحياء المائية من تحقيقها وقالوا انها من نفس الأنواع التى تعيش اليوم فى تلك المياه •

وعندما وصلوا الى شواطىء بونت سالمين ، رسا قائد الأسطول وأمر أن تنصب خيمته ، واستقبله بالترحاب زعيم بلاد بونت ، واسمه « بريحور » وقبل بسرور الهدايا التى أرسلتها جلالة الفرعون، ونرى زوجته معه وقد رسموها سمينة الى حد كبير ، كما نرى أولاده أيضا مرسومين يتزاحمون حولهم يملؤهم حب الاستطلاع ، وكانوا مسرورين بصفة خاصة بتمثال لحتشبسوت مع الاله آمون وقد أقيم هذا التمثال هناك فيما بعد على الشاطى تذكارا لهذه المناسبة ، وربما مازال قائما هناك الى الآن يثير استطلاع أناس نسوا معناه منذ وقت طويل ، ولكن نظرا لأن مكان بونت لا يعرفه انسان على وجه الدقة فان الأثريين لم يكتشفوه حتى الآن •

وبعد التعارف والمراسيم الخاصة بالتمثال بدأ موضوع التحدث فى التجارة ونرى فى النقوش طاولة وفوقها عقود الخرز ، والطرائف المصرية الأخرى التى أحضرها القائد ليبادل عليهـا شعب بونت اذ لم تكن النقود معروفة لهم . وتذكر حتشبسوت أن سفنها عادت محملة « حمولة كبيرة بعجائب بلاد بونت ، وجميع الأخشاب الطيبة الرائحة وأكوام من البخـور ، ومعهـا أبنوس وعـاج حقيقى وذهب آمون الأخضر ... » وتقول أيضا انه كان بالسفن مواد تجميل العيون ، وجلود الفهد ، وعدد كبير من القردة الحيـة والنسانيس ، والطيور والكلاب وفهو قنصوه خصيصا من أجلها ؛ وقد عـاد معهم الى مصر بعض أناس من بونت ومعهم أطفالهم .

استغرقت الرحلة فى ذهابها وايابها مدة عامين ، وأخـيرا عادوا لموطنهم ورست السفن فى طيبة . ولابد أن سكان طيبة كانوا يتطلعون وملؤهم العجب عندما أنزلوا الى الشاطىء سكان بونت ذوى الهيئة الغريبة وجميع حاصلاتها ، ومن المؤكد أن عددا من الأطفال الصغار السمر اللون ساروا وراء القائد حتى وصل الى أبواب القصر وبقوا هناك حتى طردهم الحراس ، بينما كان القائد يقدم هدايا بلاد بونت وسلعها التجارية الى جلالتها .

وقدمت حتشبسوت فى الحال نسبة كبيرة منها الى آمون اعترافا بفضله فى عودة السفن سالمـة ، ودعت رجال بلاطها وكرمت سنموت والوزير باجلاسهما عند قدميها وأعلنت نجاح الحملة لمن كان حاضرا من الضباط والأشراف وقالت فى مباهاة « ان بونت قـد نقلت الى طيبـة » .

وأمرت بزرع احدى وثلاثين شجرة من أشجار البخور فى داخل أسـوار معبد الكرنك : « لقد أنشأت له (أى آمون) « بونت »

فى حديقته كما أمرنى ، وهى كبيرة الى درجـة أنه يستطيع التنزه فيهـا » .

وقامت حتشبسوت بعمل آخر هام ولو أنه أقل شهرة من رحـلة سفنها الى بونت ، اذ كان هذا العمل هاما لرفاهية المصريين لأنهـا أعادت العمل فى مناجم النحاس والملاخيت فى شبه جزيرة سـيناء ، فقد توقف العمل فى تلك المناجم فى ذلك الوقت المضطرب فى أثناء حكم الهكسوس لمصر ، ومازلنا نجد فى سـيناء لوحة عليها كتابة ، احياء لذكرى هذا العمل وتمجيدا لمـا فعلته .

***

واحتفلت حتشبسوت بعيد « الحب سد » أو عيد تجديد ارتقائها للعرش فى العام الخامس عشر من حكمها ، فقد عملت كثيرا من أجل شعبها وهيأت له الاستقرار والرفاهية والسـلام كما أثبتت ولاءها للآلهـة « لقد جـددت ما كان قد تخرب ، وأتممت ما لم يتم منـذ الوقت الذى كان فيه الأسيويون ... والهمج فى شمال البلاد مخربين كل ما سبق عمله ، وكانوا يحكمون متجاهلين الاله رع » ، هذا هو ما قالتـه فى نقش لها على واجهـة معبد منحوت فى الصخر فى بنى حسن بين طيبة ومنف .

لقد نجحت حتشبسوت وانتصرت كملكة للبلاد ، ولكنها كامرأة لم تعرف غير الحزن والخسارة . كانت علاقتها مع زوجهـا تزداد سوءا كلما مرت الأيام ، وكبر فى العمر وأخذ يحس بخيبـة الأمل ، لأنه لا سـلطان له ، كما ماتت ابنتها الكبرى نفرو ـ رع ، ولم يبق لها ، كمـا حدث لأمها من قبل ، الا ابنـة واحدة وهى مريت رع حتشبسوت التى أصبحت أميرة ملكية ووارثة للعرش .

ومهما كان الأمر فيجب الاحتفـال بالعيد ويجب أن يقـام أثر تذكارى مناسـب ولكن ما هو ؟ ان حتشبسوت تقول لنا : « كنت أجلس فى القصر وأفكر فى الخـالق عندما استحثنى قلبى لأقيم له فى بهو الأعمدة مسلتين ترتفع قمتاهما الي السماء » •

كان ذلك فى أوائل شهر فبراير ، وأمرت باستدعاء سنموت لكى يبدأ العمل فى الحـال ويجمع العمال وينظم أمر قطع تلك المسـلتين الهائلتين التى تتكون كل منهما من قطعـة حجر واحدة من محاجر الجرانيت فى أسـوان على حدود بلاد النوبة • وأمرته حتشبسوت أن يكونا أكثر ارتفاعا من أى مسلة أقامها أى فرعون حكم قبلها •

وأخذ العمال يشتغلون بالأدوات المصنوعة من الحجر ، لأنه لم يكن لديهم اذ ذاك أدوات من المعدن ، وكانوا يستخدمون ايقاد النار والرافعـات لفصـل الجرانيت ، وأخـيرا اسـتطاع العمـال أن يقطعوا تلك المسلات ويفصلوها من الصخور فى المحاجر • وارتفاع كل منهما ٩٧٫٥ قدما وتزن أكثر من ٣٠٠ طن وقد حملوها الى النهر بوضعهما فوق زحافات تسير فوق « درافيل » ونقلوها فوق سفينة بنيت لهـذا الغرض ــ وربطوهما فوقها ــ واضعين المسلتين فوقهـا وقاعدة كل منهما أمام الأخرى ، كما نرى ذلك فى رسـم على أحد جدران معبد الدير البحرى منتهزين فرصـة فيضان النيل وارتفاع مياهه لتعويم السفينة حتى تصل الى طيبة •

واحتاج العمال الى شهر آخر لنقشهما وصقلهما وتغطية الأجزاء الهرمية الشكل فى أعلى المسلتين بصفائح الذهب اللامع ثم اقامتهما فى مكانهما • « حقا ، ان هاتين المسلتين غطتهما جلالتها بالالكتروم[1]

---

(١) مزيج من الذهب والفضة وكان يسمى ايضا الذهب الأبيض . (المراجع)

ان كلا منهما من حجر واحد من الجرانيت ، ليس فيها كسر أو عرق : أمرت جلالتى بهذا العمل فى العام الخامس عشر فى أول يوم من شهر أمشير وانتهوا منه فى العام السادس عشر فى آخر يوم من شهر مسرى أى فى سبعة شهور منذ اعطاء الأمر بالعمل فى المحجر » .

وكان المسـئول عن تغطية الأجزاء العليا من المسلتين بصفائح الذهب الأبيض هو « تحوتى » المشرف على مخازن الذهب والفضة الذى يذكر لنا أن الملكة بنفسها ، وفى بهو الأعيـاد فى داخل القصر وزنت اثنى عشر بوشلا (1) ، كيسا بعد الآخر .

وأقيمت المسلتان فى بهو الأعمدة التى كانت من خشب الأرز وهو البهو الذى شـيده تحوتمس الأول والد حتشبسوت ومازالت احدى هاتين المسـلتين قائمـة فى مكانها ، وبالرغم من أن الغطاء الذهبى المضيىء قد نزع من قمتها الهرميـة فانا مازلنا نرى بوضـوح كامل صورة حتشبسوت راكعة أمام آمون وتتلقى منه شارات الملك .

ومن الأشياء التى قامت أيضا بعملها احتفالا بذلك العيد ، أنها أمرت ببناء سفينة كبيرة رسمية لكى يتنقل بهـا الاله على صفحـة النيل من معبده فى الكرنك فى أثناء الاحتفال بعيد النيل . وعندما كان يصل الاله الى الشاطىء الآخر كان يحمله الكهنـة فوق محفة على أكتافهم حتى يصل الى قدس الأقداس فى معبد الدير البحرى حيث يقضى الليل فى البيت الذى شيدته له ابنته ، ثم يعود الى الكرنك فى اليوم التالى .

---

(1) البوشل مكيال انجليزى سعته ٣٦ر٣٥ من اللترات اى ثمانية جالونات ، ولكن المكيال المصرى القديم. المذكور فى النصوص كان اقل من ذلك بكثير .   (المراجع)

وعلى جدران معبدها بالدير البحرى نقشت حتشبسوت قصة مولدها من الملكة أحمس والاله آمون ، وذلك بتشجيع من سنموت الذى أخذ على عاتقه أن يروج أسطورة قوتها شبه الآلهية • كان المصريون يعتبرون جميع الفراعنة الذين يجلسون على العرش أنهم أبناء الاله من أم انسانية ، وأخيرا استطاعت حتشبسوت أن تحصل على أمنية طالما تمنتها بعد أن تفتق عنها خيالها الصخب • لقد أمرت أن ترسم مع أمها أحمس فى سلسلة من الرسوم تمثل مولدها الأسطورى وهى فى هيئة ولد بدلا من أن تكون على هيئة بنت ، كما نراها أيضا فى نقوش المسلة على صورة شاب وليس على صورة فتاة •

ومع هذا فقد كانت امرأة كاملة الأنوثة ، وترى ذلك بوضوح فى تقاطيع وجهها وعينيها الواسعتين وشفتيها الممتلئتين وذقنها الصغير • وكانت ، شأنها كشأن كل نساء طيبة تظهر عناية بتقديم احترامها لحتحور الهة الحب والجمال التى كان يرمز لها بالبقرة ، وكان الهيكل الجانبى من معبد الدير البحرى مقاما للالهة حتحور وأعمدته ذات تيجان حتحورية ، وكان مركزا لعبادة هذه الالهة التى كان يأتى اليها الناس فى كل يوم ومعهم قرابينهم •

وبفضل ما قام به الأثريون من عمل متسم بالصبر والمهارة استطعنا أن نعرف ماذا كان يحدث فى ذلك الهيكل ؟ وكأننا نعيش مرة ثانية مع أهل ذلك الزمان • فقد كان الناس يحضرون معهم جميع أنواع ما كان فى حيازتهم الشخصية لتقديمه للآلهة ، ••• شباك السمك ، وأمشاط ، أطباق مغطاة بطبقة من الفيانس الأزرق ملأى بالفواكه والزهور ••• أما الذين لم يكن فى استطاعتهم احضار قرابين معهم فقد اكتفوا بتقديم عقود من الخرز أو تماثيل رمزية صغيرة من الفخار على صورة البقرة ، كانوا يشترونها من أحد التجار الذى افتتح حانوته فى

مكان ذى موقع مناسب خارج أسوار المعبد ، وكثيرا ما كانت تتراكم هذه القرابين فوق بعضها البعض فى داخل الهيكل فكان الكهنة يضطرون من آن لآخر الى نقلها بعيدا لاخلاء المكان لغيرها ، وكانوا يرمونها فوق كومة من الرديم خارج الهيكل . وفى هذا المكان بقيت تلك الأشياء آلافا من السنين ، وكان بعضها مكسوا والقليل منها سليما ، حتى كشفت عنها معاول العمال المحدثين فى عصرنا الحاضر .

وكشف العمال أنفسهم الذين كانوا يعملون فى تنظيف الدير البحرى عن أسرار أخرى أيضا ، أسرار لم يكن أصحابها الذين قاموا بالاشتراك فى قصتها فى عهد حتشبسوت يعرفون الا جزءا منها أو ربما لم يعرفوا شيئا منها على الاطلاق . لقد كانت سلطتها كامرأة تشغل عرش الفراعنة ، لا تعتمد على صفاتها الشخصية الممتازة فحسب، ولكنها تعتمد أيضا على مناصريها وبخاصة سنموت [1]. ولكن هذا ارضا وتلك الحظوة لم تستمرا الى الأبد فبعد الاحتفال بالعيد غضبت عليه وربما تكون قد أعدمته اذ لم يدفن فى مقبرته التى أعدها لنفسه على مقربة من معبد الدير البحرى وكانت حجرة الدفن فيها تحت ناووس معبد سيدته .

وفى الممرات الخفية المؤدية الى حجرة الدفن دهش المكتشفون عند رؤية النقوش والألوان التى كانت تغطى جدران تلك المقبرة ، ومن الواضح أن سنموت قام بهذا العمل الجرىء المتسم بالغرور ،

---

(١) لقد اختلطت على المؤلفة بعض الحقائق التاريخية فجعلت تحوتمس الثالث يعيش دائما مع حتشبسوت كشخص لا سلطان له كما جعلته يحقد على سنموت ويغار منه ويقتله ، ولكن الحقيقة أنه لم يستمر معها فى الحكم الا فى الاعوام الاربعة الاولى ثم ظل بعد ذلك شبه أسير فى معبد الكرنك ما يقرب من سبعة عشر عاما حتى تمكن من ضرب ضربته فأطاح بحتشبسوت وقضى عليها وعلى حزبها وتولى وحده السلطة فى البلاد .
(المراجع)

وهو عمل مقبرة له تمر ممراتها تحت المعبد فى طى الكتمان ، واستتر بعمل قبر رسمى آخر فى مكان ظاهر مناسب بين مقابر رجال البلاط الآخرين على سطح التل القريب ، ولكن هذا القبر وجد خاليا أيضا .

وعندما كان الأثريون يعملون فى تنظيف معبد الدير البحرى عثروا على أدلة أخرى تثبت طموح سنموت وجرأته التى لا حد لها . لقد رسم صوره هو نفسه ، فى هياكل الاله الداخلية فى أماكن لا يتيسر لأحد رؤيتها ، وهو عمل يخالف تعاليم العقيدة الدينية مخالفة تامة ولم يسمع أحد بحدوث شىء مثله من قبل وكأنه أراد أن يشق طريقه الى الجنة بركوبه خلسة فى سفينة الشمس التى تحمل ملكته شبه الالهية الى أفق الحياة الأخرى .

وقد دفع سنموت وفاءه واخلاصه لملكته ثمنا لاعتزازه بنفسه وطموحه ، ولاشك أنها أحست بعد قتله أن أكبر سند لها قد زال من الوجود . واستمرت تحكم بعد ذلك خمس سنوات ، ومن المحتمل أنها كانت أوقاتا مليئة بالخوف من تحوتمس وربما كانت وحيدة أيضا .

ماتت حتشبسوت عام ١٤٧٩ وهى فى سن الخامسة والخمسين ، ولم تدفن فى الدير البحرى ولكنها دفنت مثل أبيها فى مقبرة خفية فى وادى الملوك . لقد حكمت بمفردها نحو سبعة عشر عاما (١) دون أن تفقد شيئا من سلطتها ونشاطها تجاه بلدها الذى أحبته كل الحب . وكانت مؤمنة بالآلهة ومخلصة لعبادتها ، وعلى كتل من الحجر الرملى

---

(١) لم يعترف تحوتمس فى نقوشه بالسبعة عشر عاما ، فاعتبر حتشبسوت مغتصبة ظالمة ولهذا أرخ أعماله بعد انفراده بالملك والقضاء على حتشبسوت بالعام الواحد والعشرين من حكمه . (المراجع)

الأحمر عثر عليها فى معبد الكرنك ، نرى المناظر الجنائزية لدفنها ، ونرى تحوتمس الثالث الذى تزوج من وارثة العرش مريت رع حتشبسوت وأصبح فرعون للبلاد ، نراه وهو يقدم القرابين الى تمثالها .

كان عمله هذا واجبا مقدسا يتحتم عليه القيام به اذ ليس لدينا أية وثائق تشير الى تصالحها قبل وفاتها ، ومع ذلك فمن المرجح أنه أقام موكب جنازتها وأن ابنتها وأصدقاءها القدماء وكبار موظفيها كانوا مظهرين الحزن الحقيقى لوفاتها (١) ، ومن المحتمل أن يكون الكهنة قد أنشدوا عند وضع تابوت الملكة العظيمة التى كانت فرعون لمصر، بكل احترام فى الحجرة الملونة فى آخر بيتها الأبدى ، نشيدهم قائلين : « ما أسعدها تلك التى وصلت الى الغرب عندما تصبح آمنة بين يدى الآلهة » .

وبالرغم من أننا نستطيع أن نرى حتى الآن على جدران مدرجات معبدها كثيرا من النقوش التى ذهبت عنها ألوانها فى ذلك المكان الموحش فى أحضان الصخر فان ابتسامة أمها أحمس وصورة وجهها الذكى وفوقه لباس الرأس المعروف باسم تاج العقاب ، وفى ذقنها تلك اللحية الصغيرة المستعارة مازالت تطالعنا كلها وهى فى أتم حالة من الحفظ ، لأن يد التخريب لم تصل اليها . ومن المحتمل أن يرى الزائر وهو واقف يتطلع اليها صقرا يطير فوق رأسه أو سحلية ذات

---

(١) لسنا نعرف شيئا على الاطلاق عن نهاية حتشبسوت ، وماذا حدث لها فى آخر أيامها وبالرغم من العثور على تابوت فى حجرة الدفن فى مقبرتها الا أنه لم يعثر حتى الآن على أى شىء مما يثبت أنها دفنت فيه . (المراجع)

لون أزرق وأصفر تثب على حشرة أو يرى يربوعا يثب فيروع الزائر ويجعله يثب من مكانه .

ان هــذه المخلوقات الحيــة التى تســكن الصــحراء مازالت تعيش فى المنطقــة بل هى حلقة تربط بين الزائر الحديث وبين الفتاة والمرأة التى عاشــت وحــكمت كفرعون قبل أن يولد المسيح بألف وخمسمائة سنة .

نفرتيتي
الجميلة قد أتت

كان قد مر ما يقرب من مائة وخمسين عاما منذ عصر السلام الذى ساد أيام حتشبسوت • وكان النيل قد ارتفع ما يقرب من مائة وخمسين مرة وأتى بالفيضان المخصب لتربة الوادى الطويل ثم انحصر ، وأتى فراعنة وذهب فراعنة : منهم تحوتمس الثالث زوج حتشبسوت الذى قضى مدة حكمه وهو يخضع بلادا جديدة لحكم مصر ، وأمنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع ، وأخيرا أمنحوتب الثالث العظيم الذى تعتبر مدة حكمه الطويل الذى بلغ ستة وثلاثين عاما أعظم ما بلغته البلاد من قوة ورفاهية كامبراطورية •

وامتلأ البيت الأبيض بأموال الجزية ، وكثر فيه الذهب وبعثت الكثير من الدول الخاضعة لمصر بالأرقاء ليقوموا على خدمة الأسرة الملكية • ولم تقصر التجارة مع العالم الخارجى على استيراد البضائع فقط ولكنها أتت أيضا بمهرة الصناع والأجانب والخبرات الجديدة ليزيدوا من جلال ورفاهية البلاط • وقد شجع الملك ، الذى كان نصيرا عظيما للفنون ، مختلف أنواع الصناعة أيضا ، قديمة وحديثة ، من بناء المعابد الضخمة الى صناعة الخرز الزجاجى الدقيق ، وارتفعت التماثيل فى كثير من مناطق الجنوب والشمال وعليها خانات ملكية باسمه كما أنه بنى معبد الأقصر الضخم لكى يستطيع أن يسجل على جدرانه قصة مولده نصف الالهى مقلدا بذلك حتشبسوت التى

حكمت من قبله • ومن الناحيــة الأخرى من النهر ، سهل طيبــة ، استدعى أمهر المهندســين المعماريين والمثالين والمصــورين ليشيدوا معبدا له ، ولم يبق اليوم من هــذا المعبد ســوى التمثالين الهائلين المشوهين اللذين كانا يحرســان بوابته واللذين سماهما الاغريق فيما بعد « تمثالى ممنون » ونسبوا الى أحدهما قوة خارقة للطبيعة وأنه كان فى استطاعته الغناء عند الصباح عندما ترفع الشمس من درجــة حرارة حجارته • ولسوء الحظ أحدث زلزال صــدوعا فى التمثالين الهــائلين فى أيام الرومان ، وبالرغم من أن الامبراطور ســبتميوس سفروس قد رممهما ، فان ذلك الصوت الغامض لم يسمع بعد ذلك أبدا • وكل ما يسمعه الزائرون فى الوقت الحاضر أو يسمعه سكان القرى المحليون ليست الا رياح الصحراء تصفر حولهما وهما جالسان مرتفعان الى أعلى على عرشيهما فوق حقول البرسيم المنبسطة وحقول قصب السكر والذرة التى تمتد من حولهما •

ولسنا نعجب وقد وصــل الفن الى هذا المستوى العالى من أن بلاط أمنحوتب كان يزخر بالفنانين ، مثل الشعراء والرسامين والمثالين والمعماريين ــ وكثيرا ما تتجمع أكثر من صفة من هذه الصفات فى شخص واحد ــ والراقصــين والموسيقيين ، وقد أضيفت الكنــارة السورية الى مجموعة الآلات الموسيقية المصرية وابتدع صانعو الآلات الموسيقية أشكالا غريبة كثيرة ، لآلة الجنــك أحب آلات الموسيقى الى المصريين ، وكان من بينها نوع مرتفع مما اقتضى العازف أن يقف عند العزف عليه •

وكان الفرعون صيادا ماهرا أيضا ويستمتع ببعض أنواع الرياضة الخطرة كصيد الأسود فى بلاد النوبة ومطاردة الثيران •

وكانوا ينفذون له كل نزوة من نزواته • والآن وقد أصبح فى أخريات أيام حياته نراه فى صـــورة منحوتة بطريقـــة متقنة ، ويرجع تاريخ صنعها الى أيامه ، كما لو أنه شخص غير مكترث فاتر الهمة ، أثقلته الهموم •

وكان الورثة لكل هذه العظمة والقوة والأبهـــة والرفاهية طفلين كانا يتنزهان فى زورقهما الخفيف المصنوع من سيقان البردى ، فوق صفحة مياه البحيرة الصناعية الجميلة التى كانت فى قصر الملكة « تى » الذى اشتهر بجماله والذى كان يتلألأ بألوانه الجميلة •

وكان أكبر الاثنين صبيا فى الرابعة عشرة نحيفـــا طويل القامة ينحنى ظهره قليلا ذا أكتاف ضيقة منحدرة وكانت أرجله تبدو من خلف ثوبه الشفاف طويلة رفيعة ، أما وجهه فكان طويلا ، وعيناه كبيرتان غائرتان معبرتان ، عيون حالمة ، وكانت شفتاه ممتلئتين حساستين ، محبا للجمـــال ، ولكنه لم يكن يخلو من ضعف ما • وكان هو ولى العهد واسمه مثل اسم أبيه أمنحوتب أى « آمون راض » مخـــلدا بذلك اســـم الاله الطيبى آمون الذى أصبح الاله القـــوى فى كل البـــلاد •

أما الفتاة فكانت تصغره ببضع سنوات ، أقصر منه قامة وأجمل تكوينا ، وكان رأسها يرتفع فوق عنقها النحيل مثل زهرة اللوتس ، وكانت ملامحها ونسب جسمها غاية فى الجمال ، لها عيون واســـعة مستطيلة وأنف مستقيم وشفتان مكتنزتان تطوقان فما رقيقا ، وذقن بديع المثال • وكانت كاملة التكوين الى درجـــة أننا نراها فى التمثال الشهير الذى يمثل الجزء الأعلى من جسمها كامرأة متقدمة فى السن ، وهو التمثال ـــ الذى عثر عليه المستكشفون الألمـــان ضمن أنقاض مرسم أحد النحاتين فى الخـــرائب التى كانت تعلوها الرمـــال بتـــل

العمارنة — حتى بالرغم من أنها كانت تضع على رأسها ذلك التاج الطويل البسيط دون أن تنفلت من تحته خصلة واحدة من شعرها لتزيد من جمال خطوط وجهها ، فانها تعتبر من أجمل حسناوات العالم الشهيرات ، وليست لدينا فكرة حقيقة عما كان عليه شكل هيلين طروادة ، كما أن ميلو وبوتشيلى ، قد قدما لنا التماثيل المختلفة للالهة فينوس فى هيئة مثالية حسبما تفتقت عنها عبقريتهما • ولكن هذا التمثال النصفى لنفرتيتى قد نقل من الطبيعة فى وقت كان فيه الفن المصرى فى أوج واقعيته • وكانت هى وزميلها فى اللعب أخوين غير شقيقين وكان كلاهما ابنا للملك ، ولكن بينما كانت أم الأمير أمنحوتب هى الملكة تى الزوجة الملكية العظمى ، فان أم نفرتيتى كانت زوجة أخرى من الزوجات الثانويات فى القصر (1) ، انها تنتمى الى البيت المالك عن كل من أبويها ولكنها لم تكن الأمير الملكية • وكان لأم أمنحوتب الملكة تى أربع بنات وهن شقيقات لأمنحوتب ، وكانت الوريثة العظمى هى أكبرهن سنا وكانت تسمى « سات آمون » ولكن أمنحوتب كان يفضل نفرتيتى ليلعب معها وليبثها سره ، وكان يسود بينهما التفاهم والعطف •

وانجابت حرارة ما بعد الظهر ، وأخذت الشمس العالية فى السماء الصافية تهبط بسرعة وراء الجبال الصخرية الجرداء وهى تغمر بأشعتها كل شىء : رمال الصحراء ذات اللون الأشهب والمزارع الخضراء والنضرة وبيلونات وأعمدة المعابد والقصور والمسلات المذهبة وأسطح بيوت طيبة البعيدة المبنية بالطوب اللبن والنهر البطىء

---

(1) فى الأصل الانجليزى رددت المؤلفة ما كان يقول به بعض المؤرخين خطأ فى أوائل هذا القرن بأنه من المحتمل أن تكون نفرتيتى من أصل ميتانى ولكن البحوث اثبتت انها مصرية صميمة • (المراجع)

الحركة وقلوع المراكب ، فى ضوء رقيق باهت ، كما لو كانت آسفة على مبارحة المكان الذى أحبته كثيرا ، لفترة ليلة أخرى .

وما أن بدأت الشمس تنحدر نحو الأفق حتى أخذت أشعتها تمتد نحو الخارج كأنها تبارك الأرض ، وتحول المنظر الى اللون الوردى وصارت السماء فى لون اللهب .

وكان الصبى أمنحوتب ذاهلا محملقا ، وانفلت المجداف من بين أصابعه فاستردته نفرتيتى ، وتطلعت الى وجهه ، وكانت أشعة الشمس الغاربة تنعكس فى أغوار عينيه الداكنتين ، فنظرت اليه باعجاب ...

ويمكننا أن تتخيلها وهى تسأله فيم أنت شارد ؟ ... ، ونستطيع أن نتخيله فى اجابته أنه صامت متردد ولم يكن عقله يدرك الأمور بوضوح بعد ، لأن أفكاره لم تكن قد وضحت لها الأمور بعد ، رغم أن عينيه كانتا مثبتتين على قرص الشمس الأحمر الذى ينحدر ببطء ثابت وهو يختفى بعيدا عن ناظريه ... « انه بداية كل شىء ... أب وأم كل الحياة ... الذى بدونه ما كنت لأحيا ... أنا ... وأنت ... أو زهرة اللوتس المثبتة فى شعرك ... أو الحدأة التى تصيح هناك فوق رأسينا ... » .

ويمكن أن تقاطعه الفتاة قائلة « هل تعنى آمون رع...أبانا ؟ »، « كلا ... ليس هو الذى أعنيه انما أعنى قرص الشمس آتون .. مصدر حرارته وضوئه وقوته ... انظرى الى أشعته انها شبيهة بأيد تباركنا ... وتبارك كل شىء فى مصر ... وفى كل البلاد ... أنه ... الله ... » . « ولكن آمون ... ان الكهنة يعلموننا أنه هو رع اله الشمس ... أوزيريس ... وماذا نقول عن أوزيريس الذى يرسل مياه النيل لتأتى بالحياة الى الحقول ... ؟ » .

ولكن الصبى لم يكن مصغيا . انه يظل مستمرا مع أفكاره الخاصة والتى يرددها لنفسه بصوت عال . « عندما أصبح ملكا سأنادى به .. آتون .. قرص الشمس مصدر الحرارة والضوء ، الها أوحد ، وسأكون له ابنا وستكونين أنت ابنته نفرتيتى ... » .

أن هذا هو عين الضلال الدينى . ولكن الفتاة ترد بحدة ، لأن هذا خروج على الدين . « انك لن تجرؤ أبدا . ولن يسمح لك كهنة آمون بذلك . وعندما تتوج فرعون سينادى بك ابنا لآمون رع وأوزيريس الحى » . وكانت الشمس وقتئذ قد اختفت تماما وجاء رده بهمهمة « لقد ازدادت قوة كهنة آمون أكثر مما يجب . ألم تسمعى أمى « تى » وهى تقول بذلك لوالدنا مرات كثيرة ؟ انها ستساعدنى وانتى متأكد من ذلك » . « وأنا سأساعدك اذا استطعت.. آتون .. قرص الشمس .. انها لفكرة رائعة .. الاله الأوحد بدلا من الآلهة المتعددة . انك تعرف أننى لم أومن أبدا ايمانا حقيقيا بكل هؤلاء الآلهة والآلهات .. وأرجو ألا تخبر أحدا بأنى قد قلت ذلك . انهم وسيلةاثراء للكهنة الذين يتجرون بنشر الخرافات بين الشعب . ولكن كيف يمكنك أن تخرج على التقاليد وكيف يمكنك أن تصمد ازاء كل هذه القوى » ؟ .

« لقد وطأ أبونا التقاليد بقدميه . ألم يفعل ذلك ؟ عندما هام حبا بأمى « تى » وهى من عامة الشعب وتزوجها وجعل منها الزوجة الملكية العظمى ؟ » اذا كان قد استطاع أن يسخر من التقاليد ومن الكهنة ، فانى أستطيع ذلك أيضا . يجب أن أعيش فى الحقيقة » .

وصمتت نفرتيتى ، وكان يخامرها الاعجاب والخوف . وفى ضوء الشفق قاد الفتى والفتاة الزورق الى البر صامتين وقد انهمكا فى

أفكارهما •• وعندئذ ، وبعد لحظة صغيرة عادا طفلين مرة أخرى وأخذا يسابقان بعضهما البعض الى باب القصر •

ونستطيع أن نتخيل الملكة « تى » تتنهد وهى تراقبهما • انهما صغيران ومرحان ولا مسئولية عليهما ، وربما ظلا هكذا مدة طويلة ، ولكن المستقبل يبدو مظلما كئيبا كعاصفة رملية تهدد بالهبوب ، وهى تخشى عليهما وعلى مستقبل الامبراطورية ، لقد أصبح زوجها الفرعون العظيم مسنا • ولكنه لايزال يحتفظ بتلك القوة المذهلة التى جعلته يخرج دون أن يصيبه ضرر من الأخطار الكثيرة التى تعرض لها فى صيد الأسود والثيران فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت تظهر الآن من وقت لآخر فقط ، وسيأتى اليوم الذى تخمد فيه بعد ذلك وتتركه مريضا منهوك القوى •

وكانت الرسائل والتقارير المرسلة الى كبير الوزراء من الحكام وقواد الحاميات فى ممتلكات مصر الخارجية ـ وان كان قد أخذ يتركها تدريجيا لها لتتصرف فيها نيابة عنه ـ تنبىء بتهديدات متزايدة لسيادة الامبراطورية المصرية • وكان يتحتم أن يكون فرعون بنفسه على رأس الجيش فى معركة يخوضها ضد قوة الحيثيين المتزايدة فى آسيا ، ولكن أمنحوتب الزوج كان متقدما فى السن ، وأمنحوتب الابن كان مازال أصغر من أن يقوم بمثل هذا العمل فضلا عن أنه لم يكن يهتم بأمر الحروب •

وكان كهنة آمون رع فى داخل البلاد قد أصبحوا مع مرور الزمن أكثر قوة واعتزازا بالنفس ، وكانوا منذ أن فرضوا تحوتمس الثالث على حتشبسوت وعلى البلاد بخدعة الحق الالهى فى اختيار الحاكم قد تملكهم الغرور ولم تعد تنتهى مطالبهم • فاذا ظلوا مطلقى

الحرية فانهم سوف يجعلون الفرعون ألعوبة فى أيديهم ويحكمون البلاد بأنفسهم وربما يحدث هذا عما قريب ، ابان حكم ابنها ، وهذا ما لا يجب أن يحدث أبدا .

ولكن عندما كانت « تى » تتحدث بهذا الأمر الى زوجها فانه كان يكتفى بصرفها عن مخاوفها ضاحكا . انهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه شيئا ، ان أحدا لا يستطيع أن يسميه أمنحوتب الثالث الألعوبة ! ألم يتزوج من محبوبته « تى » رغما عنهم ، وأن يجعلها زوجته الملكية العظمى ويذكر اسمها بهذه الصفة على جميع الآثار والجعارين ابان حكمه ؟ ان مخاوفها لا أساس لها من الصحة . ثم كان يرسل بعدئذ فى طلب راقصى وموسيقيى القصر وأطفاله ، وخاصة محبوبته نفرتيتى ، ولكى يمتع نفسه وينسى تلك التخيلات الكئيبة فانه كان يدعو العازف على الجنك ليغنى له الأغنية القديمة .

..اتبع رغبتك
طالما أنت تعيش ،
ضع عطر المر فوق رأسك ،
والبس ملابس الكتان الفاخر ،
المصبوغ بالألوان الزاهية المدهشة ،
من عجائب الاله الحقيقية .
واعمل على زيادة مسراتك ،
ولا تدع قلبك يذبل ،
اتبع رغبتك وما فيه خيرك .

أنجز أعمالك على الأرض
بحسب ما يمليه عليك قلبك ،
الى أن يدركك يوم العويل عليك .
يوم لا يسمع القلب الساكن نحيب الباكين ،
ولا يصغى ذلك الذى فى قبره الى نواح المفجوعين .
احتفل بيوم السرور ،
ولا يستولى عليك الملل فيه ،
فلن يسمح لأحد أن يصحب معه ما يملكه ،
نعم : ولن يعود أبدا أحد ممن ذهبوا الى هناك .

وبعد ذلك تدخل الراقصات ويرقصن على أنغام « الصاجات » والأذرع المصفقة ، وسوف ينسى الفرعون الكهل فى غمرة الطعام والشراب والطرب هموم الحكم ويجعل الليل الحار الطويل يسرع فى خطاه .

***

كان ذلك العام ١٣٧٥ ق.م. وفى ذلك العام توفى أمنحوتب الثالث العظيم ونودى بابنه فرعون ليحكم بعده باسم أمنحوتب الرابع وكان اذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره [١] . وعلى هذا سوف تظل الملكة الأم « تى » تباشر مهام الحكم الى أن يكبر ليحمل على عاتقه

---

(١) لم يمت امنحوتب الثالث الا بعد اكثر من عشر سنوات من حكمهما المشترك ولم يكن امنحوتب الرابع صغيرا ، بل كان أبا لثلاثة اطفال ولم يكن عمره يقل عن ثلاثين عاما على الأرجح . (المراجع)

المسئوليات الكاملة للحكم . وكان النضال من أجل القوة الذى كانت تتوقعه قد أخذ يزداد ، فالى من تستطيع أن تذهب ابتغاء للمساعدة ؟.

فوالداها اللذان أتيا من مدينة أخميم أصبحا الآن متقدمين فى السن ولم يكن لهما أى وزن فى أمور السياسة فقد كان والدها هو الكاهن « يويا » الذى أسند اليه زوجها ذلك المنصب الهـام وهو منصب رئيس فرسان الملك وأمها « تويا » التى رقيت الى وظيفـة « مغنية آمون » وهى احدى الوظائف الهامة فى معبد آمون بطيبة . وكان فى استطاعتهـا أن تعتمد على اخلاص « آى » مربى ابنهـا وتعتمد أيضا على زوجته « تى » مربية الفتاة ولكن نصيرها المحتمل والأكثر قوة كان أخوها أحد كهنـة الشمس بمعبد الشمس بمدينـة أرمنت . وكانت تعرف أنه كاهن جليل مخلص لعبادة الاله المصرى القديم رع ، وكان غيورا حانقـا لاغتصـاب الاله آمون لمكانة اله الشـمس .

هكذا يمكننا أن نتخيل تتابع أفكار « تى » . ومع أننا لا نملك الا القليل من الأدلة فلدينا منها ما يكفى لأن نعرف أن أول من اتبعوا عقيدة آتون الجديد ، قرص الشمس ، كانوا يهدفون الى ازالة عبادة آمون وغيره من الآلهة والآلهات مع مجمع الآلهة المصرية وكان هؤلاء هم « تى » نفسها « وآى » وزوجتـه « تى » ، ونفرتيتى ، ومن البديهى مؤسس الفكر أمنحوتب الصغير نفسه .

ونحن نعرف أيضا أن كاهن الشمس أخا الملكة « تى » كان قد توج أمنحوتب بالتاج المزدوج لمصر العليا والسفلى فى أرمنت .

فهل تحدث الكاهن والفرعون فى أمور الدين ؟ هل جاءت فكرة آتون الى الرجل المسن عن طريق الالهام .. أم كانت رؤيا صبى حالم

ليقلق كاهنا فى عقائده وطريقة حياته ؟ أم كان لقاء تم بين متصوفين أحسا قبل أى فرد فى زمانهما بضرورة عبادة اله واحد ، أحسا بالتوحيد ، وهو أرفع مثال نعرفه لتفكير الانسان الدينى ؟ أم أنه كان توارد خواطر بين شاب حالم ورجل ساخر عركته تجارب الحياة ، وله من الخبرة السياسية ما يكفى لأن يتشبث بالفكرة كوسيلة لتحطيم قوة كهنوتية منافسة ؟ .

ومن المستحيل أن نقطع فى ذلك برأى ولكن « تى » ونفرتيتى اللتين أحبتاه رأتا أن الملك الشاب قد عاد الى طيبة وفى عينيه نظرة جديدة مقدسة ، كما أحست نفرتيتى أن الاله الواحد الأسمى آتون اله الشمس ذو النعم ، وأشعته ذات الضوء والحرارة ، كان بالنسبة لها من الآن فصاعدا ، مثلا أعلى مدى الحياة .

وكانت المشكلة الأولى بالنسبة الى أمنحوتب هى زواجه . وكانت التقاليد تحتم عليه أن يتزوج من أخته « سات آمون » الوريثة الملكية الكبرى . ولكنها نفرتيتى ، هى التى كان يحبها ويثق فيها ، وقد عضدته « تى » فى ذلك . لقد أرادت له أن يكون سعيدا كما كانت هى سعيدة بزواجها من والده ، ذلك الزواج الذى قام على الحب . وقد رأت فى نفرتيتى أيضا ذلك الوفاء الذى سوف يحتاج اليه ابنها ليحفظه ثابتا عند سيره فى الطريق الثورى القاسى والاصلاح الدينى .

الا أن سات آمون كانت هى أيضا ابنتها وكان يجب ألا تضار أو تشعر بأنها نحيت جانبا . وربما استطاع الزمن أن يحل المشكلة كما يفعل ذلك أحيانا . فلتستمر سات آمون فى لعبها لفترة من الزمن ويمنع الحديث عن زواج فرعون لمدة عام أو عامين .

وقد حل الزمن المشـكلة ولكن بطريقة مفجعـة ، فقد مرضت سات آمون وتوفيت • وقبل أن يكون أمام حزب الكهنة فرصة ليحتم عليه أن يتزوج من أكبر أخواته الثـلاث الباقيـات ، وهى الأميرة « تاخعيت » التى أصبحت الوريثة للعرش فقد أعلن أمنحوتب رغبته فى أن يتخذ نفرتيتى زوجة له وقد عضدته أمه الملكة « تى » واحتفل بزفافه وهو فى السادسة عشرة من عمره •

وهكذا أصبح الفتى والفتاة اللذان كانا طوال حياتهما يلعبان معا زوجا وزوجـة واستبدلا بملابسهما التى كانا لا يعنيان بهـا ملابس رسمية وغطى شعرهما الأسود أمام الناس بالتاجين وباغطيـة الرأس التى ترمز الى وضعهما نصف الالهى ، كما تركا زورقهما الصـغير المصنوع من سيقان البردى ، وأصبحا الآن يضطجعان على الوسائد المريحه فى السفينة الملكية المسماة « آتون يضىء » التى كانت تنساب فوق مياه بركة القصر ويقوم الأرقـاء بتسييرها والتجـديف فيهـا • ما أجمل زوجته الصغيرة وما أجمل عينيها اللتين تشعان بالسعادة ، ولم يكن يحس بالخجل وهو يمسك بيدها أو يقبلها أو وهو يلمس وجنتها ويظهر حبه للدنيا كلها •

وعندما كانت تراهما « تى » وقد أصبحت أرملة كانت ترتد الى غرفتها الداخليـة وتبكى حبها المفقود • انها سـوف تشيد الهياكل لذكرى زوجها وستستعين بالصلابة لتكون أكثر صرامة وتصميما فى نضالها من أجل انتصار ابنها على كهنة آمون الذين كانت تكرههم •

وعلى أى حال فان وقت العمل الحاسم ضدهم لم يكن قد حان بعد ، ولم يكن حزب آتون قويا لدرجة كافيـة لأن ينتصر ، وكان أمنحوتب أصغر من أن يلعب الدور الرئيسى فى المسرحيـة • وكان عليها أن تستميل الى جانبهم عددا أكبر من النبلاء والموظفين الرسميين•

وفى الوقت نفسه كان يتحتم تصريف شئون حكم البـلاد يوما بيوم الى جانب التهديدات المتزايدة الموجهة لمتلكاتها فى الخارج • وكان على الفرعون الشاب أن يصحب « الملكة » فى الرحـلات الاعتيادية والدورات التفتيشية التى يقوم بها فى النيل ذلك الشريان الرئيسى للبلاد لزيارة المزارات المقدسة فى شمال البلاد وفى جنوبها ، ويجب أن يراهما الناس ويراهما الذين يحكمون البلاد باسم الملك •

وما من شـك فى أن جمـال نفرتيتى قد أصبح أسـطورة لأن الناس كانوا يحتشدون فى جماعات لرؤيتها أينما ذهبت مع زوجها • انها كانت ايزيس الأم العظمى نفسها ، جاءت الى الأرض متجسـدة فى صورة فتاة • وكانت عقود الزهور تلقى عند قدميها الصغيرتين ، وكانت أجمل الفتيـات يسكبن العطور النادرة على رأسـها ويعطرن العقد المكون من قطع على شـكل أوراق الزهور والمرصع بالجواهر الذى كانت تطوق به جيدها •

كانت هذه الاستقبالات تأخذ بلبهما ولكنها حيرتهما أيضا • ان فرعونهم وزوجته « نفرو نفرو آتن نفرتيتى » الزوجة الملكية العظمى، محبوبته ، سيدة الوجهين ، أمير الشمال والجنوب الوريثة العظمى عاشت منعمـة دائمـا والى الأبد ــ « كما كانت تذكر فى الخانات الملكية ــ لم يكونا كتلك الشخصيات الجامدة التقليدية التى اعتادوا عليها فى المـاضى ، ولكنهما كانا زوجين شابين يعيشان فى حب قوى ، ويظهران بلا تصنع وفى غير استحياء أو خجل ، لأن ذلك كان جزءا من عقيدتهما « الحياة فى الحقيقة » رغم أن الناس كانوا لا يعرفون ذلك • أما بالنسبة للفرعون الحـالم والفتاة التى كانت تشاركه فى أحلامه ، فقد كان كل ما هو طبيعى أمرا حقيقيا طيبا • وكان حبهما لبعضهما البعض حبا طبيعيا ، فما الذى يدعو لاخفائـه خلف قنـاع

صناعى من التقاليد الملكية ؟ ان آتون الذى خلق العالم وحده كان يحب الحياة التى أودعها فيه ، ولهذا فان كل مظاهر تلك الحياة أشياء مقدسة ، النباتات والزهور ، والحيوانات ، والطيور ، والحشرات ، والناس • وعلى هـذا لن يسمح الملك الشاب بأن تعمل له تمـاثيل يتملقونه بها ، ولابد أن يصـوره النحـاتون والمصورون بأكتافـه المنحدرة وأرجله الطويلة وذقنـه المستطيل وعظام وجنتيه البارزتين لقد كان ابن آتون المختار ، وعلى هذا كان لابد أن يفرح به آتون كما كان هو فرحا بآتون • وكان هذا شأن نفرتيتى أيضا ، فلن يسمح بأن تصنع لها تماثيل غير حقيقية بغية تملقها هى أيضا • ولكن لم يكن هناك داع لذلك ، فقد كانت أجمل بكثير من أن يحاول أى فنان شيئا يزيد على حقيقتها •

وعندما أبحرا فى النهر تدفعهما الرياح الشمالية الباردة عائدين الى طيبة من منف بدا العالم كله كما لو أنه كان يخفق بقوة آتون المشعة • وكان الوادى الأخضر الضيق الواقع بين تلال الصحراء وبين النيل ، ممتلئا بثمار الأرض • وكان الناس الكادحـون ذوو اللون الأسمر ، مبتهجين بالدفء الذى تبعثه أشـعته التى تغمرهم بالخير ، وهم يغرفون المياه الغالية بالشادوف ويصبونها فى الحقول فلولا ذلك لجفت الأرض وذبلت الى أن يأتى الفيضان ليحييها من جديد • وكان الرجال يحرثون الأرض مستخدمين الثيران ذات القرون الطويلة ، أو يعزقون محاصيلهم ، والنساء يجلبن المـاء من النهر فى جرار فخارية طويلة ، وكان الأطفـال الأشقياء العراة الجسد ينظفون ويزجرونهـا عندما ترفض أن تعود الى الشاطى مرة أخرى •• ان كل هذا وكل شىء آخر انما يعتمد فى حياته على الشمس •

وبينما كانوا يتقدمون فى رحلتهم كانت الأوز والبط البرى تطير

عاليا وهى تصيح من نباتات وأحراش المستنقعات ، وكثيرا ما كانت تلوح أمامهما كلة داكنة على الشاطىء الطينى فتنزل الى المـاء ، وقد كشفت عن بريق عين خبيثة وأسنان لامعـة ، حتى التمساح وفرس النهر قد خلقهما آتون لغرض خاص به •

وكانت أشعة قرص الشمس المستدير ، تبدو كما لو أنها أذرع طويلة تنتهى بأيد تلمس جميع المخلوقات فى سـعادة • حقا ، هـذه هى الصـورة التى كان لابد لأمنحوتب أن يصورها على جـدران المعبد ، المعبد الذى كان يشيده فى طيبة لآتون • ان قرص الشمس يرسل أشعته المنتهية بأيد ، هـذا هو الرمز الالهى الذى يستطيع أن يفهمه الجميع ليس شعبه فى وادى النيل فحسب ولكن شعوب كل بلد ، لأنه « هو الذى يرى كل الأشياء الحية فى كل مكان » •

ولابد أن نفرتيتى ، التى تتفق معه فى أفكاره ومشروعاته اتفاقا تاما ، كانت سعيدة سعادة لا توصف • فكثيرا ما قضى أزواج عديدون رحلة شهر العسل صاعدين وهابطين فى النيل ، وما زالوا يفعلون ذلك حتى الآن ، ولكن ليس من بنهم من كان أعظم جمـالا من هـذين الزوجين الصغيرين وأحلامهما التى تهز العاطفـة عندما كانا يقضيان شهر عسلهما قبل ثلاثة آلاف سنة •

وعلى بعد مائتى ميل الى الجنوب من منف ومائتين وخمسين ميلا الى الشمال من طيبة يدور النهر دورة كبيرة تاركا بينه وبين حافـة الصحراء الشرقيـة المنحدرة ، مساحة على شـكل نصف دائرة من الأرض الخصبة ترويها مياه النهر •

ونرى الآن زراعات كثيرة وقرى عديدة فى ذلك المكان ، ومن ورائها أرض مقفرة رملية من الأكمات والأنقاض التى تروى قصـة

مدينة قديمـــة خربة ، وبالقرب منها منزل أو اثنان للمستكشفين دالة على أن المنطقة قد نقب فيها الأثريون ودرسوا أرجاءها • ولكن عندما أبحرت نفرتيتى وزوجها الفرعون مارين بها لم تكن هناك الا مجموعة من التـــلال العارية تكتنف البرارى وتسكنها الحيوانات المفترســة والطيور ، لم تمسها يد بعد ، وغير مزروعة ، ولم يقطنها انسان •

ومن الجائز ان الملك الشاب سأل قائد السفينة الملكية ما اسم هذا المكان ؟ ومن المحتمل أن الاجابة كانت « ليس له اسم يا صاحب الجـلالة ولا يوجد هنا مســاكن لأن جلالتكم ترون أنه مغـــلق من الناحيتين بالتلال التى تصـــل حتى شاطىء النهر • انه يبدو كعـــالم صغير مستقل » عالم صغير مستقل • ولابد أن نفرتيتى وأمنحوتب قد ظلا بعدئذ صامتين يفكران ، بينمـــا كانت السفينة تتابع سيرها الى طيبــــة •

***

ولابد أن ذكرى رحلات شهر العسل المثالية ظلت عذبة حلوة فى خيال نفرتيتى خلال السنوات الثلاث القاسية بصفة خاصـــة • لقد عادت هى وزوجها وقد امتلأ بتحمس شـــديد لعقيدتهما الجديدة ، عقيدة آتون الى درجة أنهما أرادا أن يضعا فكرتهما فى الحال موضع التنفيذ وأن يرفعا قرص الشمس الى مرتبة اله أعظم • وراقب كهنـــة آمون ، وهم محتمون بقوتهم التى استحوذوا عليها منذ أمد بعيدة وثروة معبدهم ، نشاط الفرعون الشاب بقلق متزايد •

وفى أول الأمر وضع الفرعون ألقاب واســـم آتون فى خانتين ملكيتين اعلانا بأنه أصبح ملكا على جميع آلهة مصر بما فيهم آمون • ثم أمر بعد ذلك بقطع مسلة من الحجر أعلى وأكبر من أى مسلة قطعت

قبلها ، وأن تنحت وتزخرف وتغطى بالذهب تكريمة لآمون فى معبده الجديد بالكرنك • واعتبر هذا العمل فى غاية الأهمية لدرجة أنه جند أهم رجال بلاطه ليقوموا بملاحظة عملية قطع الحجر من المحجر •

وأخذ يزيد بالتدريج من ثروة معبد آتون ، وأهمل معبد آمون وسمى مدينة طيبة باسم « ضياء آتون » وسمى منطقة المعبد « مدينة ضياء آتون » وأخذ الأمر يزداد خطرا وجدية وذلك لأن ما بدأ كنزوة شاب فى أول الأمر ، أصبح الآن تهديدا حقيقيا لهم ولالهم • وبدأ كهنة آمون يتهامســون ويدبرون المكائد • لو أنهم اسـتطاعوا أن يتخلصوا من هذا المـأزق المعقد ، وأن ينصبوا بمعرفتهم فرعون فى مكانه يكون ألعوبة فى أيديهم ! شخصا يرضى لأن يعبد الآلهة بنفس الطريقـة التى كان يتعبد بها والده وجـده الأكبر ويعرف للكهنـة أهميتهم كحراس مقدسين على الأسرار الدينية •

وما ان بدأ الزوجان يظهران فى مقابلاتهما اليومية الرسمية حتى أحاطت بهما تيارات غامضة • فقد كانت هناك نظرات عابسة شريرة بين الجموع المهللة المبتسمة ، ولكن الفرعون كان شبه مقدس ، كان الها على الأرض ولا يجرؤ أحد أبدا على أن يرفع اصبعا ضده خوفا من أن تصب الآلهة نقمتها على البـلاد ، فقد يسبب أوزيريس هبوط فيضان النيل ويأتى بالمجـاعة وبالوباء عليهم ، أو بانتقام مريع من نوع آخر ••

وعـلاوة على ذلك فقد كانت الملكة الوالدة « تى » قد قامت بمهمتها على وجه حسن • فقد اكتسبت الى جانب ابنها أكثر النبلاء ورجال البلاط العظيمى الشأن مكونة بذلك حزبا يناصر فرعـون ضد حزب الكهنة •

وأغدق المناصب الرئيسية فى البلاط على الذين اعتنقوا ديانة آتون أو أخذوا يتشدقون بمديحه ، وكافأهم على ذلك . وكان بينهم الوزير نخت ، وباك رئيس المهندسين المعماريين والمثال ، ومريرع وماى اللذان كانا من قواد الجيش ، وخصوصا آى الذى كان يتولى عدة مناصب هامة منها أنه كان حاملا لمروحة الملك والكاتب الملكى وحارس جواد الملك . أما زوجته « تى » فقد وصفت نفسها بأنها المربية الكبرى ، ومرضعة الملكة الآلهة عابدة الملك .

ولكن شخصية أمنحوتب الشاب ، والاخلاص المتقد فى نفسه ، كان أهم ما فى الموضوع . فقد كانت شخصيته هى التى اجتذبت الكثيرين الى قبول العقيدة الجديدة بالاضافة الى ولائهم الشخصى له . وبدءوا هم أيضا ليعملوا من أجل آتون ، وكانوا يقدمون صلواتهم وقرابينهم فى معبده كما بدءوا يهملون معبد آمون . وسنرى فى نهاية القصة كيف كانوا مخلصين ثابتين . ولكن كهنة آمون قد أصبحوا متمردين علانية وأدركوا أنها كانت حرب بقاء أو فناء بالنسبة لهم .

ولم تخبرنا ، لسوء الحظ ، أية وثيقة مما وصل الى أيدينا من ذلك العهد ما اذا كانت نفرتيتى و « تى » قد نصحتا الملك بالحذر أو لا . وكل ما نعرفه على وجه التأكيد أن الملك أمنحوتب انتصر بعد صراع مرير مع كهنة آمون ، وأعلن نفسه أنه الابن المقدس لآتون اله مصر الأعلى . وحرم عبادة آمون وجميع الآلهة الآخرين فى أنحاء البلاد . وغير اسمه ذاته من أمنحوتب « آمون مطمئن » الى أخناتون « المفيد لآتون » ، وحلت أسماء ملكية جديدة محل الأسماء القديمة ، وهرب الكهنة وأصيب الشعب بالذهول . ولكن هذا الذى خضعوا له وأطاعوه كان ايمان الشاب المتحمس لمذهبه ، تعضده زوجته التى لم

تقل عنه فى عزيمتها أو استقلال تفكيرها • وأصبحت المعابد القديمة ابتداء من بلاد النوبة فى الجنوب الى البحر الأبيض المتوسط فى الشمال ، المعابد التى كانت مخصصة لعبادة آمون وحتحور وأوزيريس وحورس ومئات الآلهة الآخرين ، ساكنة مهجورة ولم تعد تتردد بين جنباتها الأناشيد الكهنوتية أو أصوات آلات السستروم ، وظلت موائد القرابين أمام تماثيل الآلهة خالية خاوية •

وأينما كان يظهر اسم آمون البغيض ــ على تماثيل أجداده فى معبد الكرنك ، أو فى معابدهم فى الناحية الأخرى من طيبة ؛ وفى وادى الملوك أو على جدران القصر الملكى المزخرفة ــ فان جماعات العمال كانت ترسل بأوامر الفرعون لتشوهها وتمحوها وتزيل أثرها • فقامت جماعة منها بتسلق مسلتى حتشبسوت وأزالت اسم آمون فى أعلى مكان منهما ، حتى اسم والده نفسه أمنحوتب العظيم ، كان يجب عدم الابقاء عليه •

وكان هذا انتهاكا لحرمة المعابد ، ولابد أن الملكة « تى » التى كانت قد أحبت زوجها حبا شديدا قد اعترضت عليه ، ولكنها لم تنجح فى اعتراضها وفى كل مكان كان المقطع الأول من اسمه يمحى فيترك فراغا خاليا من الكتابة ، ليس على الآثار العامة فحسب ؛ ولكن حتى فى الغرف الخاصة داخل القصر الجميل الذى كان قد بناه لها على مقربة من معبد مدينة هابو •

وعندما تطلعت نفرتيتى الى ما حولها فان كل ما رأته لم يكن الا فراغات قبيحة • فقد ذهب جمال النقوش والزخارف • وبصرف النظر عن السبب الذى دعا الى ذلك فان العنف دنس الجدران وأفسد جو الحب والسلام • وأحست بأنها لن تستطيع أن تكون سعيدة هناك بعد ذلك • وبدت طيبة كئيبة ومهجورة وعندما كانت تذهب لتتعبد

فى بيت آتون مع الفرعون زوجها ، الذى كان يجب عليها أن تناديه باسمه الجديد « أخناتون » كان الشعب يبدو حزينا صامتا . انهم لا يبتسمون وينثرون الزهور عند قدميها كما كانوا يفعلون . ولكنهم كانوا يبدون تعساء وحيارى غير مستقرين ، ولكنها كانت تنتظر ولادة طفل وازداد الحب المتبادل بين الزوجين . وظل ايمانهما بعقيدة آتون قويا بل وأصبح أقوى من أى وقت مضى ، انهما قد هزما الكهنة . ومع ذلك أين هى سعادتهما الماضية ؟ لقد بدت وكأنها قد طارت من النافذة مثل طائر خائف .

وأحس أخناتون بذلك أيضا . لقد كان يحب الجمال والانسجام المحيط فى كل شىء ، ومع ذلك فها هو قد وطئه هنا تحت قدميه مخربا الأشياء الجميلة التى شيدها أبوه وأجداده مخلفا القبح حوله . ولم يعد باقيا أمامه الا مخرج واحد . وهو أن يترك طيبة ويبنى عاصمة جديدة يكون كل شىء فيها جديدا ولا أثر للخراب فيه .

وتحمست نفرتيتى للفكرة . لقد أصبحت تكره بيتها وتاقت الى الرحيل الى أى مكان آخر حيث لا تكون هناك أشباح ولا نظرات مؤنبة ، ولا أبهاء خالية ومعابد مغلقة وسيشب أولادها فى جو من البهجة حيث يحكم آتون وحده بكل عظمته ولا تكون للآلهة القديمة قوة تسبب لهم الكآبة . وقد بحثا الأمر معا ، يجب أن يكون المكان الذى ستقام فيه المدينة الجديدة ، لم يفسده انسان ، ولم يعش فيه أحد من قبل . ولكن أين يجدون مثل هذا المكان ؟ وفجأة تذكرا الهلال الواسع من الأرض الخصبة البكر الذى كانا قد رأياه من السفينة فى أثناء شهر العسل ، والذى كان ربان السفينة قد وصفه بأنه « عالم صغير مستقل » هذا هو المكان الذى سوف تقام فيه مدينة

آتون الجديدة .. فى « مكان لا يملكه أى اله أو الهة أو أمير أو أميرة » كما قال عنه أخناتون فيما بعد .

وبنشاطه المتقد المعتاد ، استدعى فى الحال الوزير نخت ورئيس المهندسين المعماريين ، باك وحاتيى وآى ليشرفوا على الأعمال . ووصف لهم المكان وأمرهم باعداد التصميمات وبتمهيد الأرض للمبانى والطرق ، واحضار أجود الصناع والفنايين ليزخرفوا الأعمدة والجدران ، ولكن بغير الرسوم التقليدية القديمة التى كانت تستخدم من قبل . يجب عليهم أن يرسموا الطبيعة كما كانت تبدو فى الحقيقة ، نضرة وغير محدودة كما هى فى الحقيقة ، انها من صنع حرارة آتون وضوئه : زهور ونباتات وطيور وحيوانات ممتلئة ببهجة الحياة .

انه يحتاج الى ثلاثة معابد لآتون . أكبرها سيشرف عليه الكاهن الأعظم ويشيد على مقربة من القصر الملكى ليتعبد فيه الفرعون ونفرتيتى كل يوم . وسوف يكون هناك معبد ثان للملكة الوالدة « تى » بقرب قصرها ، وثالث لأخت أخناتون الصغرى المسماة « بكت ــ آتون » التى كانت وقتئذ الكاهنة العظمى للديانة الجديدة وكان لابد لمعابد آتون من أن تكون مختلفة تماما عن المعابد القديمة التى كانت لآتون والآلهة الآخرين . وكان يجب أن يبنى باك هذه المعابد بلا سقوف وأن تكون أبهاؤها مكشوفة للسماء حتى يتيسر لأشعة الشمس أن تضىء فيها بغير عائق . ولن يكون هناك قدس أقداس داخلى ليدخله الكهنة بمفردهم ليخدموا تمثال الاله فى « بيت النار » ، لا ظلام ولا غموض لا شىء يحجز الناس عن الههم . وعلاوة على ذلك ، فان آتون ليس له تمثال ولكنه يشرق على الجميع على السواء ، أما الرسوم التى على الجدران فيجب أن تمثل

قرص الشمس منتهيا بأشعة لها أيد تبارك العالم ، انها مجرد دلالات تصويرية لفكرة مبهمة •

ان ظهور فكرة أخناتون هذه فى وقت مبكر جدا فى تاريخ نضال الجنس البشرى نحو الحقيقة العالمية والمساواة والكرامة الانسانية ، أمر يدعو الى الاعجـاب • وقد مضى أكثر من ١٣٠٠ سنة حتى جاءت الى المصريين رسـالة مشابهة وذلك عندما انتشرت المسيحيـة من فلسطين المجاورة •

ولم تكن هناك الا فئة قليلة من معاصريه هى التى فهمت حقا ما كان يقول به ذلك المصلح والعالم الروحانى ، ولكنهم رغم ذلك كانوا يصغون باحترام الى تعليمـه ، لأنه كان الفرعـون وفى يده كل السلطة • ومع ذلك فانهم كانوا يصلون صلاة رجال البلاط المبالغ فيها ويدعون للعقيدة الجديدة بأن : « تستمر الى أن يصبح الأوز الأبيض أسود وأن يتحول ريش الغراب الأسود الى البياض ، وأن تقوم الجبـال من أماكنهـا وتتحرك وتفيض المياه متجهـة الى أعلى التـلال » •

وعندما ينزل الستارة للمرة الأخيرة فى المسرحية التى حدثت فى ذلك العهد ، فانا نلاحظ أن عددا قليلا جدا من بينهم ، أو لا أحد على الاطـلاق ، اسـتطاع أن يلمح ما لمحه أخنـاتون ونفرتيتى وخاطروا بحياتهم فى سبيلها • وبينما كان انشاء المدينة مستمرا فى طريقه ، فان المتملقين لأخناتون جعلوه يشعر أنهم كانوا يساندونه كل المساندة ، مما جعل خياله يحلق عاليا ، ولكى يربط بين كل رعايا الامبراطورية فى الاعتراف بسيادة آتون على جميع الآلهـة الأخرى يجب عليه أن يبنى ثلاث مدن لا مدينـة واحدة • ان عاصمته الجديدة أخت آتون « مشرق آتون » تقع فى منتصف مصر الوسـطى فى أرض الوطن ،

ولكن يجب أن تشييد مدينة أخرى فى الجنوب ، فى بلاد النوبة ومدينة أخرى فى الأقاليم الآسيوية فى سورية •

ولا تزال خرائب مدينة آتون بالنوبة « جم آتون » قائمة بالقرب من شلال النيل الثالث فى السودان ، أما معالم مدينة آتون الثالثة فى سورية فقد اختفت تماما ولا يدرى أحد اذا كانت قد دمرتها الحروب أو الفيضانات أو الزلازل •

وبهذه الآراء والتصميمات الجديدة الرائعة للمدينة نشط رجال البلاط ، بعد أن أذهلهم هزيمة الاله آمون بتشتيت كهنته الأقوياء ، وأخذوا يعملون بنشاط وقد سرت فيهم حياة جديدة • وكان يتحتم على كل شخص له أية مكانة أن يترك بيته ويكون مستعدا ليذهب الى بيت جديد فى المدينة الجديدة بمجرد أن يتلقى أمرا من أخناتون • ولا شك أن الملك الشاب الذى كان غارقا فى أحلامه مشغولا بتصميمات القصور والمعابد ووضع طقوس جديدة وترانيم خاصة لعبادة آتون ليأخذ مكان الاله القديم ، كان بعيدا عن معظم اللغط والاضطراب وتذمر وقلق المحيطين به •

ولكن نفرتيتى كانت تعيش فى وسط هذه المشاكل ، وكان يتحتم عليها أن تصغى الى الزوجات والأمهات المهمومات وتهدىء من اضطرابهن •• من الذى سيرعى منازل أسرهن فى طيبة ؟ وما الذى يأخذونه من أمتعتهم معهم ؟ وهل من الصحيح أن الفرعون قد صمم على ألا يعود الى طيبة أبدا ؟ وهل سيقوم جلالته بدفع جميع مصروفات نقل الأسر والأمتعة المنزلية والخدم ؟ وفضلا عن ذلك فانهم كانوا راحلين بسبب نزوته • ولكن نفرتيتى كانت تصر بشدة على أنها ليست نزوة ولكن عن ايمان عميق يحتم اتخاذ هذه الخطوة ؛ وكانت تضيف بشىء من الحدة أنها تشارك فى هذا الايمان بقلبها وروحها •

ولكن ما هي حالة المناخ هناك ؟ ان المدينة الجديدة أكثر بعدا الى الشمال ، أقرب الى منف التى كانت معروفة ببردها فى الشتاء . كيف سيعيش الأطفال هنـاك ؟ هل يسقطون صرعى المرض ويموتون من البرد ؟ فضلا عن ذلك أنه مكان جديد على حافة الصحراء .. فما الذى يدعو الى ذلك . انهـا سـوف تعج بلا شـك بالحيات والعقارب وكلاهما قاتل مميت . وسوف يكون هناك فى التلال ضباع وذئاب ، وسوف توجد تماسيح وأفراس نهر فى المستنقعات القريبة من النهر.. انهم أحسن بكثير وهم هنا ، أكثر أمنا وطمأنينة ، حيث الطبيعة قد ذللت وعرف المفترس من الحيوان أنه يجب أن يظل بعيدا عنهم .

ولكن نفرتيتى كانت مخلصة لذلك الحلم . وفضـلا عن جمال الأنوثة والعاطفة التى كانت تتجلى فى ذلك الوجه الجميل فقد كان فيه أيضا قوة الفولاذة ، قوة واصرار رأتهمـا فيها أم زوجها « تى » عندما كانت لا تزال طفلة . وكانت أصغر قليـلا عما هى عليـه الآن بالرغم من أنها كانت قد تزوجت وعما قريب ستصبح أما ، وعنـدما كانت تحس بالتعب من تهدئة الزوجات المتذمرات والأمهات القلقات ، كانت تشـتد فى ردها . من الطبيعى أن جلالتـه سـوف يقوم بدفع نفقاتهم ويكافئهم بسخاء على ولائهم ، وسوف يكون فى استطاعة كل أسرة نبيلة أن تبنى بيتا رائعا وتنشىء حديقـة وبركة لزهر اللوتس ليلعب فيها أطفالهم دون أى خوف ، كما كان شأنهم فى طيبة . وهواء الصحراء أنقى وأجف من الهواء فى طيبة التى كانت محاطة بمساحات واسعة من الأراضى المزروعة والأراضى التى تغمرها مياه الفيضان ، وسوف تقوم هى شخصيا بانشاء حديقـة نباتات طبية تنمو بها كل الأعشاب الطبية المعروفة لعـلم الطب .. فاذا ظللن بعد كل هـذا متذكرات ووجوههن عابسـة فانهـا سـوف تقول لهن ببرود : ان

أولئك الذين يأتون بمحض رغبتهم الى « أخت ـ آتون » فسوف يلقون الترحيب ويحمد لهم عملهم ولكن أولئك الذين لا يأتون بمحض رغبتهم فانهم يستطيعون البقاء فى طيبة الصامتة التى سوف يتحول عنها تيار القوة والحكم والتجارة ، وحيث لا يكون لهم اتصال بفرعونهم • ألم يفهموا أمره الملكى ؟ ان كل أهل البلاد سيأتون الى هنا لأن العاصمة الجميلة « أخت آتون » ستصبح عاصمة أخرى وسأمنحهم المثول بين يدى سواء كانوا من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب » •

وأخيرا ، وفى السنة السادسة من حكمه ، وبعد ثلاث سنوات من زواجه أبحر أخناتون الفرعون ومحبوبته الزوجة الملكة العظمى « نفرتيتى » والملكة الوالدة « تى » وأخت نفرتيتى الأميرة « موت مزوا » والكاهنة « بكت ـ آتون » أخت أخناتون ، ومعهم أقارب آخرون من بينهم طفلان وهما « سمنخ ـ كا ـ رع » ، « وتوت عنخ آمون » كانا من أبناء أمنحوتب الثالث من الزوجات الثانويات ، ومعهم عدد من النبلاء ورجال البلاط والأصدقاء • أبحروا جميعا فى أحد الأيام من المرفأ الكبير فى طيبة ، نفس المكان الذى كانت بعثة حتشبسوت الى بلاد بونت قد ألقت فيه مراسيها قبل ذلك بما يقرب من مائتى عام ، ومعها حمولتها الغريبة من اللبان والحيوانات الغريبة عليهم ، والبضائع ، وذلك لاعلاء شأن الاله آمون ولتزيد من ثراء طيبة ومصر •

وكان أسطول السفن يغادر طيبة هذه المرة الى الأبد • وأعلن الفرعون وهو يغادر طيبة ، « ان جلالتى لن يغادر حدوده مدينة أخت ـ آتون أبدا » وبينما كانت السفينة الملكية تنساب بسرعة مع التيار منحدرة نحو الشمال وقفت الجموع صامتة ومنقبضة

النفس لترى الفرعون وهو يرحل بعيدا عن مدينة آمون البغيضة الى قلبـه • ولكن ماذا كان شـعور نفرتيتى ؟ ان الفتيات الجميلات لم يلقين الزهور عند قدميها ، ولم يتصايحن ببهجة عند رؤية جمالها • انها كانت تغادر بيتها ، البيت الوحيد الذى عرفته ، وقد أعلن زوجها تصميمه على البقاء داخل المكان الذى حـدده ليكون ملكا لآتون وكان لا يزيد طوله على عشرة أميال •

ولكن أفكار وأحاسيس النساء يحسن أن تظل فى الخفاء ولا تجد لها مكانا فى كتب التاريخ • ومن ناحية أخرى فمن المحتمل أن نفرتيتى، مثل زوجهـا ، لم تحس شيء من الندم ولكنهـا أحست بشيء من التخلص مما كانت فيه . وبالفرح بالحياة الجديدة التى سوف يبدآنها معـا فى تلك الأرض البكر ، لأنفسهمـا فقط وانمـا لأطفالهمـا ولأتباعهما المخلصين أيضا •

***

قام عدد من البعثات الأثرية بالتنقيب فى موقع المدينة التى بناها أخناتون ونفرتيتى والمعروفة الآن باسم تل العمارنة نسبة الى احدى قبائل العرب التى أقامت هناك بعد ذلك بزمن طويل ، وبنىأهلها أكواخ قريتهم من اللبن على جافتها وقد وجد المستكشفون بعد ازالة أكوام الرمال عن الجدرأن ، واعادة تخطيط الطرق أن المدينة قد بنيت بسرعة وأنها لم تخطط تخطيطا أصوليا فى أى وقت من الأوقات •

ففيها ثلاث طرق رئيسية تمتد موازية للنهر ، وكان القصر الملكى والمعبد الرئيسى المشيد لآتون يحتلان أفضل موقع فى وسط التلال وكانا يتجهان نحو الشرق وبجانب النهر ، ولكن القصـور الأخرى وبيوت النبلاء كانت مختلطة بأكواخ وبيوت الفقراء البسيطة • ومن

الواضح أن ذوى النفوذ وصلوا الى هذا الموقع قبل وصول الملك وأسرته ووضعوا أيديهم دون أن يعترضهم أحد على أى مكان أرادوا تملكه ، ويشمل المنزل والحديقة والسور المحيط بهما •

ووصلت بعد ذلك جماعة من الصناع وأصحاب الحرف والفنانين والفلاحين والعمـال وحشدوا مساكنهم حيثما استطاعوا فى ممرات ضيقة ملتوية تؤدى الى الطرق الرئيسية الثلاث • وبعد ذلك الوقت بقليل نشأت على الحافة الخارجية لمدينة أخت ـ آتون ، قرية يقطنها أصحاب الحرف ولكن المنازل والأكواخ تكدست حيثما تيسر المكان، فكان صياغ الفضة يسكنون الى جوار نبلاء القصر وصانعو الزجاج الى جوار منزل كبير الوزراء ، بينما كان الكاهن الأعظم يعيش الى جوار صانع الجلد •

وفى سرعة فائقة صنعت قوالب الطوب اللبن وبنيت الأسوار حول المنازل الكبيرة وبدت الحدائق وبرك اللوتس فى داخل المنازل ، كما لو أنها كانت من عمل ساحر ، اذ كان يجب الاسراع فى العمل ليكون جزء من المدينة معدا قبل أن يعيل صبر الملك ولا يطيق البقاء فى طيبة أكثر من ذلك ، وجلب النبـلاء الأثرياء الأحجـار لأعتاب منازلهم واستأجروا مهرة الصناع لينقشوا عليها كتابات هيروغليفية تعلن ولاءهم لأخنـاتون وعقيدة آتون • بدأ النقاشـون فى العمل لطلاء الأعمدة المغطاة بالمـلاط والتى ترتكز فوقها السقوف المستويـة ، ويلونون جدران المنازل بالألوان الزاهية التى كان أكثرها مصنوعا من كتـل الأحجار الجيرية الملونة بعد سحقها ، اذ كانت توجد هذه الأحجار فى الصحراء الممتدة وراء المدينـة • ولم يدخروا وسـعا ليكون القصر الملكى والمعبد معـدين لوصـول الفرعون ولكن الطلاء والجبس لم

يكونا قد جفا تماما عندما جاء اليوم الذى رأى فيه الحراس الذين كانوا على التلال وصول الركب الملكى واستعد الخدم وموظفو المعبد بسرعة لاستقبالهم •

وظهر القصر بموقعه العظيم على جانب مجرى النهر كما لو كان أكثره اعمد قائمة ، وكانت مكشوفة ومزخرفة بالألوان الزاهية ، الزرقاء والحمراء والذهبية والخضراء والصفراء وترتفع فى الخلف مبانى الجزء الأوسط من القصر وكان أعلى من أى بناء آخر فى المدينة الجديدة ، كما يتناسب مع مركز الملك • وكان يقوم الى جواره المعبد الذى أصبح حقيقة • وزال كل ما عسى أن يكون قد أحست به من ساريات الأعلام الطويلة تنساب منها قطع مستطيلة من قماش أحمر تختلط وتتراقص مع أشعة الشمس ، معلنة سيادة آتون كاله • وكان ابنه أخناتون وابنته نفرتيتى يلبسان أشرطة حمراء متشابهة ، ولكنها أصغر حجما تنساب من غطاء الرأس الملكى المستطيل الشكل •

وكان الملك والملكة ينطلعان معا ، كأى رجل وزوجته الى الحلم الذى أصبح حقيقة • وزال كل ما عسى أن يكون قدأحست به من حزن لمغادرتها طيبة • وعندما رست السفن وانتهت احتفالات تقديم القرابين للاله آتون فوق المذبح المرتفع فى وسط المعبد المكشوف الى السماء ، قاد أخناتون زوجته نفرتيتى الى داخل القصر حيت كانت هناك مفاجأة تنتظرها ، كان البهو الكبير قد زين من الأرض الى السقف ، وكانت الأعمدة مزخرفة بألوان مثل الجواهر ، ولكن أرضية البهو كانت أعجوبة حقا • فقد رسم الفنانون فيها بركة لوتس كاملة تسبح فيها الأسماك تحف بجوانبها سيقان البردى التى تتمايل مع الهواء وتلعب فيها عجول صغيرة فى ضوء الشمس البراق ، وقد أخافت الطيور البرية والبط والأوز فطارت فى الهواء فى شكل رائع

ولكن غير راضية عن ازعاجها • انها لم تر أبدا شيئا كهذا من قبل ، انها لم تر شيئا يماثله فى جماله • لم تكن هناك رسوم انسانية جامدة ابتدعها فنان ، غرفة مغلقة ، ولكنها صور الطيور بزغبها القرنفلى الناعم وريشها الرمادى وأوراق زهور اللوتس الحمراء والزرقاء والاحساس بالرياح وهى تهب فترفع سيقان وأوراق الغاب والبردى من الماء الى ضوء الشمس •

لم تقع عيناها على ثغرات قبيحة تحكى قصة النزاع والبغضاء ولكن وقعتا على جمال وانسجام ولا شىء غير ذلك • وكانا يستطيعان أن يعيشا هنا فى أغنية الحب السعيدة فرحين فى نعمة اله الشمس • وبعد قليل ولد طفل نفرتيتى الأول (١) ، وكان ابنة وأسموها مريت آتون « محبوبة آتون » • وبعد عام آخر أتت الى الوجود ابنة أخرى « ماكت أتن » « عطية آتون » ، ولم يقف ابتهاج الملك عند حد • يجب أن ينحت النحات بالك صورا للأسرة كلها حيثما كان هناك جدار ملائم ، وأن يجلس أخناتون فى مثل هذا النقش فوق كرسى وترسم محبوبته نفرتيتى وهى تمسك بساقه أو تمس كتفه فى حنان ، وتجلس احدى ابنتيه فوق ركبته وتلعب الأخرى قريبا من قدميه ، ويجب أن يبدوا فى صورة طبيعية رقيقة كما هم فى حياتهم الحقيقية •

وفوق الصخور التى تعلو المدينة نقش هذا الدعاء المؤثر من أجل أسرته « ان الحب العذب ملأ قلبى للملكة ولأطفالها الصغار ، اللهم هب عمرا مديدا للملكة نفرتيتى حتى تتمتع بعطايا الفرعون فى هذا العمر المديد • وهب عمرا مديدا للابنة الملكية مريت آتون وللابنة

---

(١) عندما اتت نفرتيتى مع أخناتون لوضع أساس المدينة كان معهما ابنتان وعندما عاد للاقامة فيها بعد عامين كانا والدين لثلاث بنات • (المراجع)

الملكية ماكت آتون ولأطفالهما وأن تتمتعا بهبات الملكية أمهما ، دائما والى الأبد » وتعبيرا عن حبها الكامل وسعادتها حفرت نفرتيتى الى جواره دعاء الى آتون « امنح ابنك الذى يحبك الحياة والحقيقة الى سيد البلاد أخناتون حتى يمكنــه أن يحيا متحدا ضعهما الى الأبد ، أما بالنسبة لزوجته نفرتيتى فليتها تحيا دائما والى الأبد الى جانبه ، وأن تفعل ما ترضاه ، انها تعجب بكل ما خلفته يوما بعد يوم » .

وكان ذلك المكان الذى أتوا ليعيشوا فيه مكانا لطيفــا فعندما تسقط الأمطار النادرة أو بعد ما يكون النيل قد فاض وروى الحقول، تنبت الأزهــار وتتفتح بشــكل مبهج زهور الخشخاش القرمزيــة والأقحوان الأبيض بقلبه الأصفر وزهور البانسيه الزرقاء .. وأزهرت أعواد نبات الحلفا على جانبى النهر وأزهرت سيقان اللوتس زهورا ذكية الرائحة ، وكانوا يصنعون منها جميعا حبالا وعقودا يلفونها حول كل اناء يستخدمونه .

ويمكننا أن نرى كل هذه الزهور ، وقد زخرفوا بها حلى نفرتيتى التى عثر عليها فى الرمال وهى مكسرة الى قطع صغير . فقد عثر على قلاداتهــا العريضة التى كانت تلبسها والتى كانت من الزجاج الملون على هيئة وريقات الأزهار ، وأســاورها وأقراطها ونراها كذلك فى بقايا رسوم الجدران الملونة . والآن وقد تم تشييد أخت آتون ، أخذ الفنانون ومهرة الصناع من جميع أنحاء الامبراطورية يأتون اليهــا ليعملوا فيها ويخرجوا قطعا فنية دقيقة الصنع من أجمل ما صــنع فى مصر فى أى وقت من الأوقات .

وهدأ تذمر زوجات النبلاء . وعشن فى رفاهية كما كن يعشن فى طيبة وكن يمضين الوقت فى اللهو وتذوق الفنون معتقدين بما كان يفعله فرعون وزوجته وكانت منازلهن مريحة ومزخرفة وكلها مبنيــة

بنفس التصميم ، وبالرغم من أن بعضها كانت بالطبع أكبر وأوسع من الأخرى ، مثــل منزل كبــير الوزراء نخت ، ومنزل رع نفر رئيس الاسطبلات ومنزل حاتيى المشرف على الأشغال •

وكانت المنازل محاطة بأسوار مستطيلة لتصون المنزل والحديقة عن الأنظار ولها بوابة واحــدة فقط تكفى لمرور عربة صاحب البيت ليخرج بها الى الطريق ؛ وكانت الحدائق والأشجار والمزروعات تنمو فى حفر محفورة فى الرمل ومملوءة بطمى النيل وكان على البستانيين أن يقوموا بريها كل يوم • وكان لكل حديقة بركة لوتس مستطيلة وجوسق وتكعيبة عنت للجلوس تحتها فى ليالى الصيف •

وكانت مبانى الخدم الملحقة بمبانى المنزل فى داخل نطاق الأسوار ، بجوار بعضها البعض فى آخر الحديقة • وكانت هناك زرائب للماشية واسطبلات للجياد ومكان للكلاب وصوامع غلال يهيلون فيها الشعير والقمح من فتحة عند القمة ويأخذون منها ما يريدونه من فتحة جانبية عند أسفلها ، وفيها مكان للخبز ، فيه فرن من الفخار يعمل أرغفــة العيش المستوية السطح ، ومطبخ به كوانين لأجل غلى المــاء وشــواء اللحم ومخازن من أنواع مختلفة •

أما المنزل نفسه فكان مشيدا فوق رصيف مرتفع ، وله عدد من الدرجات القليلة الارتفاع ولها حاجزان على الجانبين ، وتقود هذه الدرجات القليله الى الباب الأمامى ، وهو المدخل الرســمى للمنزل الذى يحمل اسم مالكه وألقابه وبعض مناقبه ، منقوشــة على عضادتى الباب وعلى عتبه • وكان الحجر ملونا باللون الأصفر الزاهى ، وقد ملئت تجاويف الكتابات الهيروغليفية المحفورة بعجينة زرقاء اللون ، وكان كل ذلك يظهر فى شكل جميل يشرح النفس •

وفى الداخل كانت توجد حجرة البواب الذى يستطيع أن يشاهد من مكانه جميع الداخلين والخارجين ، ومن الردهة يصل الزائر الى غرف الانتظـار حيث كان الزوار يجلسون ، وهى حجرات مزخرفة بأفاريز زاهيـة ، وهى باللون الأحمر والأزرق والأصـفر والأخضر وكتابات كبيرة الحجم فيهـا مزيـد من مدح مالك المنزل وولائـه لأخناتون وعقيدة آتون •

وكانت القاعة الرئيسية الكبرى ، والتى كان يرتفع سقفها عاليا عن باقى المنزل ، هى مركز البيت ، وكان السقف ملونا باللون الأزرق ليمثل السماء ، وكانت الأعمدة المزخرفة التى تحمله ذات تيجان على شكل زهرة اللوتس • وفى القصر الملكى كانت هذه الأعمدة محـلاة بالميناء ولامعة وألوانها ذهبيـة وزرقاء وحمراء • وكانت الأرضـية مصنوعة من بلاطات كبيرة من الطوب اللبن ، وكانت تدهـن أولا بالجير ثم يرسمون عليهـا بعد ذلك بعض المناظر الطبيعية ، وكانت الجدران ملونة أيضـا وكانت اضاءة القاعة غير مباشرة ، لأنه لم يكن لها نوافذ ، وكان الضوء يأتى اليها من فتحة تجرى حول أعلى الجدران تحت السقف مباشرة وضوءها الذى تعطيه يريح العين ويجعل الانسان يحس بالرطوبة بعد النور السـاطع الشـديد والحرارة فى الخارج • وكانت القاعة لا تستخدم الا فى المناسـبات التى تغلب عليها الصفـة الرسمية ، كاستقبال الفرعون وزوجته الجميلة مثلا • ومن القـاعة الرئيسية تفتح غرفة استقبال داخليـة • وكانت تمتد بجـانب أحد الجدران مصطبة مرتفعة قليلا مبنية من الطوب ولها افريز قليل الغور له ثلاث فتحات ، واحدة للسير فى الوسط وواحدة على كل من جانبيه لضيوفه الأكثر حظوة ، وأمام المكان الذى يجلس فيه كان يوجد فى

أرضية الحجرة حفرة قليلة الغور تتسع لوضع موقد نقالى كان يحرق فيه الفحم النباتى فى الشتاء •

وفى أحد الأركان كانت توجد درجة حجرية واحدة تقود الضيف الى دورة المياه • وهناك كان يستطيع أن يأخذ بنفسه الماء الموضوع فى جرة فخارية كبيرة موضوعة فى حفرة غير عميقة • وكانت جدران غرفة الاستقبال المربعة الشكل ملونة باللون الأبيض وفى هذه الجدران كان يوجد المحراب فى الناحية الغربية وقد لون باللون الأحمر الداكن وكان يصور فيه فى بعض الأحيان الفرعون يتعبد الى اسم آتون داخل خانة ملكية ، وقد وقفت نفرتيتى خلفه •

وفى الجدران الأخرى كانت توجد أبواب تؤدى الى « الايوان الغربى » الذى كان مكشوفا للشمس والذى تستعمله الأسرة شتاء ، والى « الايوان الشمالى » حيث يمكن أن يحس الانسان بكل نسمة من الهواء الرطب الذى يهب فى الصيف • وتؤدى مجموعة من الدرج العريض الى غرف النوم بالطابق الأول وهى تدور حول القاعة الرئيسية على شكل دهليز • وكانت هذه هى الغرف الخاصة بأهل المنزل وبها غرف نوم السيد والسيدة فى أحسن مكان • وكانت توجد فى كل منهما كوة بسيطة فى الحائط ومصطبة قليلة الارتفاع للنوم عليها وغرفة استحمام خاصة ومرحاض ، وكانت أرضية كل منهما مغطاة بالأسمنت وجدرانها ملونة باللون الأبيض • وكان هناك نظام خاص بالمجارى يحمل النفايا بعيدا الى الأرض الموجودة أسفل المنزل • ولما كان الخدم من الرجال والنساء لذا ينبغى أن ينام كل جماعة منهم بعيدا عن الآخرين ، فقد بنيت مساكن منفصلة لهم فى كل منزل •

وفى الطابق الثانى من المنزل كانت توجد قاعة الولائم ، ومطبخ خاص وغرف الخزين وعلى الأخص النبيذ ، وبهو خاص للنساء ،

حيث كان لربة الدار غرفــة استقبال خاصــة باستقبالاتها الرسمية ومزخرفة بشــكل جميل ، ومحراب لعبادة الاله • ولابد أن الغرف الصغيرة العديدة التى كانت فى هذا الجناح ، كانت مخصصة للأطفال ومربياتهم ومعلميهم ، اذ وجدت بين الأنقاض كثير من اللعب الجميلة، وعلى الأخص مجموعــات مسلية من القردة والحيوانــات الأليفــة الأخــرى •

وتدفقت الثروة والأموال الى المدينة الجديدة من جميع أنحــاء الامبراطورية وكافأ أخناتون أولئك الذين تبعوه الى هنــاك بالذهب والأمتعة الغالية لدرجة جعلت أحد النبلاء يكتب عنها قائلا : « أخت ــ آتون العظيمة فى الجمال ، صاحبة الحفلات السارة ، الغنية بما تملكه والتى تتهلل الأســارير عند النظر الى جمالها • انها مليحة وجميلة ، وعندما يراها انسان تبدو مثل ومضة السماء » •

وكان أخناتون ونفرتيتى يستيقظان كل يوم على أنشــودة من المديح ، ترتل فى هدوء حتى يكون استيقاظهما رقيقا ، ثم يفترقان بعد ذلك فيذهب هو الى سكنه الخاص وهى تذهب الى حجرتها الخاصة فى جناح الحريم ليغتســل كل منهما ويتزين • وكانت خادمات نفرتيتى يقمن أولا بغسل جسدها بالمــاء المعطر ثم يدلكنها ويعطرن جلدهــا الزيتونى اللامع بالزيوت المعطرة المحفوظة فى أوان مرمرية عظيمــة القيمة فاذا كانت تتأهب للذهاب الى احتفال خاص أو الى وليمة كبرى فانها كانت تجلس الى جوار نار من خشب الصــندل والصمغ الذكى الرائحة والعطور لتبخر وتعطر كل جسمها •

وكانت تخضب كفيها وقدميها بالحناء ذات اللون الوردى الأحمر • وعندما يجفان كانت ترتدى ملابسها الكتانية البيضاء الشفافة تقريبا والتى تضيق عند الخصر ثم تضع صندلها الرقيق الجميل فى قدميها •

وتمسك بعدئذ بمرآتها البيضية المصنوعة من النحـاس المصقول من يدها المصنوعة من العـاج المحفورة وكانت تسوى بنفسها حاجبها المقوسين بزوج من الملاقيط الدقيقة ثم تجعل عينيهـا بالكحل وهو صبغة سوداء فتعمل شرطة عند الركن الخارجى من كل عين وتعفر أهدابها وتضع قليلا من الكحل تحت الجفنين لتحمى العين من وهج الشـمس والغبار المتطـاير من الصحراء • وتأخذ من أوان صغيرة الحجم ، صبغـة حمراء لوجنتيهـا وشفتيها ، وتصبح بعد ذلك على استعداد لأن تلبس مجوهراتها القائلا والخواتم والأساور والأقراط والتى كانت تحضرها اليها السـيدة المشرفـة على خزائن المـلابس الملكية لتختار منها ما تشاء •

وكان شعرها يقص قصيرا جدا طبقا « لموضة » العصر ، ويعطر بمشط جميل له صفان من الأسـنان • فاذا كانت تستعد للظهور فى مناسـبة رسمية فانها كانت تغطيه بغطـاء الرأس الملكى الطويل ذى اللونين الأزرق والأحمر الذى تعلوه رأس الحية « سيدة الحيـاة » لتحميها ، بينما تتطاير من خلفها الشرائط الحمراء لتدل على مكانتهـا الملكية • وعندما تنتهى من كل شىء تلحق بأخناتون للافطار ، وكانت المربيـات يأتين بالأطفال ليدللهم ويلاعبهم ، ويتمتع بهم والداهمـا العطوفـان •

وبعد ذلك يأتى دور ظهورهما أمام الشعب من نافذة خاصة حيث كانت الشمس تضىء فى بهـاء وتجعل حليهم الذهبيـة ومجوهراتهم تتلألأ • ويرمى أخناتون بالزهور والعقود الذهبية الى أتباعه الأوفياء الواقفين تحت النافذة وكان هـذا الذهب لايزال يأتى اليه من جزية الجهات النائية من امبراطوريته المهملة •

ثم يذهبان لزيارة المعبد ويقومان بتقديم قرابينهما اليومية من

الطعام والفاكهة والأزهار على المذبح المرتفع المكشوف حتى يستطيع الاله أن يرسل ضوءه اليه ويتمتع بما يقـدم اليه • ويخرج الكاهن الأعظم ليقابل الفرعون ويغنون للفرعون النشيد الكبير الذى ألفـه أخنـاتون :

أنت تطلع ببهـاء فى أفق السـماء ،
يا آتون الحى يا من كنت بداية الحيـاة •
عنـدما تشرق فى الأفـق الشرقى ،
تمـلأ كل البـلاد بجمـالك ،
وعندما تغرب فى الأفـق الغربى ،
تظلم الأرض كما لو كان حل بها الموت •
ويخـرج كل أسـد من عرينـه ،
وتخـرج الزواحـف لتـلدغ ،
ويلف الظـلام كل شىء ،
ويعـم الأرض السـكون •
لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفقه ،
انك تطرد الظلمـة ،
فيهب الناس من نومهم ويقفون على أقدامهم ،
لأنـك أنت الذى أيقظتهـم •
فيغتسلون ويلبسـون ملابسهم ،
ويرفعون أذرعهم ابتهالا عند ظهورك ،

ويؤدون أعمالهم فى كل أنحـاء الأرض .

وتستقر الحيوانات كلهـا فى مراعيهـا ،

وتزدهر الأشـجار والنباتـات ،

وترفرف الطيـور فى أوكارهـا ،

وتمتـد أجنحتهـا تعبدا اليـك .

وتتراقص الغـزلان على أرجلهـا ،

وعندما يصيح الكتكوت وهو داخل بيضته ،

فأنت الذى تمده بالهواء فى داخلها لتبقيه حيا ،

وعندما تتم خلقه داخل البيضة تجعله يكسرها ،

ويخرج من البيضة يصوصو اذا ما حان موعده .

ما أعظم أعمـالك التى عملتهـا ،

انهـا خافيـة على النـاس ،

أيها الاله الأوحد الذى لا اله غيره .

لقد خلقت الدنيـا كمـا شئت ،

ما أعظم أعمـالك يا سـيد الأبدية ،

انك خلقت نيلا فى السـماء للأجانب ،

ولكن النيل ينبع من العالم الآخر من أجل مصر .

ويعيش النـاس بوسـاطتك ،

وترى عيون النـاس الجمـال

حتى تغيب أنت ،

فيترك كل النـاس أعمـالهم .

عنـدما تغرب فى الغـرب .

وعنـدما تشرق ثانيـة ،

يزدهر كل شىء لأجـل الملك ،

ويأتى الرخـاء فى كل خطـوة .

ملك مصـر العليـا والسـفلى ،

الذى يحيا فى الحقيقة ، سيد الوجهين ،

ابن رع رب التيجـان ،

أخنـاتون ، له العمل الطويـل .

وللزوجة الملكية الأولى ، المحبوبة منه ،

سيدة الأرضين نفر نفرو آتون نفرتيتى ،

عاشت منعمـة دائمـا والى الأبد .

وبعد أن ينتهيا من أداء الصـلاة فى المعبد والظهور أمام الشعب والغداء ونوم القيلولة يأتى الوقت الذى يستطيع أن يستريح فيه كل من أخناتون ونفرتيتى ويعتبر أنه ملكا لهمـا ويمتعان أنفسهما بعيدا عن القيود الرسمية . وعندما تخف حدة الشـمس وتستطيل ظلال التلال فانهما يخرجان فى العربة الملكية ، يقودها أخناتون وهو واقف منتصب القامة بينما تمسـك به نفرتيتى من الخلف وتمسك الأميرة الصغيرة بها . وتحرك الجياد رءوسها فتحرك الريش المثبت فى السيور التى حولها ، كمـا تحرك أعرافهـا كأنها تدرك أنها تحمـل الزوجين الملكيين وتركض فوق الأرض وعلى طول الطريق الرئيسى فى اتجاه

منطقة الضاحيـــة الجنوبية ــ « مرو ــ آتون » حيث كان الفرعون وزوجته قد شيدا قصرا صيفيا وبحيرة وهناك كانا يتمتعان بالراحـــة تحت الأشجار والى جانب المياه الرطبة ، أو يجدفان فى تراخ على مياه البحيرة ، وعندما كانت نفرتيتى تغمس أصابعها فى المـــاء كان خيالها يسرح فى الصبى والفتاة اللذين كانا يفعلان ذلك قبل سنوات ليست بعيدة ، وكانا يحلمـــان بما يراود نفسيهما على بعد أميال كثيرة فى طيبة التى هجرها ٠ وكان سفراء البلاد الأجنبية ، أو المبعوثون الذين كان يرســـلهم أحد الحـــكام الذين يحكمون احدى الولايات التى تهددها القبائل المحلية ، يأتون الى هذه المدينة وكان أخناتون يرحب ويحتفل بهم ويعطيهم الهدايا ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل من أجلهم شـــيئا غير تلك الضيافـــة والاستقبال ٠ انه لم يكن يهتم بأى شىء الا بأخناتون ومحبوبته نفرتيتى وأطفالهما ، والجمـــال الذى خلقـــه آتون ، والذى أحاط به نفسه ٠ ولم تكن هناك أية دلالة على تجمع السحب فوق أفق آتون المضىء ٠

***

وفى سنة ١٨٨٠ م ٠ أو منذ أكثر من ثمانين عاما مضت ، ذهبت فلاحة مصرية من تل العمارنة الى كيمـــان الأنقاض التى تمتد وراء القرية والزراعة ، وحفرت فى الكيمـــان ابتغاء الحصول على الأتربة التى تخلفت عن السكان الأقدمين والتى تكسب الأرض خصـــوبة رائعـــة وتسمى « السباخ » ، وعثرت فى الأتربة الناعمـــة المتخلفـــة عن قوالب الطوب اللبن القديمة والمطمورة تحت الرمال على بعض اللوحات المستديرة الصلبة وعليها خربشات غريبة ٠ وبعد أن أزالت عنها الأتربة العالقة بها بأطراف طرحتها السوداء وجدت أن الخربشات كانت عميقة الحفر وبأشكال مثلثة فى الفخـــار الجاف ٠ ولم تستطع

أن تعرف ماهيتها ، ربما كانت مجموعة من الرسـائل وربما كانت رموزا سحرية •

وكانت قد سمعت أن بعض الفقراء من الأهـالى قد أثروا من بيع « الأنتيكات » الى الأجانب الذين وصل بهم الجنون الى حد جعلهم يدفعون مبالغ خيالية لمثل هذه الأشياء القديمة عديمة النفع • وعلى هذا فقد جمعت كل القطع المنقوشة التى عثرت عليها هناك ووضعتها فى غرارةالسباخ وحملتها على ظهر الحمار•وقفلت عائدة الى قريتها وأخفتها حتى تستطيع أن تأخذها الى المدينـة القريبة فى الضفـة الأخرى من النهر لتبيعها • ولا نعرف مبلغ ما حصلت عليه ثمنا لها ، ويرجح أنه لم يكن مبلغا كبيرا اذ كانت هـذه الألواح غير منقوشة بالهيروغليفيـة أو أى كتابة أو رسـوم من تلك الكتابات المعروفـة لهواة الآثـار المصرية الذين كانوا يشترون مثل هذه الأنتيكات ويبيعونها الى التجار فى الأقصر أو القاهرة •

وأخيرا وجدت هذه الألواح الغامضة طريقها الى متحف اللوفر حيث أمكن التحقق من أن الكتابات التى عليها هى الكتابة المسمارية التى كانت تستخدم فى بابل وما بين النهرين • ولكن أحد الأساتذة المشهورين المتقدمين فى السن أكد أن هـذه الألواح مزيفة — وعلى هـذا لم يحتفظ بها متحف اللوفر واسـتمرت تنتقل من متحف الى متحف وقد أخذ التراب يعلوها مرة أخرى وتشققت بل وضاع بعضها، الى أن حدث فى آخر الأمر أن أحد العلماء استطاع أن يحل رموز الكتابات ، ووجد لدهشته الشديدة أنها أحد الاكتشافات التاريخية العظيمة فى ذلك القرن ، وأن ما حوته تلك الألواح كان قصة « الملك المارق » — كما كان الفراعنة الذين أتوا من بعد أخناتون يسمعونه — وعلاقاته بالعالم الخارجى •

كانت الألواح رسائل كتبت قبل ميلاد المسيح بنحو ١٣٠٠ ألف وثلاثمائة عـام أو تزيد وهى رسائل رسمية مرسلة الى أخناتون من الملوك التابعين له ومن الحكام وقواد الحاميات فى الممتلكات المصرية فى آسيا • لقد عثرت المرأة الفلاحـة على مكتب الشئون الخارجية لأخنـاتون •

وما أمرها من قصة تلك التى روتها الرسائل ، قصص ثورة وتمرد واقتراب القوى المعادية وخيـانة بعض موظفيـه الخصوصيين ، مع استغاثات بطلب النجدة والامدادات على وجه الاستعجال • ولكن هذه الاستغاثات والتحذيرات لم تحظ بالرد عليها من فرعون الذى لم يهتم بأى شىء من متاع الدنيا خارج الحدود التى وضعها بنفسه لمدينة آتون ، انه كان يحب الهروب من الحقيقة وكان محبا للتصوف ولكنه كان يترك نداءات الاستغاثة من أتباعه وأصـدقائه المخلصين تذهب أدراج الرياح •

ولم يكن تدهور الامبراطورية التى شيدها أسلافه ليعنى شيئا بالنسـبة له ومهما استحسنا كراهيته للروح الحربية فانا لا نستطيع تبرئته من اهماله الشديد لكاتبى تلك الرسائل •

وتمثل هـذه الألواح مجموعة مستندات شخصية ذات أهمية انسانية وتاريخيـة منقطعة النظير وقد أدى حل رموز كتابات تلك الألواح الى الكشف عن مدينـة أخنـاتون التى كانت قد اختفت من الوجود ، اذ ظلت مهجورة ومهملة وموقعها غير معروف على وجـه اليقين لعلمـاء الآثار المحدثين حتى ذلك الوقت • وفضـلا عن ذلك كانت السحب الداكنة تتجمع ، وكانت ظلالها تهدد بالفعل تلك الحياة الشاعرية لأخناتون ونفرتيتى •

والقصة التى ترويها الألواح هى قصة قوة الحيثيين التى أخذت تزداد ، وقصة غيرهم من القبائل والشعوب فى آسيا ، الذين كانوا يتحدون سيادة مصر فى ممتلكاتها الخارجية والدول التابعة لها .

وكان بعض الحكام والقواد المصريين خونة ، وانحازوا الى جانب العدو وسلموا لهم بمحض اختيارهم مدنهم وأقاليمهم ، وكان مركز أولئك الذين ظلوا على ولائهم للفرعون محفوفا بالخطر ، وكتبوا اليه بعجلة طالبين النجدة « تعال الى نجدتنا أيها الملك السيد ، وسنطرد أعداء مصر » ولكن لم تصل اليهم أية نجدة بل ولا اجابة من الحاكم على ضفاف النيل . وتتابعت الرسائل من حاكم أورشليم « عبدى — خبى » الى كاتب الفرعون المختص بالمراسلات الآشورية ليفسرها ويحولها اليه للتنفيذ . وقد كتب « عبدى — خبى » بأن قبائل الخبيرو كانوا يهددون كل الممتلكات المصرية فى فلسطين ولن يمضى وقت طويل حتى تحاصر أورشليم وتسقط ، ان لم يسارع بارسال الامدادات . وقد كتب حاشية فى احدى رسائلة الأخيرة الى صديقه الكاتب « الى كاتب سيدى الملك ، تابعك عبدى — خبى . أعرض هذه الكلمات بوضوع أمام سيدي الملك « ان كل بلاد سيدى الملك فى طريقها الى الخراب ، أخبر الملك صراحة أن بلاده فى طريقها الى الضياع » .

وقد رجا حاكم آخر من حكام أخناتون التابعين له المخلصين وهو « رب — عدى » حاكم جبيل [1] أن يرسل جيشا لنجدته « اننى فى مدينة جبيل هذه مثل طائر وقع فى شرك » ولما لم يصل اليه رد

---

(١) جبيل أو جبلة كانت العاصمة القديمة للشاطىء اللبنانى وأهم موانيه منذ اكثر من خمسة آلاف سنة ومكانها الآن الى الشمال من بيروت . (المراجع)

بعث رسالته الأخيرة المحزنة « ان لم تأت نجدة فانى اذن رجـل ميت » • ولم يكتب شيئا بعد ذلك •

فهل علمت « نفرتيتى » بهذه الرسائل واستغاثات النجدة التى بقيت دون رد عليها ؟ ! ولابد أن الملكة « تى » قد أخذت علما بذلك اذ أن بعض الرســائل المسمارية كانت معنونة باسمها تســألها أن تستخدم نفوذها لدى ابنها • ولكن لا أحد لا « تى » ولا « نفرتيتى » نفسها كان قادرا اذ ذاك على أن يخرج أخناتون من حياة الوهم التى كان يحياها • فقد أهمل وأبعد الملوك الأصدقاء وتمت هزيمــة وابادة الحــكام والولاة ، ولم يقدر أحد خدمتهم له باخــلاص أو يكافئهم عليهــا •

ومع ذلك فقد ظلت الجزية والأموال تأتى الى أخناتون ليدخلوا فى روع الفرعون أن كل شىء على ما يرام كما كان من قبل • وهناك رسم من السنة الثانية عشرة من حكمه يمثله راكبا فى أبهة فى محفــة فاخرة ومعه حرس من ثمانية عشر جنديا ليتسلم الجزية فى احتفــال رسمى • ولكن الكتابة على الجدران فقط ، أما فى داخل البيت فقد كانت السحب تتجمع •

وكانت الأنباء تتوالى فى الحاح مقلق عن ازدياد سخط النبــلاء الذين ظلوا مقيمين فى طيبة ، وعن قوتهم النامية فى البــلاد ، وتجدد عبادة آمون المحرمة ، وأن الكهنة بدءوا يخرجون من مخابئهم ليقيموا الصلوات القديمــة فى صورة ليست سرية الى حد كبير • ولم يتخل أبدا سكان البلاد العاديين عن عقيدتهم التقليدية فى طلب شفاعة آلهة مصر الذين لا يحصيهم العد لدى كبير القضاة أوزيريس • أما الاصلاح الدينى الذى أتى به أخناتون فقد فرض عليهم من سلطة عليا • وبالرغم من أن عبادة الشمس كانت قديمة قدم مصر ذاتها فان عقيدة آتون فى

شـكلها الجديد الصارم كانت لا تحوى الا القليـل الذى يجعلهم يستمرون عليها • وعلى هـذا فقد ظلوا على عادتهم فى تقديم القرابين وطلب المساعدة والحماية من آلهتهم والهاتهم التى كانوا يحبونهـا • وكان لا يمكن لهم أن يستعيضوا بقرص الشمس البعيد عن أيديهم بديلا عن النصـوص السحرية التى كانوا يستطيعون شراءها بثمن بخس من الكهنة •

وكان عليهم أن يطيعوا أو يظلوا بعيدا عن المعابد والهيـاكل القديمة خوفا من جنود الفرعون ، ولكن قلوبهم كانت حزينة ومتمردة• لقد كانت العقيدة الجديدة سابقة لأوانها جدا ولم يكن الناس على استعداد لها على الاطلاق • وقد كتب بعد ذلك توت عنخ آمون ، زوج ابنة أخناتون والذى حكم بعده ، يصف حالة البلاد عندما كان يعيش فى دنيا أحلام أخناتون « لقد أقفرت المعـابد من الفنتين حتى مستنقعات الدلتا •• لقد هجر الناس الأماكن المقدسة وأصبحت طرقا تنمو بها الحشائش •• ومحاريبها كانت أشبه بشىء لم يوجد أبدا •• وكانت بيوتها طرقا توطأ بالنعال •• وكانت البلاد فى حالة سـيئة ، أما الآلهة فقد نبذوا هذه البلاد • واذا خرج الرجـال الى سـورية ليوسعوا حدود مصر ، فانهم كانوا لا ينجحون أبدا واذا صلى الناس لاله ليعينهم فانه لا يستجيب أبدا •• واذا توسل الناس الى الهة فانها أيضا لا تستجيب أبدا •• فقد كانت قلوبهم صماء فى داخل أبدانهم »•

وبهذا الشعور الذى كان يسود البـلاد ، وما كان معروفا من اهمـال أمور الامبراطوريـة فليس بمستغرب أن تزداد المعارضـة لأخناتون قوة من يوم الى آخر • وقد رفض فى أول الأمر أن يواجه هذه الحقائق المكدرة ، كما أنه رفض أن يوجه أحد نظره الى المشاكل.

التى كانت سائدة فى الخارج • ألم تكن لديه مشاكله الشخصية أيضا ؟

وتطرق الحزن والارتباك اليه والى ملكته عندما ماتت ابنتهما الثانية « مكت ــ آتون » بالرغم من أنه كان لديهما حينئذ خمس بنات أخرى أصغرهن طفلة رضيعة ، فان موت مكت آتون كان صدمة لهما • ولم يكن هناك متسع للحزن والألم فى العالم المثالى الذى كان يحكمه آتون الرحيم ، ومع هذا فقد حدث هذا الحزن • وزاد وجه نفرتيتى نحولا وأصبح الجلد مشدودا الى حد ما على العظام الرقيقة، ولم تعد عيناها تتلألآن فى ضوء الشمس •

وفى التلال الجيرية التى ترتفع عاليا وراء المدينة داخل الصحراء، حيث يعيش الغزال والوعل والنعام والغراب وثعلب الصحراء ، قطع أخناتون مقابر لنبلائه وموظفيه الرسميين وزخرف جدرانها ، كما قطع فى الصخر مقبرة أخرى أكبر وأوسع من المقابر الأخرى لنفسه ولنفرتيتى وأسرتهما • وقد قال عنها « مدفنى الذى فى الجبل الشرقى » •

ويؤدى بئر عميق مظلم الى داخل الغرفة الرئيسية فى ذلك القبر كما تؤدى مجموعة من الدرج الداخلى الى غرفة أصغر منها • وعلى جدران تلك الحجرة نرى رسم الطقوس الجنائزية للأميرة الصغيرة ، وقد نقشت فى صور تهدم جزء منها على الحوائط الجيرية الناعمة ، وهى تذكرنا بطفلة قصيرة الأرجل وبالحزن الذى أحاق بأسرة سعيدة• ونرى والديها وقد وقفا الى جانب نعشها ووقفت الفتيات الخمس الصغيرات فى صف وراءهم ، والطفلة الرضيعة فيهن رسمت بين ذراعى مربيتها ، وفى المنظر التالى على الجدار نرى رسم المومياء وحولها الزهور ووضعوا اللعب والحلى والأثاث الجنائزى والأمتعة

بالقرب منها حتى تتمتع روحها « كا » عندما تعود من العالم الآخر ، ولم يعد أخناتون ونفرتيتى الفرعون وزوجته الملكية العظمى بعد موت ابنتهما ، ولكنهما أصبحا أبوين حزينين مثل أى أبوين آخرين وقد خرجا من المقبرة وقلباهما فى ظلمة لا يبددها حتى لمعان وجلال آتون المضيء فوق الجبل وفوق المدينة البيضاء اللون ، وفوق الحقول الخضراء والنهر الأسمر الخصيب .

خمس فتيات ولكن دون أن يكون له ولد ، وما من أحد ليحمل عبء الاستمرار فى عقيدة آتون كفرعون حاكم ، أما هو نفسه فقد ازداد عليه التعب والانفعال والمرض . وليس من شك فى أن نفرتيتى قد لاحظت فى قلق تعب زوجها المتزايد وتقدمه المبكر فى الشيخوخة . لقد أفنى جسمه ، لقد عمل كثيرا وهو فى مستهل العمر وأنهك بدنه الواهن وقوته فى اقناع الناس ، وفى حملهم على تنفيذ ارادته وتحقيق الهامه ضد كل استخفاف ومقاومة . بدا كما لو أنه قد ضعف قليلا أيضا فى عقيدته ، وكان يقضى وقتا غير قليل فى الملذات واحتساء النبيذ والاستماع الى الموسيقى ليتهرب من واجباته ومن الحقائق المكدرة . وكانت نفرتيتى تحبه ، وكان تغفر له الشيء الكثير كما حدث عندما اتخذ زوجة أقل مرتبة كما جرت العادة أو عندما أخذ يوجه انتباها أكبر لابنتهما الكبرى مريت آتون أكثر منها نفسها ، ولكن ضعفه فى عقيدته لم تستطع أبدا أن تغفره له . لقد كرسا كل حياتهما من أجل هذه العقيدة التى قامت على ايمانه بوحدانية الاله حدث عندما اتخذ زوجة أقل مرتبة كما جرت العادة أو عندما أخذ آتون . وعليه الآن ألا يفشل فى ذلك .

وكان يكتم عنها بعض الأمور أيضا ، وبدأت هى تشك فى الأمور ، تشك فى تلك المراسلات المتبادلة بينه وبين طيبة وساورتها الشكوك فى أنه كان يحاول سرا أن يصل الى اتفاق مع حزب آمون ومع أعدائه

الكهنــة ، بشرط أن يتركوه وشــأنه وأن يسمحوا له بالاحتفــاظ بعرشــه •

ولم تعد الملكة الوالدة « تى » ذات نفع لها اذ كانت قد تقدمت فى السن ، وعندما ذهبت نفرتيتى لزيارتهــا فى قصرها وجدتها أكثر اهتماما بالاحتفاظ بجمال هيئتها أكثر من اهتمامها بالسياسة • وكانت قد وصلت الى يديها بردية قديمة ، وكانت ترشد وصيفاتها الى جمع المواد التى تتركب منها وأمرتهن بأن يهيئن نارا لكى تقوم بطهيهــا عليها • فقد كانت فيها وصفة « لتجعل الشعر ينمو ، وقد عملت لأجل (سش) والدة جلالة ملك الجنوب والشمال تتى : مخالب كلب جزء واحد ونوى بلح جزء واحد وحافر حمار جزء واحد • تطبخ جيدا مع الزيت فى آنية فخارية ويدهن بها » •

وظل لسان « تى » سليطا حادا كما كان من قبل ، وكانت تعطى أوامرها بنفس الشدة التى كانت تستخدمها من قبل ولكنها كانت أيضا على قدر كاف من الفطنة ولا تحاول التدخل •

ولم يمض غير قليل حتى علمت نفرتيتى بما كان يدبره أخناتون للصلح • كان لا يستطيع هو أن يحنث فى قسمه ويترك أخت ــ آتون، ولا يستطيع أن يرجع الى طيبة ، فالشعور هناك كان قد ازداد شدة ضده • ولكن عرشه أصبح فى خطر كما تحقق أخيرا ، ولهذا فان خير حل هو أن يزوج وارثة العرش ابنتهما الكبرى مريت آتون الى الشاب « سمنخ كارع » أحد ابنى أمنحوتب الثالث ، أخويه غير الشقيقين ، اللذين جاء بهما الى أخت ــ آتون مع أطفاله ، وأن يشركه معه فى العرش ، وبعد ذلك يرسلهما الى طيبة ليحاولا ترتيب الصلح مع حزب آمــون •

وسمنخ كارع شخصية غير هامة فى تاريخ تلك الفترة ، ولكن أختامه وأسماءه قد وجدت مع أختام وأسماء زوجته الوريثة مريت آتون كما وجدت له صورة فى طيبة تريه لنا ضعيفا فاترا لهذا لا يشبه فى شيء زوجتــه الصغيرة الممتلئة بالنشاط • ولم يحكم بمفرده أبدا كفرعون كما أن ما حدث له ولمريت آتون فى طيبة سيظل سرا • ونحن لا نعرف ان كان هذا العمل وهذه المحاولة للاتفاق التى ورط فيهـا ابنتهما المحبوبة الكبرى هو السبب فى التصـدع الذى نشـأ بين أخناتون ونفرتيتى • ونحن نعرف من نتائج الحفائر التى تمت فى تل العمارنة أنه ابتعد فى السنتين الأخيرتين من حكمه عن نفرتيتى وانفصل عنها • وتركت « عظيمة الأفضال ، سـيدة السعادة ، التى يبتهج من يسمع صوتها ، والتى تطيب قلب الملك فى منزلة زوجة الملك المحبوبة الكبرى » ، تركت القصر وذهبت لتعيش بمفردها فى الضاحية الشمالية من المدينة ولم يكن معها الا الأمير الصغير توت عنخ آمون الذى كان فى حوالى الثامنة من عمره • فهل نفيت الى هناك ؟ أو حددت اقامتها لمعارضتها الملك ؟ أم أنها ذهبت بمحض رضاها ، قائلة لنفسها انه غدر بها عندما ساوم بعقيدته ــ عقيدتهما ــ وعطل فـكرة « الحيـاة فى الحقيقة » ، وأنها سوف تبقى مخلصة لآتون الى آخر أيام حياتهما ؟ وربما ستظهر يوما ما بعض الوثائق الضائعـة ، الوثائق التى ستقدم لنا الحقيقة • وكل ما نعرفه هو أنها ظلت تعبد آتون الى النهاية • يدل على ذلك الرسـوم والخانات الملكية التى عثر عليهـا فى الضاحية الشمالية • ولكن اسم أخناتون قد محى منها ، كما محيت أيضا من بعض أعتاب منازل النبلاء الذين كانوا من أتباعها المخلصين وفى أجزاء أخرى من المدينـة بدأ اسم آمون وأسـماء الآلهة والالهات الأخرى تظهر من جديد على الخواتم والأختام • وقد أتلف ومحى عن عمد

اسم نفرتيتى وخاتها الملكية فى القصر الملكى وقصر البركة الجنوبية . وهى شواهد محزنة لشقائهما المحزن وانتهاء قصة غرامهما العظيم بهذه النهاية المحزنة .

***

وفى سنة ١٣٥٨ ق.م. مات أخناتون وكان منهوك القوى مريضا حزينا ، بعد أن حكم سبعة عشر عاما تقريبا .

ومن المحتمل أن مومياءه لم تدفن فى « مدفنه الذى فى الجبل الشرقى » خوفا من الاعتداء عليها ، ولكنها دفنت سرا فى المقبرة والتابوت اللذين كانا قد أعدا للملكة « تى » فى طيبة . ويمكن رؤية تابوته فى المتحف المصرى بالقاهرة واذا أمكنك حل النقوش الهيروغليفية أمكنك قراءة هذه العبارة المؤثرة « طفل آتون الحى الجميل الذى يحيا أبدا وهو الحقيقة فى السماء والأرض [1] » فهل كان ذلك هو آخر جميل قامت به نفرتيتى نحوه ؟ ان هناك ما يغرينا بالاعتقاد بصحة ذلك وعلى الأخص أن أعداءه كانوا يطلقون عليه « مجرم » أخت ــ آتون .

استمرت نفرتيتى تعيش هناك فى قصر الضاحية الشمالية من المدينة التى شيداها معا قبل ذلك بسنوات قليلة ، أما الصبى توت عنخ آمون ــ والذى كانت تطلق عليه هى بالطبع « توت عنخ

---

(١) اعتمدت الكاتبة فى سرد تاريخ هذه الفترة على مصادر قديمة لم تعد لها قيمة فى الوقت الحاضر . فالتابوت الذى تشير اليه قد اتضح انه تابوت سمنخ كارع وفى داخله جثته ، ولا علاقة له بأخناتون ، كما أنه من الثابت أيضا أن أخناتون لم يدفن فى مقبرته فى تل العمارنة ، ولا نعرف شيئا على الاطلاق عن نهاية نفرتيتى ومتى ماتت وأين دفنت . (المراجع)

آتون » فقد تزوج من الوريثة التالية ، ابنتها الثالثة عنخس ـ ان ـ آتون « انها تعيش لآتون » ونودى به فرعون . ولكنـه كان صبيا صغيرا فى العاشرة من عمره وتحت سيطرة موظفى البلاط الذين دبروا أن يعود الى طيبة بمجرد أن تموت نفرتيتى وتصبح مرة أخرى العاصمة الفخمة للصعيد والدلتا .

أما نبـلاء أخناتون المقربون وأتباعه الذين عاملهم بكرم شديد وكافأهم على ما أبدوه من اخلاص وتحمس لعقيدة آتون ، الرجـال الذين طالمـا ابتهلوا بما هو معروف عن رجـال البلاط من مبالغة أن أخت ـ آتون يجب أن تظل ثابتة حتى يصبح الأسود أبيض والأبيض أسود ، والى أن تتحرك الجبال من رواسيها ، « قد تآمروا وقتئذ ليأخذوا ثرواتهم ويغادروا أخت ـ آتون الى الأبد ويقضـوا على عقيدة آتون أينما ظهرت .

ولم يكن الملك الصبى وزوجتـه الصغيرة سوى ألعوبتين فى يد غيرهما . وعندما تموت صاحبة الجلالة وتموت معها ارادتها الحديدية وولاؤها وصـادق اخلاصها لعقيدتها ولذكرى زوجهـا ويزول أثر نفوذها عنهما ، فسـوف يكون فى استطاعتهم أن يحملوا الطفلين على تنفيذ مشيئتهم .

وهـذا هو ما حدث . فبعد وفاة نفرتيتى أخذوا توت عنخ آمون وعنخس ـ ان ـ آتون الى طيبة فى موكب فخم ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كهنة آمون مرة أخرى ينشدون الأناشيد القديمة فى المعابد العظيمة بالكرنك والأقصر وأرغموا توت عنخ آمون على أن يتبرأ من عقيدته آتون .

ونهبت القصور ومنازل النبلاء فى أخت ـ آتون ، وكل من كانت

لديه وسيلة للسفر عاد الى طيبة أو الى منف أو حيثما كانت مساكنهم الأصليـــة ، وأخذوا معهم كل أمتعتهم • وقد بقى الفلاحون ليزرعوا الحقول ، كما تمهل الصناع وأصحاب الحرف الى أن انتهت مصادر أرزاقهم ثم ارتحلوا بدورهم •

وبقيت المدينة المتشامخة المليئة بالحياة مكشوفة لأشعة آتون الهها وظلت مكشوفة أيضـــا لعواصف الرمال ولرياح الصحراء السريعـــة وللحيوانات المفترسة والطيور الجارحة والحشرات والزواحف •

ثم تساقطت أبنيتها وطغت عليها الرمال وظلت منسية الى أن عثرت الفلاحـــة العجوز وهى تحفر الأرض من أجل السباخ على الألواح المدفونة ، ووصلت الى أوربا رأس نفرتيتى الملونة لتبهر العالم بجمال ملكة نسيها الناس منذ عهد بعيد •

كليوباترة العظمى



كانت بقعة ساحرة تلك التى نشأت فيها ، هذه المدينة الفخمة التى بناها الاسكندر قاهر العالم ، والتى تمتد على الشواطىء الصخرية للبحر الأبيض المتوسط ، والى الخلف منها النيل العظيم وكل ما حوته مصر من ثروة وفخامة قديمة . هذا ما كانت تفكر فيه فتاة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها ، كانت تعيش حينذاك بالقصر الملكى فى برخيون وهو الحى الملكى بالاسكندرية وهى تنظر الى المياه المتلألئة والى السفن وهى تتأرجح فى مراسيها أو وهى تسير الى داخل الميناء الكبير ، سفن ذات أشرعة عديدة مجهزة ببحارة من بلاد اليونان وروما ومقدونيا وقبرص وسوريا ومن برقة ومن فينيقيا تلك البلاد التجارية القديمة .

وكان فى استطاعة كليوباترة ابنة ملك مصر بطليموس الحادى عشر ، أن تراقب أيضا ، من المكان الذى كانت تجلس فيه السفن التى تدخل أو تخرج من الميناء الغربى « ميناء العود الحميد » ، بشحناتها من منتجات مصر التى وصلت على السفن عن طريق النيل ذلك الشريان الرئيسى ، ثم بوساطة قناة الى ميناء داخلى على الجانب الآخر من المدينة وهو الجانب الذى يواجه بحيرة مريوط ، وكانت هذه المنتجات من الكتان الرقيق ، والبردى ، والحبوب والذهب .

وقد أحبت كليوباترة أكثر من كل ذلك ، العطور والزيوت العطرية والتوابل واللآلىء والجواهر والأقمشة الحريرية التى كانت

تجلب الى المدينة من البلاد البعيدة مثل الهند والصين وبلاد العرب والصومال أو بونت ، التى أرسلت اليها حتشبسوت بعثتها •

وكان يقوم بهذه التجارة الشرقية ، التى تحتاج الى المخاطرة ، بحارة من الاغريق والفينيقيين الذين كانوا خبيرين بأمور الملاحة فى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى الخطرة ، مستخدمين الرياح الموسمية التى تسود فى أوقات معينة من السنة • وهى معلومات قد عرفت وظلت تتزايد بشكل أكثر فى العهد الرومانى الذى أتى بعد ذلك بربع قرن • وكانت أساطيل السفن تتجمع فى أحد موانى البحر الأحمر على الشاطىء المصرى القاحل ، وعندما تبدأ الرياح الموسمية ، تترك نفسها للرياح فتدفعها واحدة بعد الأخرى الى شاطىء الهند الغربى •

وهناك كان اليلفاناس ــ كما كان الهنود يسمون أهل الغرب ــ يقيمون فى مراكز تجارية أنشئت خصيصا لهذا الغرض ، ويتلقون البضائع الآتية اليهم من شمالى الهند وسيلان والصين ، الى أن تهب الرياح فى الاتجاه العكسى وعند ذلك يستطيعون الخروج الى عرض البحر والاقلاع غربا مرة أخرى •

وكانوا يفرغون شحناتهم الثمينة فى الموانى التى أقامها أسلاف كليوباترة : برنيكى ولويكى كومى وميوس هورموس ، على شاطىء البحر الأحمر ، ثم تنقل بالقوافل عبر جبال الصحراء الى النيل بطرق لاتزال القبائل البدوية تسير فيها حتى اليوم ، ثم تحمل فى النهر ذلك الطريق التقليدى القديم حتى تصل الى الاسكندرية ، لتزيد من ثروة البطالمة ورعاياهم وادخال البهجة عليهم •

ووجدت جميع منتجات العالم المعروف ، طريقها الى ذلك الميناء البحرى الذى كان فى الوقت ذاته عاصمة عالمية كبيرة ، حيث كان

الناس من أمم وعقائد مختلفة يتقاطرون ليشتروا ويبيعوا ويتاجروا ويحققوا أرباحا ، وكان يرحب ببقائهم بالبلاد ما داموا على استعداد لأن يحاربوا من أجل الملك اذا دعت الضرورة وما داموا يدفعون الضرائب المستحقة عليهم •

وكان يفصل بين الميناءين البحريين ، الجسر الطويل الممتد ، الهباستاديون الذى كان يربط فاروس بالأرض الرئيسية • وكان الشعراء يميلون الى التنزه فى هذا المكان ويستوحون أشعارهم فيه ، وكان الفلاسفة يأتون اليه ليستنشقوا الهواء قبل أن يقفلوا راجعين الى أكاديمية العلوم « الميوسيون » ليواجهوا من جديد طلابهم الكثيرى الصخب • وعلى طرف الجزيرة ، كانت تقوم المنارة التى بناها جدها بطليموس فيلادلفوس قبل ذلك بمائتى سنة لترشد السفن وهى داخلة أو خارجة من الميناءين •

ونظرا الى أن هذه المنارة قد أنشئت تكريما للآلهة الذين يحمون الناس ، فقد قامت هناك شامخة من أجل « مساعدة أولئك الذين يسافرون عبر البحار » وكانت ترتفع فى طبقات الى ما يقارب ستمائة قدم ، قاعدتها السفلى مربعة ولكنها تصبح أسطوانية الشكل عند القمة حيث يضىء المصباح فى الليل • وكان يمكن رؤية ضوئه الذى ينعكس بمرآة ضخمة من بعد ثلاثين ميلا فى البحر • وكان هناك منحدر حلزونى بداخلها لتصعد عليه الحمير حاملة الخشب الراتنجى الذى كان يستخدم فى الوقود • انها أول منارة فى العالم واحدى عجائب الدنيا السبع ! ولم تكن تعنى بالنسبة لكليوباترة الفخر لما أنجزته أسرتها من الأعمال العظيمة فحسب بل كانت تعنى الوطن أيضا ، كما كانت تعنى العزاء أيضا فى بعض الأحيان • والسبب فى ذلك هو أنه بالرغم من كل مظاهر الترف والجمال والقيم الحضارية

فى حياتها ، فقد كان من الأمور الخطيرة المقاء أن تولد كفرد فى أسرة البطالمـة ، ولابد أن كيلوباترة كانت تحسد أحيانا تلك الطمأنينـة المرحة التى كانت تظهر على الاسكندريات اللاتى كانت تراهن حولها عندما كانت تمر محمولة فوق محفتها خلال الشوارع المزدحمة وحولها عبيدها ووصيفاتها • ومن المحتمل جدا أن فتاة من فتيات الحى المصرى فى راقودة كانت أكثر منهـا راحة بال •• فقد كان المصريون يجلون ويحترمون نساءهم اللائى كن تحت حماية الآلهة ايزيس نفسها • وقد اعتبرت كليوباترة نفسها مصرية وقالت أيضا انها تحت حماية ايزيس ، كانت فى حقيقة الأمر اغريقية مقدونية من ناحية الأصل ومعرضـة لحسد ومكائد البلاط البطلمى •

ولاشك أنه من الحظ العاثر غير المـأمون أن يولد الانسـان عضوا فى هذه الأسرة الملكية الغريبة التى عاشت فى القرن الأول قبل الميلاد واذا حدث أنك ـ مهما كنت بريئا ـ تعترض طريق منافس مطالب بالعرش ، أو سمحت للمربين السيئين والأصدقاء أن يؤثروا عليك فى لعبة مؤامرات القصر فقد تختفى تماما فى احدى الليالى دون أن يسمع لك صوت أو تخلف أثرا وتقتل فى فراشك بأيدى أقربائك ، أو مأجوريهم •

وعندما كانت عينـا كليوباترة تتطـلع متنقلة على الدرج الذى يؤدى من القصر الى الميناء الخاص أخذت تتساءل عما تخفيـه مياهه الزرقاء الهادئة من أسرار اذ اختفى بهذه الوسيلة أمير بعد أمير بل وأميرات أيضا من أسر البطالمـة ، وبدت كما لو أن القدر المؤلم قد قضى بأن يقتل أفراد هذه الأسرة بعضهم بعضا جيلا بعد جيل ـ انها لعنة شديدة •

ولحسن حظ كليوباترة كانت هى الطفلة الثانية لأبيها الملك .

وكانت أكبر الأسرة فتاة أيضا ، تدعى برنيكى ، وقد كانت معرضة للخطر أكثر منها ، وكذلك أخواها الصغيران وكان كل منهما يسمى بطليموس • وكانت توجد أخت أخرى ولدت بين كليوباترة والصبيين هى أرسينوى •

وكانت كيلوباترة تكره أرسينوى ولكن بدرجة أقل مما كانت تكره الجميلة برنيكى التى كانت تعلم أنها محبة لتدبير الأمور وطموحة ولا يوثق بها • ولم تكن مظاهر حب الأخوة والأخوات من المظاهر القوية فى أسرة الملك بطليموس الحادى عشر الملقب بالزمار ، فقد كان لجميع الملوك البطلميين أسماء تهكمية ، أطلقها عليهم رعاياهم الساخرون المحبون للنكتة وكان والد كليوباترة يحب العزف على الناى ولهذا أصبح لقبه « أوليتس » أى الزمار •

وكان لكليوباترة قلب حنون ، على العكس من أخوتها وأختيها ، قلب قادر على الحب العميق والاخلاص الصادق • وقد أراد لها دمها المقدونى ، أنه بالرغم من فساد البلاط والعصر الذى عاشت فيه ، والنقص فى التعليم الأخلاقى فى تربيتها ، أن تكون زوجة مخلصة ، وقد كان النساء من جنسها يفخرن باعتزاز بأنهن يمنحن أنفسهن لكل انسان ، ومن جميع الأنواع •

وكان لها عقل راجح أيضا ، بل كانت أحسنهم تفكيرا ، وما أحوجها لاستخدام هذا العقل فى السنوات القادمة ، ولم يدرك هذه الحقيقة سوى أبيها فقط بين فترات شرابه وملذاته ، وقلقه المستمر من ناحية دائنيه الرومان ولم يكن عزفه على الناى حول القصر الا نوعا من التهرب من همومه •

وكان البطالمة قد حكموا مصر نحوا من ثلاثمائة عام تقريبا ،

ومضى أكثر من ألف سنة منذ الوقت الذى عاشت فيه نفرتيتى وهجرت مدينة أخت ـ آتون ونسيها الناس • وخلال هذا الوقت كانت عظمة مصر كامبراطورية ، قد عادت مرة أخرى تحت قيادة العبقرية الحربية لفراعنة الأسرة التاسعة عشرة من أمثال رمسيس الثانى والثالث • ولكنها انهارت بعد ذلك عندما تمكن الفرس من دخول مصر واستطاعوا أن يحولوا الصعيد والدلتا ، الوجهين القبلى والبحرى الى ولاية فارسية •

ودنسوا الكثير من المعابد القديمة ، بل وهدموها أيضا وحطموا وشوهوا التماثيل التى كانت فى هياكلها الداخلية ، وعانى الناس فى صمت من نير الحكم الفارسى ، وكرهوا سادتهم الأجانب ، كما سبق أن كره أجدادهم ، الهكسوس الذين لم يسلبوا بلادهم فحسب بل وحرموا عليهم ما يرجونه من عزاء وراحة عند عبادة آلهتهم •

وظهر بعدئذ حدث جديد • فقد خرج الى مسرح العالم بطل أبيض اللون مجعد الشعر من امارة صغيرة فى الغرب تعرف باسم مقدونيا واجترأ على أن يتحدى الامبراطورية العظيمة لملك الملوك الفارسى داريوس : داود يتحدى جالوت •

ووصل الاسكندر الى مصر عام ٣٣٢ ق•م• ولم تكن معه الا قوة صغيرة هزم بها الحامية الفارسية التى كانت تعسكر على الحدود فى مدينة بلوزيوم (١) ثم سار الى منف التى كانت فيما مضى عاصمة الدولة القديمة ، والتى أصبحت مدينة هامة مرة أخرى بعد انهيار طيبة، وبدلا من أن يسلب المعابد ويقتل من بقى من الكهنة ، فانه قدم

---

(١) بلوزيوم كانت اول المدن المحصنة على حدود مصر الشرقية ، وهى مدينة الفرما فى الكتب العربية ، ومازالت خرائبها موجودة حتى الآن وهى على شاطىء البحر على مسافة ثلاثين كيلو مترا على وجه التقريب شرقى بورسعيد . (المراجع)

احتراماته لآلهة هذه البلاد وقدم القرابين على مذبح العجل المقدس آبيس رمزا لشكره له لأنه أمده بالنصر . وبعمله هذا كسب الاسكندر قلوب المصريين المكتئبين . ورحبوا به باعتباره منقذهم وحاكمهم المقدس ، الههم الحى كما كان فراعينهم .

ولم تكن لدى الاسكندر أى رغبة فى اتخاذ منف أو طيبة ، التى كانت فى داخل البلاد على بعد ألف ميل نحو الجنوب ، عاصمة له . لقد كان من عالم آخر ، عالم البحر الأبيض المتوسط . فبنى مدينة جديدة تحمل اسمه وجهها نحو البحر المتوسط وقدماها فى مصر عسى أن تربط بين الشرق والغرب وتتحكم فى تجارة العالم .

ولهذا السبب سار شمالا الى بحره الذى يعرفه ، وهناك وجد مكانا ملائما فى أرض رملية محاطة بخلجان صخرية وموان طبيعية بينها وبين الأرض الداخلية وتحدها نباتات البردى وبحيرة مريوط (التى أراد أن يصلها بالنيل بواسطة قناة) فاستدعى اليه مهندسه الاغريقى، دينوكراتس ، وأمره أن يصمم ويشيد فى هذه البقعة مدينة ، من أجود الخامات التى كانت ميسورة له (١) .

وأحسن دينوكراتس بناءها.ولكن الاسكندر لم ير مدينته التى حلم بها بعد أن أصبحت حقيقة واقعة ، فقد شاء له القدر أن يعود اليها وهى مسجى فى تابوته الذهبى بعد أن مات بالملاريا عقب حملته على الهند ، ليدفن فى الضريح الذى أقيم له فى وسطها . وقد قام قائده المقدونى ، بطليموس ، الذى كان الاسكندر قد عهد اليه بحكم البلاد باسمه بالاحتفالات الجنائزية ، ونودى به بعد ذلك ملكا على مصر

---

(١) كانت توجد بلدة قديمة تسمى « راقودة » ورد ذكرها على الآثار المصرية منذ الدولة الحديثة فى المكان نفسه الذى شيدت فيه الاسكندرية . ولهذا لا يمكن القول ان الاسكندر او مهندسيه اكتشفوا موقعها ؟ وانه لم تقم بها مدينة اخرى من قبل . (المراجع)

وأصبح يسمى بطليموس الأول سوتر « المخلص » فرعــون الصعيد والدلتـــا .

وقد شيد بطليموس سوتر أكاديمية العلوم الشهيرة «الميوسيون» كما شيد مكتبتها التى كانت تضم نصف مليون بردية ، لقد كانت مكتبة الاسكندرية منذ ٢٢٠٠ سنة أشبه شيء بمكتبة المتحف البريطانى فى أهميتها وكثرة ما فيهـــا من كتب ، وهنـــا كان الفلاســـفة والعلمـــاء والجغرافيون والمؤرخون وعلماء الرياضيات ، يدرسون ويدرســـون للطلاب . وكان من بينهم اقليدس الشهير ، وفى هذه المكتبة تعلمت الفتاة كليوباترة ــ التى كانت من نســـل بطليموس سوتر ــ الحكمة والأدب الاغريقى وأتقنت عدة لغات بما فيهـــا لغة مصر القديمة (١) ، فكانت أول حاكم من أسرة البطالمة يتيسر له ذلك .

ويفصل بين كليوباترة وبطليموس الأول ثلاثمائة سنة من الحكم البطلمى على مصر ذلك الحكم الذى كان بعضـــه خيرا وبعضه شرا . وكان الملوك والملكات من البطالمـــة ، أجانب عن البـــلاد . وكانوا يتكلمون الاغريقية فقط وبالرغم من أنهم لم ينهبوا البلاد ويخربوها كما فعل الفرس ، بل جمعوا بين عبادة آلهتهم وعبادة آلهة مصر وحموا كهنتها ، فقد ظلوا اغريقـــا مقدونيين وكانت عاصمتهم الاســـكندرية « على مقربة من مصر » وليست فى مصر نفسها ، كمـــا كانت منف وطيبة ، وكالقاهرة العاصمة الاسلامية الحالية . وقد حفر البطالمـــة القنوات وضبطوا فيضان النيل السنوى حتى يتيسر رى مساحات أكبر من الأراضى حتى يزداد المحصول وأصلحوا المعابد القديمة وبنوا معابد جديدة جميلة لأنفسهم على طول مجرى النيل فى المناطق المقدسة . وزادوا من تجارة مصر مع العالم الخارجى زيادة عظيمة وخاصة مع

---

(١) من الأخطاء الشائعة وصف اللغة المصرية القديمة بالهيروغليفية ، فالهيروغليفية هى مجرد خط كانت تكتب به .

الشرق وبلاد البحر الأبيض وفتحوا نافذة على عالم وادى النيل القديم المغلق لتهب من خلالها التيارات الجديدة لفكر وحضارة الاغريق .

على أنهم قد أثقلوا أيضا كاهل الشعب بالضرائب وعينوا موظفين من الاغريق فى المناصب الهامة فى طول البلاد وعرضها ، وكان ذلك سببا فى قيام الكثير من الثورات ضد حكمهم وخاصة فى الصعيد . وكان من الممكن أن يعيش المصريون والاغريق جنبا الى جنب ، ولكنهم ظلوا متباعدين نتيجة للريبة والازدراء ، نتيجة لموقف الملوك البطالمة الذين لم يستطيعوا أن يصبحوا مندمجين فى البلاد اندماجا تاما ، وكان الاغريق يزدرون المصريين وانزوى المصريون منطوين على عباداتهم السرية وأسرارهم الغامضة .

وبالرغم من أن الكهنة كانوا يلقبون أسلافها بلقب الفراعنة ويبتهلون اليهم بخشوع فى الاحتفالات المقدسة ، فان كليوباترة كانت البطلمية الوحيدة التى آمنت فى اخلاص بآلهة البلاد . أما الآخرون فكانوا يكتفون بالقول فقط دون أن يؤمنوا بما يقولونه . وفى أثناء حكم أبيها بطليموس الحادى عشر ، كانت مصر على صلة بجمهورية روما التى كانت نجم قوتها يزداد تألقا ، وقد كانت هذه الصلة على أساس أن مصر دولة صديقة وكانت روما تسمح لملكها أن يحكم لأنها لم تكن مستعدة لأن تلتهمها بعد ، وكان هذا الوضع غصة فى حلق العازف على الناى بل وشوكة فى جانب ابنته الثانية كليوباترة التى كانت مقتنعة بأنها من النسل المقدس للالهة ايزيس والتى أحبت مصر واعتبرت نفسها وريثة لسحرها وجلالها القديم .

وكثيرا ما كانت تذهب فى طفولتها ، كأى فتاة مصرية أخرى ، لتتعبد فى هيكل هذه الالهة التى كانت على المرتفع الصخرى بالقرب

من القصر . وهناك كانت الأمواج تتضارب وتتصارع مثلما يدق قلبها، وهى تسأل ايزيس أن تحميها ضد الوشاية والغيرة والدسائس القتالة.

وكثيرا ما كانت تذهب فى السنوات الثلاث الأخيرة ، الى كهف ايزيش أكثر من ذى قبل . وعندما كانت فى الحادية عشرة من عمرها ، وكانت برنيكى أختها فى الثامنة عشرة ، كان على أبيها أن يفر هاربا من المدينة يطارده رعاياه الحانقون الذين استاءوا من الضرائب الجديدة التى فرضها عليهم ليدفع لروما ديونه المتضخمة .

وترك كليوباترة وبقية أسرته بالاسكندرية غير مطمئنين الى مصيرهم ، بينما أقام هو فى روما ، كملك لاجىء ، محاولا أن يسترد مملكته بما كان يعد بدفعه من كنوز البطالمة التى جمعها أجداده على مر القرون . وان فى استطاعة روما الاستيلاء على مصر بسهولة ، وكانت كليوباترة تعرف ذلك ، ولكن عندما يكون مثل هذا العمل فى مصلحتها وميسورا لها ، وكان تصلى للالهة ايزيس وقلبها يحس بالذل والغضب وعدم الطمأنينة ، لتحمى بلادها اذ كانت تحس فى نفسها بايمان وحب عميق لم يتغير لمصر وأهلها ، وقد بادلها المصريون هذه العاطفة وحفظوا لها جميلها وردوه فى السنين التالية .

وكانت هذه الفترة فترة محيرة بالنسبة لكليوباترة . فقد ظهرت برنيكى الجميلة فى صورتها الحقيقية . فقد ساعدها الحزب الاسكندرى ، الذى حرض الغوغاء ، والاسكندريون دائما جمهور سريع التهيج يلتهب بسهولة هستيرية وضعيف متقلب كزغب العوسج ، ليطردوا أباها من المدينة . واستولت على عرشه وأعلنت نفسها الملكة برنيكى الرابعة .

ولم تعرف كليوباترة ما الذى تفعله ازاء ذلك . انها لم تحب أباها

بنوع خاص ولكنها مخلصة لفكرة الملكية • وان تصرف أختهـا ليس الا اغتصابا للسلطة وأيقنت من اداتها ، ولكن فطنتها جعلتها تخفى مشاعرها الحقيقية ، وبعلمها هذا تعلمت درسها الأول فى النفاق عند الدفاع عن النفس وتستطيع أن تتخيلها وهى تقول « اننى طالبة علم ومشغولة بتعلم لغة جديدة وأدرس الفلسفة والرياضيات ، ولا تهمنى السياسة فى شىء » تتخيلها تقول مثل هذا الكلام فى القصر ولاشك أن طبيبها المخلص لها أوليمبوس كان يتولى ترديد هذه الأقوال لتنتشر بين الآخرين •

وهكذا تظاهرت كليوباترة ، وهى لاتزال طفلة لم تكد تبدأ سن المراهقة بتجـاهل الأحوال الجارية وأنها تشغل نفسها فى الدراسـات كالمستر جلات وأصبح بعض مشـاهير العلمـاء فى ذلك العهد مثل فيلوستراتس الفيلسوف والعضـو فى أكاديمية العلوم من أصدقائها المخلصين وأهدوا كتبهم اليها •

وهكذا مرت الشهور العصيبة الى أن جاءت أخيرا أنباء للأسرة، أنباء حسنة بالنسبة لها ، ولكنها أنباء كئيبة بالنسبة لبرنيكى وأصدقائها فقد كانت روما تحتفل بتنصيب القيادة الجمهورية الجديدة للحـكم الثلاثى المكون من يوليوس قيصر ، وبومبى ، وكراسوس ، وأن مجلس الشيوخ قد آزر أباها المنفى وأن القائد العظيم جابنيوس مسـاعد بومبى كان فى طريقه فعلا الى الاسكندرية ليعزل الملكة المغتصبة ويعيد أباها الى عرش مصر •

وكان ذلك فى العـام الرابع والخمسين قبل الميـلاد ، وكانت كليوباترة فى الرابعـة عشرة من عمرها ، وقد انتهت أيام طفولتهـا وأوشكت قصة حياتها أن تبدأ وأعد المسرح للفصل الأول •

***

كانت أصوات الترحيب تقترب عندما كانت الجماهير ترافق الفرقة العسكرية من البوابة الكانوبية الى القصر ، وكان الذين طاردوا أباها الى خارج المدينة منذ ثلاث سنوات ونادوا بابنته الكبرى ملكة مكانه ، هم أنفسهم الذين كانوا يحتفلون اليوم بعودته ورجوعه الى عرشه ، أما برنيكى فقد هربت .

وأدركت كليوباترة عندما أصبحت الجماهير على مرأى منها ، أن تلك الجماهير كانت تحيى عرض الرومان لمظهر سلطانهم ، أكثر مما كانوا يحيون أباها . وكان الضباط الرومان يسيرون أمام جابنيوس ليظهروا سلطته الرسمية نيابة عن حكومة روما لتنصيب الملك بطليموس مرة أخرى على العرش . وكان الجنود الرومانيون ذوى وجوه جامدة وشفاه رقيقة مطبوقة ويسيرون بدقة آلية ونظام كامل مما بهرها وأدخل الروع فى قلبها .

وكان يجلس الى جوارها أرسينوى وأخواها الصغيران ، وقد استطاع الأولاد بصعوبة أن يتمالكوا أنفسهم من الاضطراب . ولم يكن هناك حب على الاطلاق بين كليوباترة وأرسينوى ولم يكن قليل من الحب بين كليوباترة ذات القلب الدافىء وبين أخويها الصغيرين بسبب ضعف شخصيتهما ، على العكس من شخصيتها التى تفيض بالقوة والاستقامة . وفضلا عن ذلك فقد باعدت بينهم دسائس القصر الى حد كبير . وكان بوثينوس معلم الأولاد والذى كانت له سلطة كاملة عليهما ، يكرهها وكانت هى تبادله تلك الكراهية من كل قلبها . وكان هو وزملاؤه من بينهم آخيلاس قائد الحرس يؤلفون حزبا خطرا معاديا لها وجعلوا التعاطف الطبيعى والثقة مستحيلة بين الأخت والأخوين الصغيرين .

وكانت تجلس فى ذلك المكان وهى غير عالمة بأن تقرير مصيرها

كان قريبا منها ، ولم يكن ليدور بخلدها أنها ستضطر يوما ما لأن تحارب أصدقاء أخويها ومستشاريهما الأشرار حربا حتى الموت ، وأن الولدين سيضلان بسببهم وسيكونان مجرد ألعوبتين فى يد غيرهما .

وفى هذه اللحظة لاح لناظريها أبوها والقائد الرومانى ، وكان يسير خلف جابنيوس ذى النظرة النبيلة الصارمة ، عملاق ، عملاق باسم صغير السن له شعر أشقر وعينان زرقاوان واسعتان فى وجه مليء بالحيوية والدفء . وكان قويا جدا وكانت تستطيع أن تستشف ذلك من عضلاته التى لم تخفها النقبة الرومانية القصيرة ومن ذراعيه اللتين لم تكن يغطيهما رداؤه الرومانى الذى رمى بطرفه فوق كتفه دون مبالاة . وألقى نظرة عليها وهى تجلس مع وصيفاتها اللاتى كن يتحدثن بصوت مرتفع ، وكن فتيات صغيرات مثلها . ثم نظر بعد ذلك الى أرسينوى .

وكانت كليوباترة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وكانت طالبة علم تتكلم لغات عدة ، ومغرمة بالفلسفة والرياضيات والشعر ، فتاة نشأت فى مدينة كانت تعبد الالهة أفروديت الهة الحب وتناديها باسمها المصرى حتحور ، وكانت عبادتها تمثل اندماج العقائد المصرية القديمة والعقائد الاغريقية ، ولا تكترث بأى نظام خلقى أو قانون للفضائل ، لقد رأت تلك الفتاة مارك أنطونيوس . فماذا كانت أفكارها ومشاعرها ؟ هل وقعت فى غرام العملاق الأشقر الذى كان جنده يعشقونه ؟ أم أنها لاحظت علامات الضعف من شكل ذقنه وانغماسه فى الملذات من شكل فمه ؟

اننا لا نعرف . ولكن من المحتمل أنه فى الوقت الذى كانت تعجب فيه بطلعته الوسيمة ، وبكل سحر روما القوية الذى يكمن وراءه ، أحست أنها أرفع منه منزلة وأنها أقوى الاثنين . وبينما كانت تراقب

الموكب ، نستطيع أن تتصورها وهى تدير حول اصبعها الخاتم الذى كان مركبا فيه فص من الأمايتست (حجر الجمشت) وعليه صــورة اله الخمر ، وحكمة تقول « ان السكر عبد للصحو » •• فقد كانت تعرف كيف يمكن أن يشرب الرجال الأشداء المملوءون حيوية مثل هذا العملاق الذى يسير أمامها • لقد كان جدها وأبوها متحمسين للاله ديونيسوس ولن يشذ هذا الرومانى عنهما • ولكن الرمز السرى الذى ترتديه دائما كان يذكرها بأنها كانت صاحبة الأمر على الهة الخمر وصاحبة الأمر على السكارى •

انه مازال ينظر الى شقيقتها ــ كلا ليس الى أرسينوى ولكن اليها هى الآن وانها لنظرة لها قيمتها ، نظرة عمت جسمها الممتلىء ، وما فيه من اغراء وهى ترتدى الرداء الهللينى البسيط الزينة ، وعينيها الرماديتين اللتين أطالتهمــا بالكحل على الطريقــة المصرية وشــعرها الكستنائى المموج وبشرتها الذهبية •

ربما كانت الفتيات الرومانيات أكثر جمــالا فى تقاطيع وجوههن وربما كن أكثر طولا ولكن عينى هذه الفتاة كان فيهما اغراء ودعوة وفيهما بريق من نار فى داخــل نفسها • ولم يكن باستطاعته أن يسمع صوتها ، مبعث جاذبيتها العظمى ، ولكنه استمر فى طريقــه وهو ينظر اليها ثم وصفها فيما بعد بأنها « زهرة يانعة » •

وكانت الجماهير تهدر فى أثناء مرور الفرق الرومانية • لقد عاد بطليموس الحــادى عشر « الزمار » الى عرش مصر باذن كريم من روما • على أن الشىء الذى كان أكثر خطرا فى مستقبل الأيام هو أن مارك أنطونيوس رأى كليوباترة ووجدها جميلة •

❊ ❊ ❊

ولم تكن السنوات الثلاث التالية بالنسبة الى بطليموس أوليتيس سنوات سعيدة فبالرغم من أنه عاد الى العرش ، فانه لم يجلس عليه باعتباره فرعون عظيما ، له كيان مستقل عن الجميع ، ولكنه تولاه بفضل الجمهورية الرومانية • وكان عليه أن يتقبل الاهانة بقبوله تعيين مفتش رومانى للضرائب يرأس مفتشه المصرى وكان الجند الذين تركهم جابينوس للمحافظة على هدوء سكان الاسكندرية ، بمثابة جيش احتلال صغير • وبالرغم من أنهم سرعان ما انغمسوا فى ملذات المدينة المترفة ، فان كل انسان كان يعرف أنهم كانوا فى مهمة يؤدونها فى تلك المدينة •

فاذا شاء قيصر أو بومبى أن يخلعه عن العرش ـ كما أراد كراسوس عضو الحكومة الثلاثية الثالث أن يفعل ذلك من قبل ـ فلم يكن هناك ما يحول دون تنفيذ مشيئتهما • وكان ابناه مجرد طفلين ، وكانا واقعين تماما تحت نفوذ مربيهما بوثينوس وثيودوتس ، ولم يكن لهما أى قيمة أكثر من كونهما صغيرين لا قيمة لهما فى معارك ودسائس البلاط ، ومع ذلك فقد حتم القانون المصرى بأن يعلن أحدهما وليا للعهد ويتزوج من الوريثة للعرش ، يتزوج أخته الكبرى ليتولى العرش بعد ذلك بصفة شرعية •

وكانت برنيكى قد ماتت اذ ذاك ، اذ نزلت بها أقصى عقوبة توقع على شخص لعدم ولائه ، ولهذا كانت كليوباترة هى الوريثة • وكانت هى الوحيدة فى أسرته التى تستطيع بما لها من همة وشجاعة هادئة وعقل راجح ، أن تتغلب على روما • وكان يعلم أنها تستطيع أن تحكم مصر بمفردها ، وأن أهل الاسكندرية سوف يمنحونها اخلاصهم وولاءهم لانهم كانوا ذوى مروءة ونخوة تجاه ملكاتهم أكثر منهم تجاه ملوكهم • ولكن روما لن تعترف أبدا بامرأة كحاكم بمفرده ، وكان

الحل لذلك الاشكال هو أن تنصب كليوباترة وأكبر الولدين شريكين فى الملك وأن يصـدر أمر رسـمى بأن يتزوجا ، وذلك ارضاء لشعور رعاياهم المصريين •

وكتب بطليموس وصيته سرا ، وجعل مجلس الشيوخ الرومانى منفذا لتلك الوصـية اذ أن احترام الرومان للقـانون كان مضرب الأمثال ، وأودع تلك الوصية مع كاهنات المعبد اللاتى أقسمن ألا تفض أختامها الا بعد وفاته •

كانت هذه السنوات بالنسبة الى كليوباترة مريرة ومقلقة • فقد ذهب مارك أنطونيوس منذ زمن بعيد ولم يترك فى مخيلتهـا سوى ذكرى باهتة وأصبح والدها ، نظرا لمركزه المتأرجح ، انسانا يتهرب من المسئولية أكثر من قبل • وكان عزفه على الناى يزداد حزنا مع مرور الأيام • وكانت صحته آخـذة فى الانحطاط وأخـذ يفرط فى الأكل والشراب • وكان جليا أن الحياة أخذت تسيل من جسـده قطرة بعد قطرة ، فما الذى سيحدث لها عند موته ؟ ربما كان فى صـالح معلمى أخويها وآخيلاس قائد حرس القصر الذى كان الجيش من ورائه ، أن يتخلصوا منهـا وعلى هـذا يستطيع أكبر أخويهـا الذى كان يسمى بطليموس أيضا ، وكان شخصا ضعيفا يسهل خداعه أن يحكم بدون أن تتدخل أخته المتوقدة الذهن فى شىء • ولكن كان يتحتم عليها أن تخفى هـذه الهموم وأن تتصنع راحة البال التى لم تكن تحس بها فى حقيقـة الأمر وأن تتظـاهر بأنهـا تستمتع كل الاستمتاع بالأعيـاد والاحتفالات التى كان يقيمها الشعب المحب للمسرات فى داخل المدينة وعلى شواطىء بحيرة مريوط حيث كانوا يذهبون الى هناك فى سفن مزينة بالأنوار وتصدح بها الموسيقى والأغانى طوال الليل المصرى ذى النسيم العليل •

وأخيرا توفى أبوها بطليموس وكانت فى الثامنة عشرة وكان أخوها بطليموس فى العاشرة • وجاءوا بوصيته من محراب المعبد وكسروا أختامها وقرءوها • وكان على كليوباترة أن تتزوج أخاها الأكبر بطليموس وأن يحكما معا تحت اسم كليوباترة السادسة وبطليموس الثانى عشر ملكى مصر • ونص فى الوصية قائلا « اننى استودع باحترام هذين الاثنين فى حماية الشعب الرومانى النبيل » •

ومهما يكن من أمر مشاعر بوثينوس وثيودوتس وآخيلاس نحو هذه الوصية فانهم كانوا مضطرين لأن يخفوا مشاعرهم وقتذاك اذ أن الجند الرومان كانوا هنالك لينفذوا وصية الملك الراحل • وتزوج الشابان الصغيران طبقا للطقوس المصرية وتوجا بالتاج المزدوج لمصر العليا ومصر السفلى ورضى بهما الكهنة والشعب كحاكميهم المقدسين• وقدمت القرابين فى جميع المعابد القديمة فى جميع أنحاء البلاد ، وولد أمل جديد بأن يكون الروجان الصغيران منقذيهم من الحكم الأجنبى•

ولا نعرف الا القليل جدا عن حياة كليوباترة فى السنتين التاليتين، على أنه من السهل أن نخمن وجود مكائد ودسائس كانت تحلق فى القصر وكانت تفرق بين الملك الشاب وبين ملكته وزوجته التى تكبره سنا ، فسممت تلك الدسائس أفكاره ضدها ، ووافق فى آخر الأمر على تآمر بوثينوس وثيودوتس ليخلعاها عن العرش ، واندس أعوانهما سرا بين جماهير أهل الاسكندرية فى الطرقات والأسواق يبذرون بذور الكراهية والشك •• ان كليوباترة كانت عميلة مؤتمرة بأمر روما •• وسوف تبيع الاسكندرية ومصر بأجمعها الى قيصر •• انها فاسدة •• وشرهة لجمع الثروة •• وسوف تزيد الضرائب •• انها تتمنى موت أخيها واغتصبت سلطاته الشرعية •• هكذا أخذوا يملئون آذان الشعب بكل فرية يتفتق عنها ذهنهم وكل ما كانوا يظنون أنه أكثر تأثيرا •• كما أخذوا يدسون الذهب فى أيدى أفراد الشعب أيضا ٠

وذات يوم ، استيقظت كليوباترة لتجد نفسها هدفا لجماهير متهكمة غاضبة مهددة تطالب بتنازلها عن العرش ، ولاشك أنها قابلتهم بشجاعة ، ولكنهم كانوا أقوياء جدا بالنسبة لها وكان عليها أن تهرب من المدينة مثلما فعل أبوها قبل ذلك • وكان عليها أن تغادر لأول مرة فى حياتها مدينة الاسكندرية موطنها الذى تحبه • وتركت زوجها الصغير الذى كان زوجا بالاسم فقط ومستشاريه الدهاة وفى يدهم سلطان الحكم •

ولكن كليوباترة لم تكن عبثا وريثة لعرش الفراعنة ومن تتجسد فيها ايزيس على الأرض كما كانت تعتقد فى نفسها منذ أن أصبحت ملكة •

واستطاعت أن تدبر الهرب الى سورية وهناك جمعت جيشا وعادت الى مدخل مصر ، الى حصن بلوزيوم الذى لم يكن يقع بعيدا عن مجرى قناة السويس الحالية وهنالك انتظرت لتنشب المعركة بينها وبين بطليموس • ويروى التاريخ قصة معارك عديدة شهيرة لم تقع أبدا بالرغم من التأهب والاستعداد والعتاد الحربى الكامل التى أعد لها ، وهذه المعركة واحدة منها ، وتدخلت روما مرة أخرى ، اذ أن الخيوط المتشابكة لمصيرى مصر والجمهورية الرومانية قد ازدادت تشابكا أكثر من ذى قبل •

كان الحسد والتنازع سببا فى فصم عرى الحكومة الثلاثية ، وما أن عاد يوليوس قيصر الى روما من حملاته الخارجية ، حتى التحم فى نضال مميت مع بومبى من أجل السلطة • وهددت المنافسة والحرب الأهلية بين الرومانى والرومانى بحلول كارثة ، اذ أنها لايمكن أن تنتهى الا بالقضاء التام على واحد منهما •

وفى موقعة فارسالوس عزف جيش بومبى عن مقاتلة أخوته فى السلاح فحلت ببومبى هزيمة ساحقة بدلا من النصر الذى كان واثقا من الفوز به والاحتفال به بلبس أكاليل الريحان وتقديم الخمور •

وبينما كانت كليوباترة فى الناحية الأخرى من البحر المتوسط ، تستعد لملاقاة أعدائها عند بلوزيوم ، فر بومبى من أرض الموقعة وهرب فى سفينة ، وقد أصبح شخصا مضيعا تخلى عنه أصدقاؤه القدماء ، وكان يريد اللجوء الى أى مكان ولكن الى أين يذهب لينشد الأمان والحمايــة ؟ •

وكان هناك مكانان محتملان ، افريقيا ومصر • وكانت افريقيا أكثر بعدا من روما ولكن بومبى كان لا يميل الى ملك موريتانيا الملك جوبا ، وكان يعرف أنه لن يكون على الرحب والسـعة اذا ما جـاء الى بلاطه طالبا منه الحماية • فصمم على الذهاب الى مصر حيث كان يتوقع أن يجد ملاذا •

وحوالى نهاية شهر سبتمبر سنة ٤٨ ق•م• عندما كانت شمس مصر الحارة قد أخذت تفقد قوة حرارتها اللافحة ، ظهرت السفينة التى كانت تحمل بومبى وزوجتـه كورنليا وابنه الصغير ، أمام أبصـار الجيشين المتنافسين ، جيش كليوباترة وجيش بطليموس اللذين كانا يواجهان بعضهما البعض عند بلوزيوم • ونزل رسـول من السفينة يحمل رجاء من دكتاتور روما السابق الى ملك مصر طالبا منه الحماية والمسـاعدة •

وتشاور السـادة الحقيقيون للبـلاد ، بوثينـوس وثيودوتس وآخيـلاس ، وقرروا أنهم اذا هم أنقـذوا بومبى فانه لن يـكون نصير الى جانب عدوتهم كليوباترة ولكن من الناحية الأخرى فان ذلك

سوف يغضب منهم قيصر ، ومن المحتمل أن بومبى سوف يصبح آمرا ناهيا بينهم • وكان لثيودوتس ، مدرس البلاغة ، الكلمة النهائيـة ، « ان الموتى لا يعضون » • وسوف يكون قيصر شاكرا ان هم قتلوا منافسه • وكان قيصر وقتئذ أقوى رومانى حى ، ومن ناحية أخرى فان بومبى سوف لا يكون قادرا على أن يلحق أى ضرر بهم •

وعهدوا بعمليـة القتل الغادرة الى الرجـل القوى فيهم وهو آخيلاس • فاختار ضابطا غادرا من ضباط بومبى السابقين ، اسـمه سبتميوس ، وقائد مائة لمساعدته • فنزلوا الى زورق صيد ، وأخذوا يجدفون نحو السفينة لكى يعودوا ببومبى الى الشاطىء ليتفاوض مع بطليموس •

وعندما عاد زورق الصيد ثانية الى الشاطىء نهض بومبى من مكانه وأخذ بيد جندى ليساعده على النزول الى الأرض ، وفى هذه اللحظة ضرب سبتميوس بومبى من الخلف وطعنه بسيفه العريض وفعل آخيلاس والقائد نفس الشىء ، وغطى بومبى وجهه ليخفى ما كان يحس به من ألم ، وسقط بومبى العظيم ميتا بدون أن يتفوه بكلمـة واحـدة •

وكان من الميسور رؤية المـأساة بوضوح من السفينة ، وترددت أصداء صرخة كورنليا المفزعة على الشـاطىء • وأمر القائد بالاقلاع على الفور وأن تنفرد شراعها حتى يستطيعون الخروج الى عرض البحر تدفعهم الرياح القوية •

واذا كان ثيودوتس وبوثينوس وآخيلاس قد ظنوا أنهم بهـذا العمل الخسيس سـوف ينالون حظوة لدى يوليوس قيصر ، فانهم كانوا مخطئين • فبعد أربعة أيام رسا قيصر على شاطئ البحر عند

الاسكندرية بفرقه وهو يطـارد منافسه المهزوم • وأسرع ثيودوتس ليقابله ومعه رأس بومبى • ولكن قيصر أشاح برأسه فى فزع ويأس ، وعندما أعطوه خاتم بومبى الذى نقشت عليه صورة أسـد ممسكا سيفا ، أخذه وبكى • لقد كان هذا عملا دنيئا وعملا لا ترضى عنه أخلاقه القويمة • لقد كان بومبى رومانيا مشهورا وجنديا ممتـازا وخصما عظيما وشريفا • فطرد قيصر قتلته وأقام له جنازة تناسب رتبته ومكانته ، وأرسل سفينة مجللة بالسواد ومعها رماد جثة بومبى الى أرملته كدليل على احترامه العميق •

ونقل جواسيس كليوباترة كل هـذه الأنباء اليها فى خيمتها فى بلوزيوم • وكان قيصر قد نزل الى البر ومعه فرقتـان وحرس من الفرسان ونزل فى القصر الملكى فى برخيون ، فى منزلها ولكى يظهر أنه أراد أن يفرض ارادة روما على سياسة الاسكندرية سار خـلال شوارع المدينة على رأس جنده مسبوقا ، كمـا لو كان فى موكب قنصلى الضباط الرومانيين الذين كانوا يحملون رمز سـيادة روما ، حزمة العصى المربوطة •

ومع أن أهالى الاسكندرية قد أعجبوا بالعرض ، فقد استنكروا هذه الاهانة الموجهة الى سلطتهم الوطنيـة ، واندلعت المظـاهرات والاضطرابات فأرسل قيصر فى طلب الامدادات من سـورية اذ صمم على اصلاح الأمور فى البيت المـالك المصرى المنقسم على نفسه •

وسمعت كليوباترة بكل هـذا وهى فى معسكرها فأثارتها تلك الأنباء • ها هو ذا رجل تستطيع أن تعجب به ، رجل عظيم لدرجـة تجعله يكرم عدوه المهزوم ، ولا يخجل من أن يذرف الدمع على نهايته المحزنة وسألت طبيبها أوليمبوس ، كم عمر قيصر هـذا ؟ وأى نوع من الرجال هو ؟ •

فأجابها بهذا الرد الغامض « انه كبير السن ، ومع ذلك فهو ليس برجل شيخ .. رجل قام بأعمال عظيمة وعاش حيـاة قاسية ولم يرحم نفسه أبدا ، ومع ذلك فهو رجل يعنى بملابسه ويحب النساء اللائى يختارهن بنفس العناية فى تأنقه الشـديد . رجل يحلم بأنه سيحكم العالم وقد ولد ليحكم الرجال » .

وسرحت كيلوباترة بأفكارهـا . انها انسانة منفيـة بلا أمل فى الاقتراب منه لعرض قضيتها لتعرض عليه حقها الشرعى فى الجلوس على العرش كحاكم شريك مع بطليموس (الذى كان قد أسرع عائدا الى العاصمة فلم يخوضا معركتهما) ولكن أعداءهـا يحيطون بقيصر . وسوف تلقى حتفها قبل أن تصل اليه اذا حاولت ذلك علانية .

وعند ذلك خطرت لها فـكرة أخرى ، أن قيصر قد ركب خـلال البوابة الكانوبية لمدينتها ، لا باعتباره ضيفا وحليفا ، ولكن باعتباره غازيا وسيد مصر الأعلى ولوح بحقه الشرعى ليفصل فى النزاع على العرش باسم مجلس الشيوخ الرومانى . وسرت فى نفسها موجـة من الغضب مختلطة بشعور من الاعجاب . فلتدبر أمرها .

***

تهب فى أثناء شهور الصيف على شاطىء مصر المطل على البحر الأبيض المتوسط رياح قوية آتية من الشمال كان الاغريق يسمونها الرياح الموسمية الصيفية . وكان من الأمور الصعبة المحفوفة بالخطر أن تنزل السفن التى كانت تستخدم فى أيام كليوباترة التى تسافر من الاسكندرية نحو الشـمال الا عندما تخف حدة الريـاح عند حلول الخريف . ولهذا كانت موانى الاسكندرية مغلقة وكان قيصر يعرف أنه يتحتم عليه أن ينتظر هو وسفنه هناك ، وكان الموقف صعبا عليه

فقد عسكر هو ورجاله داخل القصر الملكى وما حوله فى بروخيون ، ووصل الى علمه أن آخيلاس قد استدعى الجيش المصرى وحاصره • ولم تكن امداداته من سورية قد وصلت بعد وكانت سفن الحرب المصرية راسية فى الموانى تقابل سفنه ، وفيها الرجال على أهبة الاستعداد •

وكان الملك الصبى بطليموس الثانى عشر قد وصل بناء على استدعاء قيصر له وكان معه فى القصر • وكان من السهل جدا أن يتوسط لصالحه هو ، تاركا بوثينوس ليحكم نيابة عنه باعتباره قاصرا كما كانوا يريدون • ولم تكن كليوباترة هناك لتعرض قضيتها ولم تكن هناك فرصة سانحة تستطيع بها المرور بين صفوف الجيش المصرى وهى على قيد الحياة : فان ثيودوتس وآخيلاس لن يجعلا الفرصة تفوت من بين أيديهما •

ولم يكن يوليوس قيصر قاهر بلاد الغال ، قد عرف الا القليل من صفات كليوباترة • فقد يتحتم عليها أن تخدع أعداءها وأن تصل اليه بطريقة ما لقد أخبرها أوليمبوس بأن نقطة الضعف فيه هو تأثره بالنساء فاذا استطاعت فقط أن تواجهه شخصيا فانها كانت واثقة من قوة سحرها وكانت واثقة من استمالته الى جانبها • وكانت معرفتها بسكان بلادها واللهجات العديدة التى يتخاطب بها الناس فى الاسكندرية وما حولها ستفيدها كثيرا وتساعدها على أن تتنكر وتشترى ما تشاء : قاربا صغيرا بمجاديف ، وسجادة ، واخلاص بحار قوى يستطيع أن يحفظ سرها ، واذا كان ممكنا فليكن ايطاليا وليس اغريقيا أو مصريا حتى لا يثير شكوك حرس قيصر •

وعند غروب الشمس فى احدى الليالى ، عندما كانت صخور مقر قيصر المؤقت تقف صامدة داكنة فى سماء يشع فيها اللون

الذهبى ، تسلل قارب صغير يقوده ملاح شجاع ، تسلل دون حدوث ضجة الى داخل الميناء الكبير آتيا من البحر وقد أعمل المجاديف متجها نحو السفن الراسية هناك واتخذ طريقه الى الميناء الملكى الداخلى .

وكانت الشمس البرتقالية اللون قد أخذت تنزل الى الأفق خلف المنارة التى فى جزيرة فاروس المقابلة ثم اختفت خلف حافة الأفق وقد أضاء نور الغسق القصير كل شيء بشعاع غير عادى ، وذلك فى اللحظة التى دخل فيها القارب الصغير بهدوء الى داخل الميناء بمجاديفه المستعدة للتجديف وشق طريقه الى رصيف رسو السفن ، وكان الضوء قد أخذ يخفت وحل الظلام كما لو أسدل الانسان ستارا ثقيلا .

ومن المرجح جدا أن الحارس الرومانى قد اعترض طريق القارب ولكن الملاح الذى كان من أهل صقلية أقنعه بأنه لا يقصد أى ضرر وأنه قد أتى بقاربه عبر البحر ليسلم بساطا الى القصر ، ولكى يثب صدق قوله أسرع فى الحال والتقط لفة طويلة مربوطة بحبل كانت موضوعة فى قاع المركب وحملها فوق كتفه ونزل الى الشاطىء .

كانت التعليمات المعطاة له بأن يسلمها الى قيصر نفسه فقط ، وأخيرا وجد البحار نفسه فى حضرة الرجل العظيم .

وأنزل اللفة الى الأرض وفك الحبل الذى كان يربطها به وخرجت منها ملكة مصر الشرعية كليوباترة شخصيا . ان ما رآه قيصر الذى ملأته الدهشة لم يكن الا شابة جميلة فى الثانية والعشرين من عمرها لا تزال « الزهرة اليانعة » التى جذبت أنظار مارك أنطونيوس ولكن قد زاد عليها شدة رباطة فى الجأش وثقة فى قوتها .

وكان شعرها الكستنائى قد تهدل قليلا بسبب لفها فى السجادة . ولكن محياها وعينيها الرماديتين الجميلتين وقوامها النحيل كانت كلها تسلب العقل ، أضف الى ذلك أنه كان فى استطاعته أن يسمع صوتها

الذى اتفق جميع مؤرخى عصرها ، مهما بلغ كرههم لها ، على القول انه كان أكثر صفاتها اغراء للرجال ولم يتمالك قيصر نفسه فضحك .

ما الذى رأته كيلوباترة ؟ رأت رجلا قد جاوز الخمسين من عمره ، ولكنه نحيف قوى وذو مظهر يدل على قوة . وكان طويل القامة وبشرته صافية وعيناه سريعتان سوداوان لا يفرتهما شىء ، وكان يرتدى رداء أبيض مزخرف الحافة بلون أرجوانى ، وكان منسجما عليه . أما شخصيته ، فكانت تستطيع أن تحكم عليها من مظهره ومما كانت قد سمعته ، كانت شخصية صريحة وحازمة . وكان رجلا عمليا وليس خياليا ، أضف الى ذلك أنه كان رومانيا منتصب القامة شديدا فى معاملته للناس ، كريما مع الذين يطيعونه والمخلصين له ، كريم الأخلاق نحو أعدائه فى بعض الأحيان ولكنه لا يهتم بالعواقب كالأيام التى كان يعيش فيها وتعيش فيها كليوباترة . ولكن أعظم ما راق لها فيه هو جرأته التى لا تقل عن جرأتها . وما من شك فى أنه كان أشجع من جنوده ، وكان مستعدا لأن يعيش حياة شاقة كما كانوا يعيشون وكانت شعبيته بينهم وحبهم له مثلا سائرا فى كل أنحاء العالم .

وقد اختلق جورج برنارد شو حوارا شائقا فكها بين قيصر وكليوباترة فى أول لحظات لقائهما ، فى روايته « قيصر وكليوباترة » ولكن حقيقة ما دار بينهما سيظل سرا خاصا بهما . وكل ما يعرفه العالم هو أن كليوباترا « قد أتت ورأت وغزت » (١) وأن قيصر المحارب القديم والسعيد بزواجه من كالبورنيا السيدة الرومانية النبيلة، قد وقع فى حب « الساحرة المصرية » كما كان يسميها الرومان المتجنون عليها . وقد أيدها بحكمه بأن تكون « ملكة مصر » وأن تحكم

---

(١) عبارة مأثورة فى غزوات قيصر ، وهنا تكنى بها الكاتبة عن انتصار كليوباترا على قيصر .

بالاشتراك مع زوجها وأخيها الأكبر بطليموس الثانى عشر طبقا لنصوص وصية أبيهما .

وكانت الرياح الموسمية الصيفية قد أخذت تخف ، ولكن بالرغم من أنه كلما طالت اقامة قيصر بالاسكندرية كان محتملا أن يقوم حزب بطليموس الساخط تحت زعامة بوثينوس وثيودتس وآخيلاس بتدبير المكائد ضده ، فقد تباطأ قيصر فى تركه للاسكندرية .

لقد أحبها وكان عليه أن يتأكد من أنها كانت آمنة مطمئنة كشريكة على العرش . وبالرغم من أن وجوده فى روما كان ضروريا للغاية ليزيل آثار ما خلفته الحرب الأهلية مع بومبى ، فقد بقى ليستمتع بربيع كهولته ، وكان كلاهما ، هو وكليوباترة ، منعمين بالسعادة .

لقد انقضت كل تعاستها القديمة وانتهت أيام فشلها بسبب علاقاتها السيئة مع أخويها ومخاوفها من أجل مستقبل مصر بأن يحكم بطليموس منفردا يؤازره الثلاثي الخبيث ــ وعلى الأخص بوثينوس ــ ويرشده الى ما يجب عليه عمله . لقد أصبحت الآن الملكة التى تجسدت فيها ايزيس وريثة تاج الفراعنة المزدوج وهى وحدها صاحبة الحق فى الاشتراك فى حكم البلاد . فقد كان زوجها مظهرا رسميا فقط . وقد أحست الآن أنها امرأة يتعلق بها أعظم رجل حى ، رجل أحست معه أنها تبادله عواطفه . لقد تمنت أن تحمل منه بولد ، لأنه لم يكن لديه ولد يخلفه بعد وفاته . ولما كانت قد أخفت أغراضها عن طبيبها أوليمبوس الذى كان لا يؤمن الا بالعلم فمن المحتمل أنها أرسلت خادمة مصرية لتبحث لها عن تعويذة سحرية من تعويذات العقيدة القديمة ، بردية مكتوب عليها كلمات غريبة بخط الكهنة بالكتابة الهيروغليفية ، وأن تأتى بها سرا الى مغارة ايزيس ، انها تريد ولدا

ذكرا ، ولن تخيب تمائم السحر القديمة التى كانت معروفة فى بلادها ، رجاءها فى ذلك .

ولكن احساسها بالفرحة والأمل لم يكن خاليا من الشعور بالقلق، فقد كان الملك بطليموس يتميز غيظا فى السر وكان ساخطا لمناصرة قيصر لكليوباترة لتأخذ مكانها الشرعى معه كحاكم شريك فى الملك . وأعد مؤامرة هو وبوثينوس فقد كان أهل الاسكندرية متخوفين من روما ، خائفين من أن يفقدوا سيادتهم الوطنية وخائفين من الضرائب والجزية التى يفرضها قيصر عليهم ، وألا يكونوا ملتزمين بدفع الديون الجسيمة التى جلبها على نفسه بطليموس الحادى عشر فحسب بل يلتزمون أيضا بدفع نفقات حملات قيصر الحربية .

ونشر بوثينوس ، ذو الخبرة السابقة فى ترويج الشائعات الزائفة ، بين سكان المدينة أن قيصر يهدف حقيقة الى اغتصاب مصر لروما مخفيا أغراضه تحت ستار قبول بطليموس وكليوباترة بأن يسميا ملكا وملكة وأرسل محاسبيه ليجردوا المعابد من كنوزها قائلين ان ذلك بأمر قيصر ، وذات يوم ذهبت كليوباترة لتتناول طعامها كالمعتاد مع قيصر وبطليموس فى اللقاء الرسمية بالقصر لتجد أطباقا وصحافا خشبية ليأكلوا منها بدلا من الأطباق والصحاف الذهبية التى أخفاها بوثينوس مدعيا أن قيصر قد أمر بذلك ليرضى جشعه للمال .

وازداد هياج الشعب .. أن قيصر طاغية شره .. واصطخبت المدينة بحمى العزة الوطنية ، وكان الأسطول المصرى مجهزا بالرجال وأعد آخيلاس جنوده ليهاجموا القصر ويلقوا بالرومان فى البحر .

وكان قيصر ورجاله أقل بكثير فى العدد من أعدائهم وكانت سفنه محاصرة فى الميناء الكبير أمام القصر ، وعقد هو وكليوباترة مجلسا

واتفقا على ضرورة العمل السريع بدون انتظار للامدادات ، وكان من عادته التصرف السريع ، ولهذا استولى قيصر على المنارة بجزيرة فاروس بضربة جريئة وأضرم النيران فى الأسطول المصرى الذى كان يحاول أن يقطع عليه طريق انسحابه بحرا . ولابد من أن دم كليوباترة الثائر قد طرب وهى تراقب النيران تنتقل من سفينة الى سفينة فى مراسيها وعندما سمعت الرجال يصرخون وهم يقفزون الى الشاطىء أو يسبحون ناجين بحياتهم .

وفى اليوم التالى ، تلقوا الأنباء السارة بأن الاثنتين والسبعين سفينة التى تكون الأسطول السكندرى كله قد احترقت ولم تعد تصلح للعمل . ولسوء الحظ احترقت أيضا كميات من الكتب الخاصة بمكتبة الاسكندرية حيث اندلعت النيران فى المدينة وظلت هناك بعض الوقت ، وقد سمعت كليوباترة هذا النبأ فامتلأت نفسها بالحسرة .

ولكن المكاسب الحربية لها ولقيصر عوضت هذه النتيجة المشئومة غير المنتظرة ، ولم يصب أسطول قيصر المكون من أربع وثلاثين سفينة تجارية صغيرة بأى ضرر ، ولم يكن هناك ابتداء من الآن ما يمنع خروجها الى عرض البحر لقد كان كل شىء حسنا حتى الآن .

ومهما يكن فان المصريين لم تثبط عزيمتهم بسهولة . فقد كانوا ولايزالون يستولون على ميناء العود الحميد خلف حاجز الأمواج الطويل ، والهبتاستاديون وهناك انصرفوا الى العمل فى بناء أسطول جديد . وعندما سمع قيصر بذلك عن طريق جواسيسه أرسل رسالة عاجلة فى غاية الأهمية بطلب النجدة من القائد الرومانى فى سورية وكان يسمى دوميتيان يسأله أن يرسل الفرقة السابعة والثلاثين بأسرع ما يمكن لمساعدته ولأول مرة تقتنع كليوباترة بترك مجرى الحوادث

لشخص آخر ليرتبها ، فقد أصبح قيصر سيدا لها ، وقبلت هي ذلك بسرور • الرجل الأول والوحيد الذي تيسر له ذلك ، فقد كانت هي التي تسيطر على الرجال الآخرين ، فارادتها وادراكها كانا فوق مستواهم • ولكن قيصر لم يكن كذلك • لقد أحست نحوه بضعف واذعان من نوع غريب وعرفت أيضا أنها كانت تنتظر حادثا سعيدا ، تنتظر ولادة طفل من قيصر •

لقد جعلتها السعادة والرضي لا تبالي بشيء ، ولكنها بوغتت تماما عندما اختفت أختها الصغرى أرسينوى فى احدى الليالى • وبالرغم من أنه لم يكن هناك حب مفقود بين الأختين فان كليوباترة لم يكن لديها أى فكرة فى أن لأختها أرسينوى أى طموح لأن ينادى بها ملكة على مصر بدلا منها ، أو أنها قد استمالت الى جانبها آخيلاس القائد العام للجيش المصرى لينفذ بالقوة ما كانت تدعيه •

وأقام بطليموس وبوثينوس فى القصر حتى يكونا دائما تحت رقابة قيصر • وأحسا الآن بأنهما كانا مهاجمين من ناحيتين لا من ناحية واحدة وسوف تصاب قضيتهما بأذى نتيجة للتصرف الطائش الذى قامت به أرسينوس • وأرسل بوثينوس رسالة سرية الى آخيلاس يخبره بأن يبقى مخلصا للملك ، ولكن الرسالة كانت سبب ضياعه • فقد ضبط الحراس حامل الرسالة فى منطقة القصر ، ولما تحقق قيصر من خداع بوثينوس أمر باعدامه • تخلصت كليوباترة أخيرا من ألد أعدائها • وبعد مدة قصيرة كان على كل واحد آخر من ثلاثى الشر أن يلقى مصيره • فقد ذاعت الأنباء فى القصر أن أرسينوى قد سخطت على آخيلاس لخروجه على حدود الولاء ، فقتلته وعينت معلمها الاغريقى جانيميد قائدا عاما فى مكانه •

ونستطيع أن نتصور كليوباترة وهى تقول لقيصر : « ليس لدينا

ما نخشاه بعد ذهاب آخيـلاس • ان جانيميد ليس الا رجل علم » •
ولكنها لم تكن على صـواب • فان الرجل العالم قد حارب بأسلحة
مختلفة ولكنها أشد فتكا من أسلحة الجندى آخيلاس •

كانت مياه الشرب اللازمة للقصر تأتى من خزانات فى التلال التى
ترتفع وراء المدينة، وعمل جانيميد على رفع مياه البحر سرا ليخلطها
بالمياه العذبة فى القنوات التى تجرى بها • وعندما ذهب جنود الرومان
الذين كانوا يحسون بالعطش دائما فى حرارة مصر التى لم يتعودوا
عليها ، لملء زمزمياتهم وأوعيتهم بالمـاء ليشربوا فوجدوا المـاء مالحا•
« وواجـه كل من قيصر وكليوباترة » سخط الجنـود ورغبتهم فى
التسليم • وقد عبر رسول الجنود الرومان عن مشاعر زملائه عندما
قال لقيصر « اننا نفضـل أن نواجه حشدا من المتوحشين البرابرة ،
عن أن نموت من العطش هذه الميتة الفظيعة » •

وكان هناك شيء واحد يمكن عمله ، وهو البحث عن مورد ماء
عذب فكثيرا ما زحفت وركضت كليوباترة عندما كانت طفلة صغيرة فى
كل مكان حول القصر ، فى الحدائق ، وبين المغـارات والخلجـان
الصخرية للميناء الملكى ، ولهذا كانت ارشاداتها عن الأمكنة التى يمكن
الحفر فيها عن المياه عظيمة القيمة • أخذ الجنـد وقد غلبهم العطش
والحر يحفرون طوال الليـل والنهـار وهم يسبون ويدمدمون ولكن
كوفئت جهودهم اذ وجدوا ماء عذبا •

وفى اليوم التـالى وصلت امدادات لقيصر من سـورية ورأت
كليوباترة أسطول السفن وهو يحمل الفرقة السابعة والثلاثين ويحاول
أن يشق طريقه بحرا الى داخل الميناء الكبير • ولكن ريحا جنوبيـة
شرقية هبت فأخطأ الأسطول المدخل الضيق ، وجهز قيصر ــ كعادته فى

الاندفاع — سفنه بالملاحين والجنود القليلين الذين كانوا لديه وأقلع ليعود بهم تاركا القصر بدون حراسة تقريبا •

وأثبت جانيميد أنه كان قائدا ومنظمـا بارعا بالرغم من أنه كان عالمـا وليس جنديا ، فقد أسرع بالأسطول الاسكندرى الجديد ، الذى كان قد بنى سفنه بسرعة ، ليقطع على قيصر الطريق بينه وبين السفن التى أتت بالامدادات ولكن أسطوله رد على عقبيه فى المعركة البحرية التى تلت ذلك وأسرع ليحتمى فى ميناء العود الحميد ، وقد ساعدته على ذلك الظلمة التى كانت قد بدأت تنتشر والتى منعت قيصر من تتبعهم حول الجزيرة •

وكان منظر السفن الحاملة للفرقة السابعة والثلاثين ، وهى تنزل مراسيها ظافرة فى داخل الميناء الكبير ، باعثا على تقديم كليوباترة شكرها الى ايزيس ، ثم أسرعت بعد ذلك الى الرصيف الملكى لتحيى قيصر المنتصر العظيم وقد ملأ الفرح قلبها •

ولكن قيصر لم يكن راضيا عن ترك الأمور كما هى • كان يتحتم عليه أن يقضى على أرسـينوى وجانيميد قبل أن يكون عرشها ثابت الدعائم • وكان يعرف أيضا أن بطليموس — برغم ما يدعيه من محبة وولاء له ولكليوباترة — يكرههما من كل قلبه ويترقب الفرصة ليوقع بهما ، وكان هو وبوثينوس ينتظران حتى تحين فرصة مواتية ، ولكن التهديد المباشر كان آتيا من الناحيتين العسكرية والبحرية • كان كل يوم يمر يرى الأسطول المصرى يزيد من قوته ، وأصبحت المنشآت التى حول ميناء العود الحميد ، قاعدته البحرية ، أقوى تحصينا هى والهبتاستاديون وقد نقل جواسيس كليوباترة أن جانيميد كان يتفاخر بأنه سيكون قريبـا سيد البحر • كما كانت أرسـينوى أيضا تزداد غطرستها كملكة مع مرور الأيام •

وانقسمت عواطف أهل الاسكندرية • انهم كانوا يفضلون كليوباترة على أرسينوى واعترفوا بحقها الشرعى باعتبارها وريثة العرش ، ولكن السم الذى نفثه أعداؤها فعل فعله فى كثير منهم ، وأدى بهم خوفهم من الاستعمار الرومانى الى القول انها خائنة لمصر بسبب غرامها لقيصر • كما أن الخلافات الأسرية بين أفراد أسرة البطالمة جرت عليهم مصائب الحرب الأهلية •

لقد حل اذن الوقت لتحدى جانيميد • كان يتحتم على قيصر أن يضرب بسرعة ويشن الهجوم على العدو•وجمع السفن الست والثلاثين التى كانت تحت امرته وأبحر بها الى ميناء العود الحميد • وكان قيصر فى موقف أفضل لأن الأسطول المصرى تجهز على وجه السرعة وكانت الأماكن الضحلة والصخور تقوم بين الأسطولين ولا تترك الا ممرا ضيقا لا يجرؤ أحد على المخاطرة بالدخول فيه ليكون البادىء بالهجوم • وبينما كانت سفن جانيميد تقوم بالمناورة لتتخذ مواقعها ، اندفعت أربع من أسرع سفن قيصر الى داخل الممر وسهلت بذلك للأسطول الرئيسى أن يدخل وراءها • وواجهت السفن بعضها البعض وقام قتال عنيف بين الجنود فوق ظهور السفن المتحاربة ، ولكن بالرغم من أن المصريين كانوا قد أجبروا على التقهقر والالتجاء الى مبانى الميناء المحصنة والهبتاستاديون ، فقد اضطر قيصر الى الانسحاب أمام شدة مقاومتهم • ان انتصاره لا يمكن أن يكون كاملا الا بعد أن يستولى على المرتفع الأرضى الموصل الى الميناء •

وكانت خطوته التالية هى هجوم جرىء مباغت على جزيرة فاروس • وكان هجوما ناجحا لدرجة أنه استولى على كل الجزيرة وحصل بهذا العمل على نقطة ارتكاز على الطرف الشمالى للهبتاستاديون ، والآن فقط يستطيع أن يضع كل امكانياته فى هجوم عام مؤيدا بسفنه •

وكانت الفيالق الرومانية متعبة من هذا النوع من القتال الذى يدور فى أماكن ضيقة ، وكانوا قد سئموا من حصارهم فى برخيون ، ورغبوا فى انهاء حرب الاسكندرية ومغادرة مصر ليحاربوا فى مكان آخر ، فى جو أكثر اتساعا أو أن يعودوا الى وطنهم روما . فهاجموا دون أن يكون لديهم الصبر ولكن جنود الاسكندرية الذين كانوا يحاربون وهم هادئون ، أوقعوا بهم الهزيمـــة وألجئوهم الى الفرار سريعا ، وقد قتلوا أربعمائة منهم وأغرقوا منهم الكثـــيرين . وقفز بعضهم الى السفينة التى كانت تحمل قيصر ، ولكنهم بدلا من أن يساعدوه فانهم قلبوا السفينة وكان على قيصر أن يسبح لينجو بنفسه وقد امتدت خلفه فى المـــاء عباءته القرمزية وأصبح رأسه الأصلع هدفا لرماة المصريين . ولكن القدر لم يكن قد قرر أن تكون هـــذه هى النهاية ليوليوس قيصر ، وقد نظر الى الأمر كله باستخفاف عنـــدما وصل الى الشاطىء عند سلم القصر وهو يقطر بللا .

ومهما يكن فقد كانت هزيمته ضربة شـــديدة عليه وتحقق هو وكليوباترة ، والحسرة تملأ نفسيهما ، أنه بعد فقده للكثيرين من رجاله القليلين نسبيا ، لم يعد تحت امرته من الجنود الا ما يكفى للدفـــاع عن النفس . ومن المؤكد أنهما لن يكون فى استطاعتهما معاودة الهجوم أو اكتساح أسطول العدو . وكانت خطتهمـــا هى اكتســـاب الوقت انتظارا لامدادات أكبر من المنتظر وصولها قريبا .

وجاءت الأنباء الى قصر أن بعض زعماء المواطنين فى الاسكندرية قد أخـــذوا يضجون من اســـتيلاء أرسينوى ومن قائدها جانيميد ، وطالبوا بضرورة التصريح لبطليموس بأن يغادر القصر ويحضر اليهم حتى يمكن التغلب على ســـلطة أرســـينوى وجانيميد والقضـــاء على مطـــامعهم .

وجاء بطليموس يطلب من قيصر أن يسمح له بالذهاب ، وبكى لفكرة مغادرته صديقه وحاميه وأخته كليوباترة ، وزوجته العزيزة .. ولكن ربما كان من الواجب عليه أن يذهب .

وكان كل من قيصر وكليوباترة يعلم أنه خائن مستتر ولهذا سرا للتخلص منه ، ومهما يكن فقد تظاهرا بأنهما قد خدعا بدموعه ، ومثلا دورهما مثلما مثل هو دوره ، وقد علق على ذلك أحد المؤرخين المحدثين « وبمثل هذه الخفة بدأ الملك الحرب ضد قيصر وبدت دموعه فى المقابلة كما لو كانت دموع الفرح » .

وكشف بطليموس عن خطته فى الحال . وقد برهن وقتئذ ، وقد أصبح مسئولا عن نفسه ومستقلا عن أوصيائه ، أنه كان على جانب من الهمة والخبرة الحربية فلما تسلم قيادة الجيش من جانيميد ، أرسل جزءا منه ليوقف امدادات قيصر الجديدة من التقدم نحو الاسكندرية، وأرسل الباقى فى فرع النيل الكانوبى ليقطع على عدوه طريق الاتصال بهم .

ولكن عبقرية قيصر الحربية كانت أعظم من خطة بطليموس . فقد ترك كليوباترة فى القصر ورافق قواته ليهاجم بطليموس قبل أن تنجح خطته . وكان قيصر قد استطاع تدبير الاتصال بالامدادات التى كانت فى طريقها اليه فلما هاجم بقواته التى معه والامدادات الجديدة حصن كانوب بقوة شديدة لم يجد جنود بطليموس الذين كانوا يدافعون عن الحصن بدا من التسليم . وفى أثناء الذعر الذى تلا هذا الهجوم وقع بطليموس فى الماء ومات غرقا .

وكان قيصر متلهفا على أن يخبر كليوباترة بالأنباء ، وفى الوقت ذاته يضيق على أرسينوى الخناق ويأخذها أسيرة قبل أن تسمع بهزيمة

الاسكندرية وتولى الأدبار ، فقد امتطى جوادا وأسرع به عائدا الى المدينة تاركا الجند المشاة يسيرون على مهل •

ودخل قيصر فى موكب انتصاره من البوابة الكانوبية ، ليجد أن أنباء انتصاره قد سبقته اذ قابله هناك وفد من المصريين جاءوا يحملون تماثيل آلهتهم لتتشفع لهم وتحصل على عفوه • ولكن لا عفو عن الخائنة أرسينوى ، وقد أرسلها قيصر الى روما أسيرة لتزيد من فخامة موكب نصره فى المستقبل •

حتى ولو توسلت كليوباترة من أجل أختها فانه لن يخلى سبيلها، ولكن لم يكن لدى كليوباترة أى ميل نحو أرسينوى • كما أنها لم تخف شعورها بالارتياح عند سماعها أخبار موت بطليموس • ولم يعد هناك بعد الآن من يحول بينها وبين تاج مصر المزدوج • ولم يضيع قيصر وقتا فى أن يعلن على الشعب ، انه باسم مجلس الشيوخ الرومانى سيجعل وصية الملك بطليموس الحادى عشر نافذة المفعول وأنه قد أقام كليوباترة الوريثة للعرش لتحكم بالاشتراك مع أخيها بطليموس الذى كان على قيد الحياة والبالغ من العمر عشر سنوات ، باعتباره زوجا لها ، طبقا للتقاليد المصرية ويحكمان باسم كليوباترة السادسة وبطليموس الثالث عشر • وقد بر قيصر بكلمته •

لقد هام قيصر حبا بكليوباترة وكانت حاملا بطفل منه •• وسوف يكون ولدا بالطبع ، لأن ايزيس ستهتم بهذا الأمر • وقد خفض مبلغ الدين الذى كان جدها ووالدها قد استداناه وسيكون فى قدرتها أن ترده دون أن تثقل كثيرا كاهل الشعب • ولكن أهم من كل ذلك ، فقد اعترف علانية باستقلال مملكة مصر التى كانت تحبها • وأخيرا ، وقد اجتازت كل العواصف وتخطت كل العقبات ، وصلت سفينتها — فى أمان — الى ميناء العود الحميد ، الى ملاذها من الطمأنينة والرضى ، حق

عليها أن تقدم شـــكرها الى ايزيس فى مغارتها المطلة على البحر ، والى سيرابيس الاله الحـــارس للاسكندرية (الالهين زيوس الاغريقى وأبيس المصرى متحدين) فى معبده الفخم المشيد فوق التل .

***

كانت الشواطىء الرملية لبحيرة مريوط مزخرفة بالألوان الزاهية عقب الموسم القصير للأمطار الشـــديد فى فصـــل الشتاء ، اذ تزدهر الأزهار ، حيث كان لا يوجد من قبل الا رمال قاحلة فقط ، أزهار الخشخاش ذات اللون الأحمر القـــانى وفى وسطها بقعة ســـوداء ، والأقحوان الذهبى ، وســـنابل البروق الصفراء وزهور الريح الرقيقة وزهور الســـوسن والمنثور الزرقاء الصغيرة جدا ، انها كلهـــا نضيرة ومشرقة ولكنهـــا سرعان ما تجف وتختفى فى حـــرارة الصيف عند قدومـــه .

اليوم يرعى البدو من العرب ، قطعان أغنامهم وخرافهم فى هذه المنطقة ويحصدون محصولهم القليل من الشعير بمعاونة ابلهم وحميرهم التى تحرث الرمال لهم ، وقد تعلم الحريصون منهم أن يزرعوا ويعنوا بأشجار التين ويبيعوا هذه الفاكهة الحلوة الى تجار المدينة . وكانت المنطقة فى أيام كليوباترة غنية بالتين والزيتون والعنب والقمح الفاخر وكان يقوم بزراعتهـــا جماعات من المستوطنين الاغريق المحبين لجمع المـــال ، والذين كانوا يخزنون مياه الأمطار الثمينة فى خزانات مبطنة بالأحجار وقد ملأ الرمل والطين معظمها الآن ، ليستعملوها خـــلال الشهور العشرة التى ينعدم فيها المطر . ولم يكن يعيش هناك فى ذلك الوقت بدو رحل يتنقلون بقطعانهم من المـــاعز المخربة التى تأكل أوراق النباتات . والآن وقد انتهت الحـــرب أصبح فى استطاعـــة قيصر أن يستريح وكان يمكن لكليوباترة أن تريه الزيتون الفضى والجـــذوع

البيضاء المحملة بالتين الأخضر ، وسنابل القمح النامية المتجهة ذات اللون الأخضر الضارب الى الصفرة ، وثمار العنب الصغير الحجم ، ولكن بالرغم من كل ما بذله المستوطنون فى أعمال الزراعة فان الزهور البرية تأسر العيون بجمالها المتألق .

وكانت تود أيضا أن تريه حقول قصب السكر والكتان والذرة والبطيخ ونخيل البلح وشواطىء النيل المغمورة بالطمى والتى تظل جافة الى وقت الصيف عندما يعود الفيضان فى دورته مرة أخرى ، وتريه كذلك الناس وقراهم والمعابد والأهرام : وكل ما حوته بلادها العتيقـة .

وكان واجبه يناديه ليعود الى روما ، ولكن قلبه وبهجة روحه كانت مرتبطة بكليوباترة فى ذلك الوقت ، كما كانت تحتاج الى وجوده لسبب آخر . فان زوجها الملك الصغير بطليموس الثانى عشر كان قد توفى . وقد أصبح واضحا أنها حامل ولم يعد خافيـا أن الأب هو يوليوس قيصر . فمن الضرورى اعلان زواجهـا منه فى حضرة الاله آمون طبقا للتقاليد المصرية . فاذا كان طفلهمـا ولدا فهو الفرعون المقبل ، واذا كانت بنتا أصبحت الوريثـة لتاج الوجهين المزدوج ، وسوف يؤكد هذا الاجراء شرعية وألوهية الطفل .

وبما أنها كانت تحكم فعلا كملكة فقد يتحتم عليها أن تتبع أيضا عادة أخرى قديمـة وذلك أن تقدم نفسها الى شعبها فى طول البـلاد وعرضها وأن تقدم القرابين الى الآلهة فى هياكلهم المقدسـة المتعددة ، وعلى هـذا وكما فعلت نفرتيتى وأخناتون ، وغيرهمـا من الأزواج ، بدأت هى وقيصر رحلتهما لشهر العسل على صفحة النيل .

وأبحرا على السفينة الملكية ، وكانت سفينة ضخمـة ذات طابقين

ويبلغ ارتفاع صاريها مائة قدم ، ذات قلع من الكتان له حافة أرجوانية مطرزة وصفين من المجدفين ليقوموا بالتجديف اذا وقفت الرياح التى تهب من الشمال • لقد كانت أشبه بقصر مصغر وكانت مجهزة بقاعة للمآدب مبطنة جدرانها بوزرات من خشب الأرز والسرو ومزينة بالزخارف المصرية ذات الألوان الذهبية وغيرها من الألوان الزاهية ومزودة بأثاث اغريقى ، وبها أماكن فاخرة للنوم وأماكن غير مسقفة لضجعة مسترخية فى ساعات الصباح وأوقات بعد الظهيرة التى تحلو فيها الراحة ، بالاضافة الى حديقة صغيرة بها محرابان أحدهما للالهة فينوس والثانى للاله ديونيسوس ، الهى الحب واللهو •

وكان يرافق السفينة أسطول مؤلف من أربعمائة سفينة محملة بالجنود الرومانيين اذ كانت لدى قيصر فكرة التوغل الى ما وراء حدود مصر بعد شلال النيل الأول فى بلاد النوبة والى ما وراء البلاد التى تعرف اليوم بالسودان • ولكن الشلال عاق تقدم الجنود الى حد عظيم فاضطرت الحملة الى تغيير اتجاهها وأبحرت عائدة فى النهر مرة أخرى •

وعلى أى حال فقد حققت كليوباترة غرضها ، ففى مدينة أرمنت ــ حيث كان فراعنة الدولة الحديثة يتوجون كما جرت التقاليد ــ قبل الكهنة الاعتراف بقيصر زوجا لها وباعتباره الشخص الذى تجسد فيه الاله آمون على الأرض • وعلى جدران المعبد الذى بنى باسمها وهناك نقش يمثل زواج كليوباترة مع آمون الذى رسم فى صورة انسان برأس آدمية ملامحه تطابق ملامح قيصر ، وله قرنا كبش ملتويان •

واعتبر المصريون هذا الحادث ، وهذه السنة سنة ٤٧ ق•م• بداية حكم كليوباترة وأرخت كل الحوادث التى تلت ذلك من

تلك السنة • وقد ذكر فى مقبرة أحد الأشخاص أنه قد توفى فى السنة العشرين من زواج كليوباترة بآمون ــ قيصر •

وعندما مرا بأمجاد طيبة التى حل بها الخراب بعد أن كانت العاصمة المتشامخة لمصر منذ أمد قريب ، لاحت لكليوباترة فكرة بناء معبد جديد فاخر باسمها للالهة حتحور التى كان الاغريق يسمونها بالآلهة فينوس فقد كان الحب والجمال يسيطران على حياتها فى ذلك الوقت ، ومن المناسب أن تعبر عن شكرها للالهة التى جلبت لها هذه السعادة • وراق لها موقع دندرة على جانب النيل الحبيب ، الى الشمال من طيبة • وكان هذا المكان مقدسا لحتحور وسوف يقوم الكهنة بطقوسهم الكهنوتية هناك بسرور ، هم والكاهنات أيضا •

ويقوم معبدها هناك الى يومنا هذا وهو أكثر المعابد البطلمية حفظا فى كل أنحاء البلاد وأجملها ، وتوجد على جدرانه نقوش بارزة تخلب اللب ترى فيها الالهة حتحور وقد حمل الكهنة تمثالها داخل ناووس لتمتع عينيها برؤية الشمس وترافقها كاهنات يمسكن بالأغصان المورقة وأكاليل الزهر لحتحور « الهة الزهور » • وفى نقوش بارزة أخرى نرى مناظر قصة موت وبعث أوزيريس ممثلة بكهنة يقومون بدور أشخاص تلك القصة ويلبس بعضهم أقنعة ورءوس حيوانات ويسيرون فى موكب تكريما لذلك الاله •

وعلى الجدار الخارجى نرى رسما هو أصدق صورة وصلت الينا لكليوباترة • وهى ترتدى التاج الخاص بالالهة ايزيس ويتكون من قرص الشمس والقرنين ويقف معها ابنها قيصرون • ووجهها مكتنز ولها عينان واسعتان تبتعدان قليلا عن بعضهما البعض ، وقد أطالت شرطة الكحل من اتساعهما ، ولها فم صغير دقيق وترتفع الشفة قليلا الى أعلى ، ولها أنف دقيق معقوف • ويشبه وجهها الى حد كبير وجه

أبيها بطلموس أوليتيس ، كمسا نستدل من تمثاله الذى يوجد الآن بالمتحف البريطانى •

ولم يمض وقت طويل على عودتها الى الاسكندرية حتى وضعت طفلها ، وكان ولدا ، فقد استجابت ايزيس لصـلواتها • ومن يدرى فربما يصبح هذا الطفل الحديث الولادة يوما ما سيد العالم ! كما حلم الاسكندر أن يكون ، وأن يحكم كلا من مصر وروما فى امبراطورية واحدة عظيمة تضم الشرق والغرب • وعلى أى حال فقد كانت عاقلة واحتفظت لنفسها بهذه الأفكار • فان قيصر كان رومانيا ، مواطنا فى دولة تحكم بواسطة مجلس للشيوخ • أما مطامحه الشخصية فقد كانت هى وحدها التى تستطيع أن تخمنها ، أما فى أعين الشعب وأمام الناس فقد كان خادم الجمهورية • أعظم خدامها وأقواهم ، ولكنه خادمها أولا وأخيرا • وكان من المستطاع أن يكون قنصلا أو دكتاتورا ، ولكن فكرة الملكية لابد أنها بغيضة اليه • ولكن هل كانت بغيضـة حقا •• ؟ انها لم تكن متأكدة تماما من هذه النقطة •

وأخيرا أصبح له ولد • ولكن قيصرون كان ابنا غير شرعى فى نظر القانون الرومانى • كان قيصر متزوجا من كاليورنيا ولكن زواجه المصرى كان فى أعين مجلس الشيوخ والشعب الرومانى مجرد علاقة فقط • لقد أحب كليوباترة ولم يحب كاليورنيـا التى لم تمنحه أبدا وريثا • فمن المؤكد أنه سيطلقها عندما يعود الى روما ! وكان متشوقا للرحيل الآن ، وفى طريقه الى وطنه يجب أن يحارب الملك البارثى الذى شق عصا الطاعة فى آسيا الصغرى • وستدعه يسـافر دون أن تتذمر مطمئنة لهذه الفكرة • ولكن ما الذى يحدث اذا تردد ؟ حسنا فانهـا بمجرد انتهائها من توطيد حكمها هنا فى مصر ، واصلاح النظام الادارى

بعد اهمال أبيها والحرب الأهلية بين أفراد الأسرة سـوف تتبعه الى روما وتخوض المعركة مع منافستها •

***

رحبت شمس يونيو الايطالية الدافئة والنسيم العليل الذى يهب فى ذلك الشهر ، بمقدم كليوباترة الى روما فى عام ٤٦ ق•م• أى بعد رحيل قيصر بعام تقريبا • وقد جاءت فى الظاهرة باعتبارها ضيفة رسمية لتشاهد احتفالات انتصار قيصر ، ولكنها كانت تعلم فى قرارة نفسها أنها قد أتت لتحقق حلمها • وجاء معها أخوها الأصغر زوجها بطليموس الثالث عشر والطفل قيصرون وازدحم الشعب الرومانى فى الشوارع ليشاهد الملكة الشرقية الأسطورية وهى تمر أمامه • وكان كل فرد يعلم أنها كانت قد غلبت بطلهم بتعويذات سحرية وجعلتـه يتجرع جرعة حب مزجه السحرة المصريون •

وتوقفت الشائعات ، على أن منظر موكب الملكة ومعها من الأرقاء الافريقيين السود ، والموظفين المصريين الملتحين ذوى الأردية الطويلة والشعر المستعار الطويل ، والأعلام الغريبة التى يحملها الجنود ذوو النقبات القصيرة المزينين برءوس الحيوان أنوبيس وحورس وأبيس وآمون ، لم تفعل كل هذه شيئا لتبديد الشـعور الذى كان يحسـه الشعب بأن ذلك المظهر كان مظهرا أجنبيا وغريبا عنهم •

وكانت الملكة تبدو جميلة وهى محمولة فى محفتهـا ، متوجـة بعصبة من الذهب وتاج رأس الأفعى « سيدة الحياة » فوق جبينها ، وكان يجلس فوق ركبتيها طفـل ذهبى البشرة ، كانت ملامحـه هى ملامح قيصر دون شك ، ولم تكن هناك حاجة لأى برهان آخر لاثبات نسـبه •

كان ترحيبا ملكيا لسيدة ملكية ، فقد انتظر قيصر ، القنصل والدكتاتور ، مع جميع أعضاء مجلس الشيوخ وقضاة الشعب ليحيوها فى الفوروم باسم الجمهورية الرومانية .

وأخيرا وبعد قرابة عام أصبحت كليوباترة مرة أخرى هى وقيصر وجها لوجه . ولم يكن هناك شىء فاتر أو جاف فى ترحيبه برغم كل رسميات المناسبة ولكن لم يحدث أى طلاق بعد . فقد كان لايزال متزوجا من كاليورنيا وكان ابنهما لايزال ابنا غير شرعى فى نظر القانون الرومانى . وكان يجب عليها ألا تدع أحدا يرى خيبة أملها اللهم الا أوليمبوس ووضيفاتها اللاتى كن موضع ثقتها أمام قيصر وأمام روما ، فيجب أن تظهر كملكة مصر المحبوبة المرغوب فيها والأم الفخور بالابن الوحيد لقيصر وملكة دولة مستقلة قد أتت لزيارتهم .

ونزلت كليوباترة فى فيلا فاخرة عبر نهر التيبر أعارها لها قيصر نفسه وتقع فى حدائق ضيعته الخاصة ، أما هو وكاليورنيا فكانا يعيشان فى المقر الرسمى للدكتاتور فى المدينة . وقد هيأت كليوباترة نفسها فى تلك الليلة لمقدمه ، فكحلت أهدابها وصففت شعرها وأبدلت ملابسها بملابس شفافة ، وعطرت نفسها بكل العطور الزكية الجميلة الرائحة المجلوبة من الهند وبلاد العرب ، وبعد أن تسلب لبه ، فسوف تكشف له تدريجيا عن أفكارها فى الملكية وتبث فيه رأيها فى موضوع اقتسام العالم بينهما .

وقد أصبح ذلك الآن جزءا من التاريخ ، فان أحلامها لم تتحقق. فقد نجحت مرة أخرى فى ادخال البهجة على نفس حبيبها ، ولكنه قد ازداد فى تقدمه فى السن وازدادت رأسه الصلعاء صلعا وأصبحت شفتاه النحيلتان أكثر نحولة . ولكن عينيه الثاقبتين هما فقط اللتان بقيتا على بريقهما . وكان يأتى فى كل ليلة ليزورها ويستريح بين من

يكون معها من محبى السرور • وقد اوصى اشهر مثال فى ذلك الوقت ليعمل تمثالا لها يمثلها فى صورة فينوس جنتريكس ليزين به عمودا فى المعبد الجديد الذى بناه لهذه المعبودة فى الفوروم • وقد أطلق سراح أختها أرسينوى اكراما لها بعد أن سارت مصفدة بالأغلال خلف عربته فى احتفـالات انتصاره ، ولكنه لم يطلق كاليورنيـا أو يتحدث الى كليوباترة فى موضوع زواجهما زواجا رومانيا •

وجعلت كليوباترة من الفيلا وحدائقها الغناء ، منتدى كان يرتاده أمهر وأذكى الرومان وأكثرهم أناقة ليروها ويتمتعوا بكرمها المفرط وحصافتها وعلمها • ولكن الزوجات ـ اللائى لم تكن تدعوهن ـ قد استبدت بهن الغيرة والحقد على « المصرية » وقلن عنها أنها متعجرفة ، وقد أيد هذه الحقيقة المؤرخ المعاصر شيشرون الذى كان يمقتها • لقد كانت طموحة ، وهذه حقيقة لا يمكن انكارها ، ولم تكن على درجة كبيرة من الحرص فى أقوالها وأفعالها ولكنها كيف تكون على غير هذه الصورة اذا راعينا النشأة التى نشأتها ؟ وقلن أيضا بأنها كانت تفسد أخلاق أزواجهن وأخواتهن وأبنائهن • ولكن ذلك كان فرية يجانبهـا الصـدق • فعندما كان قيصر حيـا كانت مخلصة له كل الاخلاص ، وبالرغم من أنهـا كانت ترى كثيرا الضابط الوسيم مارك أنطونيوس الذى وجدته جذابا كفتاة ، فلم يكن بينهما شىء سوى الصداقة •

ولكن الأمر الذى كان أكثر خطرا على قضيتها ، هو أن الرجال كانوا قد بدءوا يشكون فى أنهـا كانت تبث أراء غريبة فى الدكتاتور الذى كان قد أخذيستحوذ على كل السـلطة لنفسه • وكان من بين الرجال الذين أتوا الى الفيلا ، بروتوس ، الذى عبس فى وجههـا ، وأكتافيوس الصغير صهر قيصر • يا له من شخصية سمجة كئيبة ، لقد

تمنت بعد زيارته ألا تراه أبدا مرة ثانية • ان حب قيصر له لا يمكن تفســيره •

وهكذا مر عامان ، لعبت فيهما ملكة مصر دور الملكة فى مجتمع كله من الرجال فى فيلا خاصة عبر نهر التيبر ، ومصر بلا حاكم ، الى أن كان يوم ١٥ مارس من سنة ٤٤ ق•م• عندما امتز العالم لمقتل أعظم رجل فيه لمحاولته فرض حكم مطلق لم تكن روما قد تهيأت له اذ ذاك ، فقد حدث الصــدام بين عبقريته وبين التقاليد الرومانيــة الراسخة فتحطم قيصر فى ذلك الصدام •

لقد طعن قيصر فى مجلس الشيوخ ووجــه الطعنة القاضية الى بروتوس حبيبه العزيز والذى كان يعتبره ابنه ـ « وأنت أيضــا ، يا ولدى ! » وقد ذاعت الأنباء خلال المدينة « لقد قتلنا الظالم » وكان الناس يسمعون هذا الهتاف من المتآمرين وهم يجرون فى الشوارع ملوحين بسيوفهم وخناجرهم التى كانت لا تزال مخضبة بدماء قيصر • ولكن أحدا لم يحيهم أو ينضم اليهم • وقد بهت ســكان المدينــة وحملتهم المصيبة على التزام الصمت •

وعندما انسل أحد عبيد القصر الى داخل الفيلا وأخبر كليوباترة بالأنباء المزعجة أدركت أن حلمها بالامبراطورية العالمية التى يقتسمانها معا قد تبدد واختلطت أحزانها الشخصية بالفرع الذى أصابهــا من النبأ • لقد فقدت حلمهــا وان لم تكن قد فقدت كل شيء مثلما فقد قيصر كل شيء • لقد كانت لا تزال تتمتع بالحيــاة والشباب وببلادها وابنهــا • وكانت على ثقــة من أن قيصر قد عين فى وصيته قيصرون وريثــا له •

واختفى بطليموس الثالث عشر بهدوء عن مسرح الحــوادث فى

أثناء الهرج الذى تلا الكارثة ، وأقامت كليوباترة الى جانبها ابنهـا وأعادت تسميته باسم بطليموس قيصر • ولاشك فى أنه سوف يرث الدكتاتورية التى كانت لأبيه فى أثناء حياته ويزيد عليها تنصيبه ملكا على مصر تحت وصايتها • هكذا كانت تعزى نفسها ولكنها لم تدرك أنه فى اللحظـة التى توقف فيهـا قلب قيصر عن الخفقان ، ظهر الى الوجود عالم جديد ، وأن العالم القديم قد مات بموت قيصر وأنه لم يكن فى هـذا العالم الجديد مكان لها أو لابنها فى خارج مصر •

وحضر مارك أنطونيوس بعد ذلك بليـال قليلة ليخبرها بوصية قيصر • وكان قد كتبها قبل ذلك بستة أشـهر كما لو كان لديه الهام باقتراب منيته فجـأة ، وأودعها لحفظهـا عند الراهبات العـذارى « الفستاليا » وقد حملن الوصية بعد موته الى دار مارك أنطونيوس وفضت وقرئت فى حضور الشهود •

قسم قيصر أملاكه بالتساوى بين سكان روما وأقربائه الذين كان من بينهم أنطونيوس الذى كان قريبا له من ناحيـة والدته ، وعين صهره أكتافيوس كوريث له وابنه بالتبنى ،

« وماذا عن ابنه الحقيقى •• وماذا عنى ؟ »

« انك غير مذكورة فى الوصية على الاطلاق يا صاحبة الجلالة »•

« لابد أن هناك وصية أخرى » •

« لا توجد وصية أخرى » •

ما الذى أثر على قيصر حتى أصدر هذا القرار القاسى ؟ لاشك أنها كالبورنيا ، ولكن الآن وقد أصبحنا نقرأ تلك الحوادث المشئومة بعد مدة طويلة من وقوعها ، فانه يبدو واضحا أن كالبورنيا لم يكن

لها دور فى ذلك ولكن رومانية قيصر هى التى أخذت مكان الصدارة • يجب أن يبقى مصير روما فى أيدى الرومان وليس فى أيدى من تختلط فيهم دماء الاغريق والمقدونيين والمصريين • لقد رفض يوليوس قيصر فى هذه الوصية التى كتبها بنفسه حلم كليوباترة فى امبراطورية عالمية تضم الشرق والغرب ، وركز فقط عينيه تماما على الغرب ، وقد نجحت كليوباترة فى شيء واحد فقط وهو الاحتفاظ بمصر دولة مستقلة • ولكنها فشلت فى كل ما عدا ذلك • ولم يكن أمامها شيء الا أن تعود مع ابنها الى الاسكندرية •

على شاطيء نهر التايمز بلندن تقوم مسلة كليوباترة ، كذكرى لهيام غير وجه التاريخ وقضية عظيمة خسرتها صاحبتها • وتبدو هذه المسلة كل يوم أقصر مما كانت عليه اذا قورنت بالبنايات الخرسانية الحديدية الضخمة التى ترتفع حولها ، وقد تحول لون الجرانيت بما عليه من رموز غريبة محفورة ، الى لون أسود داكن بفعل الدخان والضباب ، ولم تعد قمتها الهرمية ، وهى تواجه شمس بلاد شمالية ، تعكس الأشعة الذهبية كما كانت من قبل •

وهذه المسلة واحدة من اثنتين كانتا قائمتين فى فناء معبد الشمس فى هليوبوليس وقد قطعت أصلا من محجرها فى أسوان قرب الشلال الأول للنيل ونقشت بالكتابات الهيروغليفية التى تسجل الأعمال العظيمة التى قام بها الفرعون تحوتمس الثالث ذلك الجندى العبقرى الذى كان الزوج الثانى لحتشبسوت • وكانت كليوباترة قد أخذتها من هليوبوليس لتقيمها فى فناء المعبد الجديد الذى كانت تشيده فى الاسكندرية وسمته « قيصريوم » تكريما لزوجها الجديد وحبيبها الجديد مارك أنطرنيوس • وهناك ظلت هذه المسلة مع أختها أمام المعبد الفخم تحيط بهما الأعمدة الرخامية البيضاء فى أجمل مدينة

فى العالم الهللينستى . لقد شاهد هذا المعبد الرجل الذى شيد تكريما له وهو يرتفع الى قمة انتصاره ثم رأى فشله وسقوطه ، وقد أذل معه المرأة والملكة التى ترك لها كل شىء وأضاع كل شىء . ثم سقطت المسلة أيضا وبقيت مهملة بين أطلال المعبد والبيوت الطينية فى المدينة العربية التى أنشئت حولها حتى حملت فى النهاية بعيدا عبر البحر لتقف منتصبة مرة أخرى فى بلاد بعيدة جدا . أما الثانيـة فتقوم الآن فى نيويورك .

لقد أصبح الحب الذى أقيمت هذه المسلة لتخليده أسطورة من الأساطير تناولها الشعر وخلدها مثلما خلد هيام هلويز وآبلارد ، أو حب تريستان وايزوليت أو حب لانسلوت وجينيفير ، ولكن ما هى الوقائع الصحيحة ؟

عادت كليوباترة ومعها قيصرون الصغير الى وطنه مصر بعد موت يوليوس قيصر وأخذت تباشر حكم البلاد . ونظمت الضرائب واهتمت بالزراعة والرى وقوت جسور القنوات المهملة . وبالرغم من المجاعة التى سببها انخفاض النيل الذى أبى أن يرتفع أعلى من منسوب « ذراع الموت » وهو منسوب مقياس النيل الذى كان ينبىء عن حدوث الكارثة ـ فقد حققت قدرا من الرخاء والطمأنينة للبلاد . كما أن اعتقادها فى نفسها بأنها ايزيس ، أعاد للناس ثقتهم بأنفسهم وايمانهم الدينى . وكانت سياستها التى سارت عليها ، وهى منح السلطة الى المصريين الوطنيين بدلا من قصرها على المستوطنين من الاغريق والمقدونيين ، سببا فى وضع حد للقلاقل المزمنة فى مصر العليا ، واكتسبت من محبة الناس وولائهم أكثر مما تمتع به أبوها أو جدها من قبل .

وقد عبر الأسقف حنا النيقى ، وهو كاتب مصرى من القرن

السابع الميلادى ، عن المشاعر المصرية نحوها بقوله « كانت الملكة كليوباترة امرأة ممتازة لصفاتها الشخصية وقوة أعمالها . ولم ينجز أحد من الملوك من أسلافها مثل تلك الأعمال العظيمة التى أنجزتها . لقد عملت كل شىء بسخاء لمصلحة البلاد وقد قامت حتى وقت وفاتها بأعمال عظيمة كثيرة عديدة وأنشأت مؤسسات هامة (١) .

فقد زادت من تجميل الاسكندرية وأعادت تكوين مكتبة الميوسيون بعد أن احترق الكثير من كتبها فى هجوم قيصر على الأسطول المصرى . وشجعت العلماء والمشتغلين بالعلوم الكيماوية والرياضيات والفلاسفة ، على أن يكرسوا أنفسهم مرة أخرى لأعمالهم ورعت فنون التصوير والفسيفساء والنسيج . وفى أيام حكمها بلغت تماثيل الاسكندرية الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق المطلى والتى كانت توضع فى قبور الأحياء كقرابين شكر للآلهة درجة عالية من جمال وروعة الصناعة كما شجعت أيضا الصناعات المحلية واهتمت لدرجة كبيرة بتطور الكيمياء : السموم ، والروائح ، والعطور فان كل هذه الأشياء لم تغب عن دائرة فكرها المتوقد .

وقد اشتهرت — حتى بين حاسديها من الرومان — بقدرتها على صنع الذهب ولكن ذلك هراء ولو سمعت به لكانت أول من يهزأ به ، احتقارا له ، وعلى أى حال فانها لم تكن بحاجة الى ذلك . فقد كانت بلادها ذات موارد كثيرة وكان لديها كنز البطالمة العظيم الذى كانت تستطيع أن تأخذ منه متى أرادت ومن المحتمل أنها كانت تستطيع أن تعيش حتى آخر أيام حياتها على هذه الصورة قانعة بأن تحكم كملكة مطلقة على مملكة مستقلة والى جانبها ابن ليخلفها على العرش . ولكن تيارات التاريخ كانت تجرى فى اتجاه مضاد ،

---

(١) Zotenberg, H., Chronique de Jean Evèque de Nikiou.

ولا يمكن أن يستمر طموحها وحلمها وقتا طويلا • ويطغى البحر ببطء على مدينـــة الاسكندرية ولهــذا فمن يرد البحث عن قصرهـا وعن الميوسيون يجب أن يبحث عنهما تحت المـاء وهكذا كانت روما قد أخذت تطغى أيضا على مصر وتقترب منها ببطء •

لاحت أمام عينى كليوباترة فرصة أخرى لتقتسم حكم العالم ؛ ان اقتسام السلطة بين شخصين أمر كثير الصعوبة ، فقد أصبح مارك أنطونيوس ، وأكتافيوس ، ابن قيصر المتبنى ، والوارث لحكمــه ، متنافسين وأصبح التصادم بينهما لا مناص منه • وقد صممت كليوباترة على أن تظل مصر على الحيـاد وألا تساعد أحدا من الجانبين • ولكن أنطونيوس الذى كان فى حاجة الى المجد والثروة من أجل أغراضــه الخاصة للوصول الى ما ينشده من قوة ، لم يكن ليترك مملكتها الغنية وشأنها • وعندما استدعاها لتمثل أمامه فى طرسوس بآسيا الصغرى ، كان هدفه أن يبين للعالم أن مصر كانت مملكة تابعة لروما مثل سورية أو مملكة هيرود (اليهودية فى فلسطين) •

وذهبت كليوباترة ولكن برضائها التام كما تريد ، ففتحت ما لديها من كنوز واستدعت أمهر الصناع فى الذهب والفضة والأحجار الكريمة والصباغة والستائر المنسوجة •• كمـا دعت أعظم طهاتها ومقـدمى الشراب واصطحبت أجمل الغلمان والبنات ليقوموا بخدمتها •

وقد أخذ شكسبير الوصف النثرى للمؤرخ بلوتارك عن وصولها وكتبه شــعرا :

كانت السفينة التى أقلتها أشبه شىء بالعرش اللامع

تلمع فوق المـاء ، وكانت مؤخرتها من الذهب المطروق

وقلوعها أرجوانية اللون ومضمخة بالروائح العطرية الى الحد
الذى جعل الرياح سكرى بالحب معهم . وكانت المجاديف من الفضة
وكانت تضرب صفحة المـاء على نغمات الناى ، وجعلت
المـاء الذى ترتطـم به يسـير خلفهـا بسرعـة أكثر
كأنمـا هـام بضرباتهـا . أمـا هى نفسـها
فانهـا تزيد وتعـلو عن كل وصـف ، كانت تضطجـع
فى سرادقها ، المصنوع من قماش من خيوط الذهب من نسيج
تزيـد فى صـورتها على فينـوس ، حيث نـرى
الصناعة قد قامت فى جمالها على الطبيعة وعلى الجانبين منها
وقف غلمان رشيقون ، بخدودهم غمازات ، وكل منهم يشبه كيوبيد
وهو يبتسـم
ومعهم مراوح ذات ألوان متعددة ، كأنما كان نسيمها الذى ترسله
يزيد من حمرة الوجنات اللطيفة التى كانت ترطبها
ثم تعود فتلغى ما عملته ، لتعمله من جديد

وكانت كليوباترة عندئذ قد بلغت التاسعة والعشرين وكانت فى ذروة جمالها وتقاطر أهل المدينـة الى أرصفة الميناء ليروها ، وأرسل أنطونيوس رسالة ترحيب بها ودعوة لتناول العشاء معه فى تلك الليلة. وكان ردهـا على ذلك أن وجهت اليه دعـوة منها فقبل أنطونيوس الدعوة وكان ذلك نصرا لها .

وفى العشاء قدموا لهم أفخر الأطعمـة والأنبذة على صحـاف ذهبية وهيأت كليوباترة نفسها لكى تخلب لب ضيفها القوى . وكانت

زينتها وعطرها وملابسها المغرية ، تهدف الى فتنته وخلب لبه وكان على جمالها وكياستها وصوتها الحنون أن تقوم بالباقى .

ولم يكن أنطونيوس يمتنع عن شرب الخمر مثل قيصر بل كان سكيرا مفرطا فاستمتع بلذة الطعام الفاخر . وكانت هى أيضا على صواب عندما قدرت أنه سوف يبهر ناظريه ما يراه من تلك الفخامة المبهرة التى تحيط بها وذلك الاسراف فى الأدوات المنزلية والأطباق الذهبية التى قدمتها له بعد الانتهاء من العشاء والستائر الثمينة ، وترف الشرق الذى كان لا يستطيع أن يقاومه جندى رومانى بسيط . لقد بهر كل ذلك أبصاره ، ولكن الشىء الأهم من ذلك كله هو وقوعه تماما فى حبها .

والقصة معروفة جيدا . فقد تخلى أنطونيوس عن مستقبله فى روما ليتبع كليوباترة الى الاسكندرية ويستمتع بحبها . وبعد شهور وضعت توأمين هما الاسكندر هليوس ، أى الشمس ، وكليوباترة سيلين ، أى القمر ، وكان حب الأم للأطفال سببا فى تهدئة طموح كليوباترة القلق بعض الوقت ، وكانت تستطيع أن تهنىء نفسها بأنها قد أنقذت مصر مرة أخرى من روما ولكن الثمن الذى كان يتحتم عليها أن تدفعه كان مختبئا لحسن الحظ فى ثنايا المستقبل .

وماذا كان من أمر أنطونيوس ؟ فقد كان لديه جنده المدربون خير تدريب على القتال أكسبتهم الحروب صلابة ، وكان من السهل عليه أن ينحيها عن العرش وأن يستولى على كنز البطالمة الشهير ويعود الى روما بطلا : ان لم يكن غازيا فعلى الأقل رجلا يجلب الثراء للجمهورية . ويكون اخضاعه للملكة المتعجرفة التى حاربت بعناد من أجل استقلال بلادها ، سببا فى جعله شهيرا الى حد كبير وسيجد أكتافيوس فى هذه الحالة أنه من الصعب عليه منازعته فى السيادة .

ولكنه أحب كليوباترة . لقد أحب نساء كثيرات من قبل ، ولكن هذا الحب كان الحب الأكبر فى حياته . فطرح مصلحتــه الشخصية وراءه ظهريا واستقر فى الاسكندرية ، وأغرق نفسه فى جميع الملذات التى قدمتها له ملكته المتقلبة ، وكل ما كانت تستطيع أن تقدمه المدينة العالميــة .

ولكن الى أى مدى أحبت كليوباترة أنطونيوس ؟ انه من الصعب أن نعرف ولكنها كانت زوجة مخلصة له أمينة أنجبت له عدة أطفال خلال السنوات العشر التى عاشاها معا ، ولكن سحر أنطونيوس كان يخفى وراءه انغماسا فى الملذات ونقصا فى التوازن . وعلى النقيض من قيصر الذى كان متعففا زاهدا فى الطعام والشراب ، كان أنطونيوس يكثر من الشراب الى حد العربدة ، وعلى خاتم كليوباترة فوق الحجر المصنوع من الأماتيست جملة صادقــة وهى أن الثامل عبد لغيره . انها كانت أقوى الاثنين وأشدهما ذكاء . لقد عرفت كيف تتملقه كما عرفت كيف تخلب لبه وتفتن مشاعره . فأى رجل يستطيع مقــاومة اغراء المناداة به الها ، يعبد فى معبد فخم بنى خصيصا تكريما له ؟ كان هذا بعد زواجها منه ، وبعد أن طلقتــه فى النهاية زوجته الرومانيــة الفاضلة أكتافيا أخت أكتافيوس

لقد حطمت كليوباترة العادة القديمة المقدسة التى كانت تقضى بأن الاحتفــالات بمواكب النصر الرومانيــة لا يمكن اقامتها الا فى روما فقط ، وذلك باقامتها موكب انتصار رائع لأنطونيوس فى الاسكندرية لتخلد ذكرى حملاته الآســيوية ، وقد ركب فيهــا أنطونيوس عربة ذهبية تجرها جيــاد بيضاء فى لون اللبن يسير من خلفه الملوك أسرى مصفدين فى الأغلال .

وقد راقب أكتافيوس ومجلس الشيوخ والشعب الرومانى ذلك

من بعيد وقد استبد بهم الحنق والمرارة ، وأخذت تتوالى التقارير الشنيعة من ازدياد اعتزاز الملكة التى كانوا يكرهونها ويخشونها ٠ لقد أصبحت الاسكندرية عاصمة الامبراطورية الشرقية ، وهذا ما لم تستطع الامبراطورية الغربية أن تقبله وتصبر عليه ، كما أنها لم تستطع أن تسكت على معاملة أنطونيوس لزوجته الشرعية التى كانت تتحلى بكل ما يجب أن تكون عليه السيدة الرومانية : فقد كانت امرأة فاضلة رقيقة الطباع ، كثيرة الاحتمال ورحيمة ، وازداد الحقد العميق فى صدر الشاب الرزين العاطفة أكتافيوس ، على عاشقى الاسكندرية الى درجة الشر من أجل أخته ٠

ولم يكن أكتافيوس هو الرجل الوحيد الذى كان يكره كليوباترة ٠ فقد كان هيرود ملك جوديا عدوها اللدود أيضا وقد أذاع على الملأ أنها حاولت أن تغريه ٠

ولكن الحقيقة أن العكس هو الصحيح ٠ وكان أنطونيوس قد وهب كليوباترة بعض الممالك الصغيرة التى فتحها فى آسيا الصغرى كهدايا زفاف ، ولكنها كانت تبغى المزيد ٠ وكانت تنمو فى وادى الأردن ، بالقرب من أريحا حدائق البلسم الشهيرة ذى الأريج العطر الذى كان جميع الناس فى العالم القديم وفى العصور الوسطى أيضا يمتدحونه جدا من أجل الزيوت العطرية التى كانت تستخرج منه وتستخدم فى الطقوس الدينية ٠ وكان هيرود ملك جوديا محتكرا لها٠

وطلبت كليوباترة من أنطونيوس : « أعطنى جوديا أيضا » ولكن أنطونيوس الذى كان لا يستطيع أن يرفض لها سؤالا فى العادة استبد به العناد وأجابها « اننى لا أستطيع ، ان هيرود صديقى لى » ٠ فلم تنس كليوباترة ذلك ولم تغفره لهيرود ٠ ولكن اذا لم تستطع أن تأخذ مملكته فلا أقل من أن تأخذ حدائق البلسم ٠

فبعد زواجهما الذى تم فى أنطاكية على الشاطئ السورى ، قضت هى وأنطونيوس الشتاء هناك • وعندما تركته لتعود الى مصر بمفردها وضعت نفسها تحت حماية هيرود وقامت بزيارة حدائق البلسم • وقالت كليوباترة فى لهجة الآمر لهيرود « انك ستؤجر لى الحديقة مقابل مائتى وزنة من الذهب سنويا » فاستشاط هيرود غضبا الى أبعد الحدود وبدأ يضع الخطط الشريرة لكى يقطع عليها الطريق ويقتلها عندما تغادر بلاده • ولكن نفوذ روما كان يكتنف العالم بصورة قوية وكان أنطونيوس هو سيده وأقوى رومانى فى الشرق •

انه اذا نفذ ذلك أصبحت مملكة هيرود ومعبده فى أورشليم فى خطر • ولهذا أرسل فى استدعاء القتلة الذين كان قد بعث بهم لقتلها بعد الترصد لها فى الطريق ، ووافق على طلب كليوباترة الذى أثار غضبه محاولا الظهور فى أحسن مظهر سمح ولكنه انتقم لنفسه باسماع الرومانيين قصصا كلها فضائح وافتراء ، لأنهم كانوا راغبين فى ذلك •

ولم تكتف كليوباترة بما كانت تجنيه من أرباح من زهور البلسم الثمينة ، بل أخذت تجلب عقل وبذور البلسم الى مصر وتزرعها بضاحية المطرية قرب هليوبوليس فى أرض النيل الخصبة • وقد نمت النباتات ، وعندما لجأت الأسرة المقدسة الى مصر بعد أقل من نصف قرن بعد ذلك الوقت كان أول مكان استراحت فيه بعد عبورها الصحراء ، حسبما جاء فى الروايات المأثورة ، كان تحت شجرة فى حديقة البلسم بالمطرية • ويدعى الكتاب المسيحيون بأن النباتات لم تزدهر جيدا وتنتج زيوتهم المقدسة الا بعد مجئ العذراء والمسيح ومباركتهما لها •

وحتى يومنا هذا لايزال الناس من جميع الأديان يزورون شجرة الجميز ــ أو نبتة وليدة من نوعها على الأقل ــ ويعلق عليها السذج

والبسطاء من المتدينين قطعا من ثياب قديمة كقرابين شكر ، ولكن حديقة بلسم كليوباتر تزرع الآن بالذرة وقصب السكر (١) • على أن اختفاء نباتات البلسم لم يكن منذ أمد طويل اذ أن الحجاج والرحالة الأوربيين حتى أيام القرن السابع عشر ، كانوا يصفونها ويتحدثون عن الثروة التي يجنيها حكام المسلمين من تلك الحدائق •

***

لقد أعد المسرح للفصل الأخير من رواية حياة كليوباترة • تتابعت الأحداث سريعا حتى وصلت الى قمة المأساة دون أي توقف يذكر • هل كانت تريد أن تصبح امبراطورة روما ؟ • وكثيرا ما تساءل الرومان الذين استبد بهم القلق ، صحة ذلك ، وهل كانت تهدف اليه ، خصوصا بعد أن أضافت الى اسم ابنها لقب « ملك الملوك » ؟

وها هي روما تقف ضد الاسكندرية وأكتافيوس ضد أنطونيوس وكليوباترة • وأصبح من المستحيل أن يعيشا معا في سلام ويتحتم عليهما أن يخوضا غمار حرب الى النهاية •

وقد تقابل أسطولاهما المتحاربان أمام أكتيوم على شاطىء البحر الأدرياتيكي وقد هزم أنطونيوس•أما سفن كليوباترة فانها بدلا من أن تستجمع قواها وتهب الى نجدته فقد أخطأت تفسير الاشارة وقفلت عائدة الى وطنها فزادت الى سفن أنطونيوس اضطرابا •

وتبع أنطونيوس كليوباترة ، مهزوما حانقا ، مدركا أن كل شيء قد ضاع ولا يمكن استرداده ، فلم يتحدثا الى بعضهما البعض • وظلا على خصامهما مدة ضعة شهور وكانت اتهاماته لها مليئة بالمرارة وبدا الأمر كما لو أن حبهما قد مات ، ولكن هذا الحب بدأ ينتعش تدريجيا فيما بعد • وقد قالت كليوباترة « سنعيد بناء أسطولنا ونحارب

(١) تحولت الآن الى منطقة سكنية الأسف في حي المطرية •

أكتافيوس مرة أخرى » • ولكن لونا من الكسل والضعف أصاب قوته بالشلل وبدلا من أن يضع الخطط أخذ يشرب الخمر ويضحك مع رفاقه وبنى لنفسه خلوة على مرفأ العود الحميد ، وأخذ يقول مازحا انه سوف يعيش مثل ثيمون أثينا فى عزلة عن الناس وأنه سينهى أيامه وهو يرتدى الأسمال ويأكل القواقع ! ولكن الوقت لم يحن بعد ، وكان عليهما أن يعيشا فى سعادة كما كانا قبل ذلك • ان السرور يصبح عقارا مفيدا عند اقتراب الموت •

حتى الآلهة أخذوا يتخلون عنه كما تخلو عن الاسكندرية أيضا• وفى احدى الليالى سمع الناس الاله ديونيسوس الذى كان يحب أنطونيوس وأنطونيوس يحبه ـ يغادر المدينة فى صخب من الموسيقى والأغانى السماوية وعرف كل انسان أن الكارثة على وشك الحدوث •

وكانت كليوباترة مثل كل فرعون من الفراعنة شيدت ضريحا ، وكان بناء مكونا من طابقين فوق ربوة صخرية بالقرب من محراب مغارة ايزيس الذى أحبته وكانت تأتى لتصلى فيه منذ أن كانت طفلة • وملأت غرف المقبرة السفلى بالكنوز والذهب والأمتعة الثمينة ولبان الدكر على أمل أن تحرقها كلها معها فى النيران التى كانت تتوقع أن توقدها لتحرقها هى وأنطونيوس اذا ما أسرهما أكتافيوس •

ولكن هذه الخطة اليائسة الأخيرة فشلت أيضا • فقد جاءت النهاية فى أواخر شهر أغسطس سنة ٣٠ ق•م• ذلك الشهر الحار الرطب الذى يرتفع فيه النيل • لقد وقف أكتافيوس عند بوابة كانوبوس ، وارتدى أنطونيوس عدة الحرب وخرج ليحاربه • ولما حاقت به الهزيمة مال على سيفه ليقتل نفسه ولكن هذه المحاولة فشلت أيضا ، وحملوه وهو يعانى سكرات الموت الى كليوباترة التى كانت قد لجأت الى داخل الضريح • وصحا فى قلبها كل حبها القديم

له عندما وقعت عليه عيناها وهو يعانى الموت ، فأخـذت تقبله وهى تنتحب وغطته بثيابها ومات أنطونيوس بين ذراعيها .

وكانت هناك فرصة واحدة أخيرة لانقاذ كل شيء : لم تكن حياتها هى الشيء الذى تهتم به فى تلك اللحظة بل كانت حياة أطفالها وحياة مصرها الحبيبة . لقد سبق لها أن أنقذتها مرتين عندما تغلبت فى كل مرة على واحد من الرومانيين .

ووقعت فى الأسر ، ووجـدت نفسها فى حضرة أكتافيوس الذى استولى على المدينة ، وعند لقائهما التقت مدنيتان وجها لوجه وأخذتا تتصارعان من أجل السـيادة . استقبلها أكتافيوس وهو جالس على أريكة ، وكان شعرها متهدلا من الحزن وثيابها الشفافة منحسرة عنها وهى تقف أمامه . وقد بذلت آخر ما فى طوقها . فهل كان فى استطاعتها استمالة الشاب الرزين الى جانبها ، ذلك الشاب الذى أحست عندما زارها فى روما منذ زمن بعيد أنه غبى الى أبعد حد ؟ .

ولكن « الشاب الطبيب » كما كان يسـمى ، أصابته صدمة عند رؤيتها ولا شيء أكثر من ذلك . فنظر اليها ببرود وأملى عليها شروطه ببرود . كان يجب عليها أن تذهب معه الى روما وأن تمشى فى موكب انتصاره هى وأطفالها .

وكانت كليوباترة قد شاهدت أختها أرسينوى وهى تسير مصفدة بالأغـلال خلف عربة قيصر . وهـذا لن تفعـله أبدا . وقد سـألت المنتصر ، جميـلا واحدا ، هل تستطيع أن تذهب وتسكب قربانا من الخمر على قبر أنطونيوس ؟ . وقد منحها أكتافيوس ما سألته .

وانسلت خارجة وقد تدثرت بملابس ثقيلة مع تابعتيها المخلصتين شارميون وايراس ليصاحبها عند تقديم ولائها الأخير لزوجها الميت .

وعندما عادت ثانيــة الى الضريح أغلقت على نفسها الباب فى الغرفــة العليا من مقبرتها •

وأحضر عبد من عبيدها الى الضريح سلة من التين لتأكل منه • ومن المحتمل أنه كان بداخل الســلة تلك الحيــة التى اختارتها أداة لموتها • وقد شك أحد الحراس فى الأمر ولكن عندما اقتحم الجنود الرومانيون غرفتها وجدوا الملكة ترقد مسجاة وهى تلبس كل ثيابهــا الملكية وقد وضعت على جبينها تاجها الملكى المحلى برأس الحية الذهبية « سيدة الحياة » وكانت ايراس عند قدميها وقد فارقت الحيــاة ولم تبق على قيد الحياة الا شارميون التى كانت تترنح وهى تسوى وضع التاج فوق رأس كليوباترة •

وقد سألها الجند الرومان وقد امتلئوا ذعرا « هل يصح ذلك ؟ » فأجابتهم « نعم • لقد أحسنت صنعا » وسقطت ميتة •

لقد ماتت كليوباترة آخر بطالمة مصر ، ميتة ملكية ، مفضلة الموت على فضيحة مخزية واستهزاء روما بها ، وقد أثبتت طريقة موتها كيف أنها آمنت كل الايمــان بالديانة المصرية • ان الكوبرا مثل « سيدة الحياة » التى كانت تتحلى بهــا كملكة ، كانت شعار مصر الســفلى ورسولة اله الشمس الذى كان ينتظر ليضم ابنته اليه لتعيش خــالدة الى جواره •

وكانت كليوباترة وقتئذ فى التاسعة والثلاثين وقد حكمت اثنتين وعشرين سنة وقد دفنها أكتافيوس مع أنطونيوس وأقام أمام مقبرتهما تمثــالين لشــارميون وايراس اللتين أصبح اسماهمــا رمزا للولاء والتضحيــة وقد قتل أكتافيوس قيصرون اذ أنه كان لا يستطيع أن يسمح بوجود منافس يدعى لنفســه حقوقا ، وأخذ أطفالهــا الآخرين ليمشوا فى موكب انتصاره فى روما • وأصبحت مصر ولاية رومانية •

ما الذي يظنه الصيادون ، والأطفال الذين يجلسون على الصخور عن نهاية ربوة السلسلة وهم يلقون بشخوصهم فى ميـاه البحر الأبيض المتوسط المتلألئة وخلفهم عمـارات الاسكندرية المشيدة بالخرسـانة المسلحة وأمامهم قلعـة السلطان قايتبـاى على جزيرة فاروس ، اذا ما علموا أنه فى المكان الذين يجلســون فيه جرت أحـداث احـدى المـآسى العالمية العظيمة ؟ هل يسقطون من أماكنهم الخطرة ، فى مياه البحر فرارا من الفزع الناشىء من الخرافات ؟ •

من الأرجح أنهم سوف يهزون أكتافهم استهجانا • ان اليوم يوم طيب للصيد شكرا لله • لقد اصطاد حسان أضخم سمكة هـذا العام ولعل الصيد الطيب يستمر باذن الله • ولكن بالرغم من عدم اهتمامهم وعدم مبالاتهم بالرغم من كل المؤلفات التى كتبت عنها والتى أطلقوا فيها أسماء لاذعة عليها مثل « الوحش السفاك » أو « حية النيـل العجوز » فانها كما قال هوراس الشاعر الرومانى الشهير « ان العمر لا ينال منهـا ولا تستطيع العادة أن تجعل صـورتها الأبدية مبتذلة مهانـة » •

لقد ذمها الرومان عمدا خدمة لمـآربهم الخاصة وافتروا عليهـا ونظموا دعاياتهم للنيل منها وسبها ، وعلى قرون عديدة كانت الصورة التى رسموها لها هى الصـورة التى عرفهـا الغرب • ولكن المؤرخ بلوتارك بالرغم من أنه بدأ كتابته عنها متأثرا بوجهة النظر الرسـمية فانه لم يتمالك نفسه من الكتابة عنها بالاعجاب المطلق والعطف كلما تقدم فى سرد قصتها • وقال عنها : « ان سحرها كان يجد طريقه الى أغوار نفوس الرجال » ولكن روما لم تكن تكرهها فحسب ولكنهـا كانت تخشاها كما خشيت رجلا آخر فى زمانه وهو هانيبال •

وكانت كليوباترة محبوبة ومحترمة فى مصر ، بل كادوا يؤلهونها

بعد موتها . وكانوا يشيرون اليها ببساطة باسم « الملكة » وقد دفع أحد رعاياها المصريين ألفى طالنت [1] لينقذ تماثيلها من التحطيم . وقد أصبحنا اليوم أكثر اقترابا من وجهة نظرهم . هل كان حلمها طموحا أنانيا فقط أم كان شيئا أعمق من ذلك ؟

وكان الناس فى أيامها كثيرى القلق من جراء ما تحدثت به احدى النبوءات بأن كليوباترة سوف « تفتتح عهدا ذهبيا تشترك فيه آسيا وافريقيا فى ابعاد الحرب .

وستترك الشرور الأرض وسينتهى النزاع بين الشرق والغرب الى الأبد ويتصافيان فى عهد من العدل والحب » .

ومهما كان الدافع لها فما من أحد يستطيع أن ينكر أنها كانت قد تأثرت بروح الاسكندرية . وبالرغم من أنه لم يعد باقيا بالاسكندرية اليوم شيء من مدينة كليوباترة الرخامية فان سحرها لا يزال يعيش فيها فى مياه الميناء ، فى البحيرة التى ينمو فيها البردى ، وكأنها مرآة تنعكس فيها السماء الصافية ، وفى الزهور العديدة التى تلمع كالجواهر والتى تنبت بجمالهـا بين الرمال لفترة قصيرة ، كما فعلت ذلك لها ولقيصر ليسعدا برؤيتها منذ ألفى سنة .

---

(١) كان يختلف وزن الطالنت من آن لآخر ، وفى هـذا الوقت كان ٥٨ رطلا — ولم تذكر المؤلفة الكتاب ومن أى معدن كانت . (المراجع)

شجرة الدر

تحت السماء الباهتة فى احدى بلاد الشـمال ، تمدد رجـل فى مقتبل العمر شاحب اللون ، « كانت حياته كلها صلاة وكل هدفـه أن ينفذ ارادة الله » ، كان هذا الرجل تفتك به الحمى التى جعلته يظهر كما لو كان على وشـك الموت • وبينما كان يتقلب من جنب الى جنب فى الدورات المتعاقبـة من النوبات بين القشعريرة وارتفاع الحرارة الشـديد التى تدل على المـلاريا ، كانت تعذبه فـكرة أن العرب قد امتلكوا بيت المقدس ، مدينة الصليب ، وعندما استدعى اليه زوجته المخلصة والقسيس الذى سيعترف له ، أقسم فى حضـورهما أنه اذا ما استرد عافيتـه فسـوف يذهب لينقذ بيت المقـدس ويستردها من العـرب •

وقد استرد عافيته فعلا ، وكان يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨ م بداية الحملة الصليبية السادسة • ففى ذلك اليوم ، أبحر ملك فرنسا لويس التاسع « القديس لويس » الذى يبلغ من العمر ثلاثين عاما ، من ميناء « ايج ــ مورت » ومعـه ١٨٠٠ سفينة و ٥٠٠٠٠ رجـل ، وبرفقته زوجته الملكة مارجريت أميرة بروفانس وأخواه روبير كونت أرتوا وشارل كونت آنجو وزهرة نبلاء وأمراء فرنسـا ، ليشتبك فى حرب مقدسة مع الصـالح أيوب حفيد صـلاح الدين سـلطان مصر وسوريا وصاحب بيت المقدس •

وكان من بين جماعتهم جان دى جوانفيل ، رئيس دائرة شامبين الذى كتب تاريخ ما شـاهده من الأحداث • وانضمت الى الأسطول

الملكى الفرنسى فى عرض البحر السفن الانجليزية التى كانت تحمل فرق الجنود البريطانية المؤلفة من النبلاء وأتباعهم تحت امرة وليم لونجسورد ، وايرل سالسبورى ، وكان من المقرر أن تكون قبرص قاعدتهم الشرقية حيث كان الملك هنرى قد وافق على الترحيب بهم وقد تمت الاجراءات الأولية لكى تخزن هناك المؤن قبل وصولهم •

وفى أقل من شهر ، وصل أسطول الصليبيين الى خارج مياه ليماسول فى ١٧ سبتمبر سنة ١٣٤٨ م • وانضم اليهم نائب قائد فرسان سان جون الاسبتارية فى بيت المقدس وقائد فرسان الداوية (فرسان هيكل سليمان) والبارونات والفرسان المسيحيون من مملكة عكا الصليبية •

وقد جاءوا معهم بأنباء تفيد أن السلطان الصالح قد انتشرت الأقوال عن مرضه بمرض عضال ، وأن ابنه توران شاه لا يمكن أن يعمل له حساب لأنه كان ثملا على الدوام وقد أفسدته الملذات • واقترح بعض العظماء الذين كانوا فى قبرص بأنه من الأفضل الانتظار وكانت حجتهم فى ذلك أنه اذا حدثت وفاة السلطان فان ابنه سيكون عدوا أقل خطرا •

بل وصل الأمر ببعضهم الى حد النصح بالاتصال بالخليفة فى بغداد الذى كان يعتبر الرئيس الدينى الأسمى للعالم الاسلامى • فاذا اتضح له أن قوتهم الصليبية هائلة لدرجة كبيرة فربما يوافق على أن يجبر الصالح على التنازل عن بيت المقدس فى مقابل بعض البلاد الأخرى التى كان المسيحيون يحتلونها •

ولكن لويس الذى كان يبدو ضعيف البنية نحيلا رقيقا ، كان ذا خلق عنيد • انه أتى ليشن حربا مقدسة ضد الذين كانوا فى نظره كفارا

وليأخذ بيت المقدس الى الأبد من خليفة وسلطان المسلمين • وعلى هذا فقد استقر الرأى على خطة أخرى ، أنهم يمضون شهور الشتاء فى قبرص ليهيئوا الفرصة لانضمام مجندين جدد الى الحملة ، وفى الوقت نفسه يكون قد تحسن الجو وأصبح أكثر ملاءمة لسفنهم الصغيرة ، ويشيعون بأنهم كانوا يستعدون لغزو سورية وبهذا يبعدون السلطان وجيشه عن البلاد • وربما أدت هذه الخطة الى جعل السلطان يترك مصر ، القلب النابض لامبراطوريته وأغنى أقاليمه ، مكشوفة وعرضة للهجوم ، فاذا أمكنهم النزول الى البر بسلام على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من دمياط على المصب الرئيسى للنيل فان ذلك سوف يمكنهم من السفر مصعدين بطريق النهر والاستيلاء على استحكامات قلعته وعلى عاصمته القاهرة دون مقاومة كبيرة •

وقامت الشائعات الكاذبة التى روجها العملاء بطريقة خبيثة بما كانوا يتوقعونه منها • فقد اتجه السلطان بجيوشه الى سورية ، بينما استعد الملك لويس وحلفاؤه وأعدوا سفنهم للاتجاه بها الى ناحية أخرى •

***

كان الحمام الذى يصفق بأجنحته فى سماء البلاد العتيقة ذا ألوان برونزية وشقراء ورمادية وذات علامات واضحة • كان الحمام يصفق بأجنحته وهو يحلق فى الجو المصرى الدافىء ، من أبراجه ذات الفتحات والمشيدة بقوالب الطوب اللبن ، أو الجير الأبيض والمبينة على شكل المعابد ذات الأبراج ، وقد أحيطت بأشجار النخيل وهى تعكس صورتها فى مياه النيل الخضراء الداكنة • وكان الحمام يحلق بالمئات ويدور بسرعة ثم يهبط مرة أخرى ليلتقط غذاءه فى حقول قصب السكر والذرة والبرسيم كما كان الحال عندما كانت حتشبسوت

ونفرتيتى وكليوباترة ملكات يحكمن مصر ، وكان قد مضى ما يقرب من ألف وثلاثمائة عام منذ وفاة كليوباترة •

وكان البطالة والرومان قد ذهبوا ودحرت الجيوش الاسلامية خلفائهم من البيزنطيين المسيحيين • وأصبحت مصر دولة اسلامية تعتنق عقيدة الاسلام ما عدا أقلية مسيحية صغيرة نشيطة من القبط تنتسب الى سلالة الفراعنة وشعبهم •

ولم يعد الحمام يسمع فى أثناء طيرانه صوت آلات السستروم(١) تنبعث من فناء المعبد أو جلجلة الأجراس تدوى من أبراج الكنيسة ، وأصبحت تسمع أذان المؤذن للصلاة ينبعث من مآذن المساجد العالية خمس مرات فى كل يوم •

الا أن حمامة بيضاء كان طيرانها يختلف عن طيران الحمام الآخر • فقد كانت تطير مارة بالطيور الأخرى متجهة نحو المدينة دون أن تلقى بالا الى غيرها ، بدلا من الدوران السريع العابث أو النزول الى الأرض لالتقاط الأكل أو تفرد ريش أجنحتها فى أشعة الشمس الدافئة • انها حمامة ملكية ، رسول من رسل الملك ، تحمل رسالة سرية لسيدة شابة تقيم فى حريم السلطان الذى كان يحرم الاتصال به على أى انسان • وظلت الحمامة تطير قدما بدون أن تخطىء فى المرحلة الأخيرة فى رحلة طويلة متتابعة •• فوق الصحراء ، وفوق المسلة وأطلال المعبد الذى كان قد شيد لعبادة الشمس فى هليوبوليس فوق حديقة البلسم وشجرة العذراء قاصدة الأسوار القوية والبوابات الضخمة لمدينة القاهرة « المحروسة » وفى الشوارع والأسواق المزدحمة التى كانت تطير فوقها ، كان يوجد حمام محبوس فى أقفاص ، كما كان يوجد

---

(١) الشخاشيخ •

أرقاء من بنى الانســان من كل لون ، كانوا يباعون ويشترون ، ولكن الحمامة البيضاء لم تلق بالا الى هولاء أو أولئك واستمرت فى طيرانها محلقة فوق المدينة الصاخبة لترتفع فوق الجبل وأسوار « قلعة الجبل » ذات البروج المحصنة .

واسم « قلعــة الجبــل » هو الاســم العربى للقلعــة التى كان صــلاح الدين يوســف بن أيوب ، الذى كان الصليبيون يســمونه « سلادين » (١) فقط ، قد بناها على مرتفع من تلال المقطــم المتجهمــة والتى تشرف على المدينة ، وفى الفناء الشمالى الخارجى كانت هنــاك أبراج حمام ، ولكن هذه الأبراج كانت للحمام الزاجل العادى لتسلم فيه رسائلها . أما الحمامة البيضاء فقد تجاهلت هــذه الأبراج واستمرت فى طيرانها الى « البوابة السرية » فى الســور الداخلى وكانت مغلقــة ومسدودة بقضبان حديدية ويحرسها عبد عملاق ، وكان الموت ينتظر من يدخل هــذا المكان ، اللهم الا السلطان نفسه أو وزيره . ولكن الحمامة لم تهتم أبدا بالأسوار والأبواب المغلقة أو الحراس من الأرقاء المتوحشين ، وبعد أن طارت فوق رءوسهم حطت فى النهاية فوق برج الحمام الملكى فى فناء مدينــة القصر المســورة لتجد ما تستحقه من مكافأة .. لتجد أليفها وشربة من ماء محلى بالسكر .

ومهما يكن ، فان المشرف على الحمام الذى كان يقيم هناك لم يكن ليجرؤ على أن يعفى الحمامة المنهكة من الرســالة المحررة على الرق ، التى حملتها من مكان بعيد ، اذ أنه لا يمكن أن تقوم أى يد بعمل ذلك الا يد ملكية ، وكان السلطان الصــالح فى خارج البــلاد وكذلك كان ابنه توران شاه . ولم يكن هناك الا شخص واحد فقط

---

(١) السلطان صلاح الدين الأيوبى .

يسمح له ــ باعتباره السلطان ــ بأن يأخذ الرسالة ويقرأها وكان هذا الشخص سيدة ملكيه تكاد تعيش فى عزلة فى حريم القصر طبقا للعاده المتبعة بين المسلمين • وكان من الضرورى أن يصل اليها أفواج من الرسل ، واحد بعد الآخر ، وكان يتحتم عليهم أن يسرعوا فى تأدية عملهم ولكن كان يتحتم عليها أن تترك كل شىء وتأتى فى الحال لتأخذ المكاتبة لأن مثل هذا الأمر لا يمكن أن تهمله أو تحيد عنه •

وبعد لحظات قليلة ، كان شخص محجب تماما يميل على الطائر، وحلت أنامل يدين بيضاوين مخضبتين بالحناء الوردية الرسالة المثبتة فى ساق الطائر ، وأصبح الطائر طليقا •

وكانت الأنباء التى أتت بها الرسالة أنباء مثيرة • كانت الرسالة من زوجها السلطان الصالح أيوب الذى كان طريح الفراش فى حالة خطيرة فى دمشق ، مريضا بالسل وساقه متقرحة متقيحة ، بينما كانت قواته تهاجم قلعة حمص • وقد أخبرها زوجها بأن هجوم الصليبيين المتوقع على سورية كان خدعة منهم •

لقد شوهد جزء من أسطول الفرنجة مندفعا نحو الشاطىء المصرى فى منطقة دمياط • فلم يتردد الصالح فى الأمر بالانصراف عن حصار حمص وبالرغم من حالته ، قرر العودة بجيشه الى بلاده ليشتبك مع المهاجمين • وكان يجب عليها فى الوقت ذاته أن تلم شعث المماليك الباقين تحت قيادة الوزير الثقة فخر الدين ، وأن ترسلهم بطريق النهر ليمنعوا نزول الصليبيين الى البر • أما الدفاع عن مدينة دمياط فيجب أن يعهد به الى قبيلة بنى كنانة العربية ويجب أن تجهز المدينة جيدا بالمؤن والسلاح والذخيرة خوفا من تعرضها لحصار طويل • وكان يجب عليها أخيرا أن تهتم بتحصينات القاهرة ، اذ أن العاصمة ستكون هدف الفرنجة الأول اذا ما نجحوا فى هجومهم •

ومن الجائز جدا أن شجرة الدر قد أصابها الذهول فى تلك اللحظة . الصليبيون هنا ؟ ويمكننا أن نتخيلها ، وقد فقدت القدرة على الكلام الى أى أحد وأن نتخيلها وهى تسير الى شرفة حديقة الحريم وتتطلع خلال الشيش الذى كان يحميها من العيون التى لا يحق لها أن تراها . وكانت ترتفع فوق الأسوار وخلفها ، من جانب واحد ، صخور جبال المقطم القاحلة التى قطع منها الفراعنة الأحجار ليبنوا أهرامهم ، وأمامها عبر حدود الأراضى الزراعية الخضراء وشريط النيل الملتوى ، تقوم الأهرام ذاتها على حافة الصحراء ، وان كانت تشاهد بوضوح ، خلال حرارة الصيف ، تلك الآثار العجيبة الباقية من زمن تشبه الناس منذ وقت طويل .

ولكن كان يلوح أمام عينيها عن كثب تذكار بشع يتصل بالتهديد الحالى ، ويتمثل فى الخراب القائم الذى أصاب ضاحية الفسطاط المدينة الاسلامية الأولى فى مصر والتى نمت فى المكان الذى نصب فيه القائد العربى عمرو بن العاص ، خيمته بعد أن أجبر الحامية البيزنطية فى حصن بابليون المجاور على التسليم . لم يعد للفسطاط المدينة المتشامخة وجود .. بل أصبحت كوما من الرماد والأنقاض ، أما سكانها الكثيرون فقد تشتتوا فى كل مكان بسبب الغزو وتقدم العدو نحو القاهرة وذلك فى أثناء حملة صليبية سابقة ، فقد أحرق السلطان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت المدينة عمدا كخطة لجعلها أرضا محروقة ليحرم الغزاة من الاستفادة بها .

وفى أسفل المكان الذى كانت تقف فيه وعلى مقربة منه ، كانت تمتد وتنبسط مدينة القاهرة الجميلة داخل أسوارها القوية ، غافلة عن المصير الذى كان يتهددها ، وكانت الشمس تغمرها ويزيد من جمالها

مساجدها المديدة ، والمـآذن المرتفعة فى الهواء ، وبيوتها الفخمـة ، والمدارس الاسلامية ، والأسبلة المزخرفة ، وطرقاتها الضيقة ، وأسواقها الملأى بالتوابل وأدوات الترف والملأى أيضا بالدسائس • لقد كانت المدينة الحقيقية التى تصورها قصص ألف ليلة وليلة حيث كانت تدور الألاعيب وحيث كانت تخـرج نسـوة محجبـات تماما ممتطيـات ظهور الحمير ، لموعد سرى ، وحيث كان العشاق يتبادلون الرسـائل مع محبوباتهن الفاتنات من وراء أسوار الحريم وينالوا ما يستحقونه من مكافأة وشاحا معطرا أو زهرة شذية •• ان من لم ير القاهرة لم ير الدنيا ، ان ترابها ذهب ونيلهـا معجزة ونساءها حوريات الجنـة وبيوتها قصور وهواءها عليل ورائحتهـا طيبة كخشب العود تنعش القلب ، وكيف لا تكون القاهرة كذلك ، وهى أم الدنيا !

وهـكذا كانت الفسطاط يوما من الأيام ،آهلة بالسكان زاهية وموسرة ولكنهـا كانت وقتئذ مأوى العفـاريت المخيفـة والأرواح الشريرة وكان المشردون فقط هم الذين يجرءون على أن يعيشوا فى حفرها المظلمة • وهنا أيضا •• ينبغى ألا يقتحم أبدا الفرنجـة غير المؤمنين طريقهم الى داخل هـذه القلعة القوية والقصر الذى كانت تأوى اليه هى وابنها الصغير خليـل ابن السلطان والحفيد الأصغر لصلاح الدين يوسف بن أيوب نفسه •

ومع أن شجرة الدر كانت قد ولدت مسيحية ، فى بلاد أرمنيـا التركية الجبلية البعيدة ، فقد كانت القاهرة وقتئذ وطنها والاسـلام عقيدتها التى تؤمن بها مخلصـة • وكانت تتذكر فى صورة مبهمة فيما يشبه كابوس الأحلام ذلك اليوم الرهيب عندما اختطفوها من وسط

المذبحة ولهيب النيران لتباع فى سوق من أسواق النخاسة الشرقية ، مع غيرها من الغلمان والجوارى البيض • أما قلبها كفتاة ، وكعذراء ، وكامرأة فانه كان هناك فى المدينة التى احتضنتها •

وكباقى أترابها اللائى جلبن من تركيـا ، نشأت على العقيـدة الجديدة ولم يعد لها أية صلة بعقيدتها القديمة • وكان بعض أترابهـا مازلن جوارى وان كن مكرمات ويعتز بهن أصحابهن ، كما أصبح بعضهن أحرارا ، وكان الغلمـان عندما يكبرون ، ينتظمون فى حرس السلطان ويدربون على كل فنون الحرب والرياضة الخاصة بالرجال ورمى السهام ورمى الحراب والصيد بالصقور ولعب البولو • وكانوا يسمون المماليك ، وعاشـوا فى قلعة خاصة بهم ـ وكانت معسكرات فاخرة حقا ـ وكان السلطان قد بناها لهم فى جزيرة الروضـة وسط النيل بالقرب من المكان الذى يقوم فيه مقياس النيل القديم • وكانوا لهذا السبب يسمون بالمماليك البحرية ـ مماليك البحر ـ وقد أثرى بعضهم وأصبحوا من المقربين فى القصر واشتروا بدورهم مماليـك آخرين ليقوموا على خدمتهم وليحاربوا من أجلهم هم ، وقد استحوذوا على أغلب المراكز الرفيعـة لدى السـلطان • لقد أصبح بعض من تم شراؤهم من أسواق النخاسـة فى بغداد ودمشق والقـاهرة يتولون وظائف هامة مثل الوزير وقائد الجيش الذى كان يلى السلطان مباشرة• كما تولى مماليك آخرون بعض الوظائف التى لا يتولاها الا الموثوق فيهم مثل ساقى السلطان الذى يتذوق طعامه خشية وجود السـم فيه وصاحب جواده ، وقد أصبحوا فى الحقيقة فى غاية القوة ، حتى ان شجرة الدر كانت قد بدأت تخشى المماليك وتقلب عواطفهم ومطامعهم• وكانت تخشى منهم على زوجها وابنها كما كانت تخشى منهم أيضا على

نفسها بالرغم من أنها هى نفسها كانت جارية مملوكية • وعندما كانت فى حريم القصر كجارية لزوجة السلطان الصالح أم توران شاه ، ساعدها جمالها وذكاؤها على الظفر بحب الملك • فقد وقع الصـالح ، ذلك الجندى العبوس القليل الكلام ، فى حب للشريعة الرشيقة شجرة الدر فأعتقها وتزوجها • وكان يمكنه طبقا للشريعة الاسلامية أن يكون له أربع زوجات على شريطة أن يعاملهن جميعا بالتساوى • ولكن عندما ماتت أم توران شاه أصبحت شجرة الدر بمفردها فى قلبه • وقد أحبته وصممت على ألا تكون لها منافسة وكان حبهما قد تتوج منذ بضعة شهور مضت بمولد ابنهما خليل •

ولم تتردد شجرة الدر طويلا • وكان يجب عليهـا أن تتصرف بسرعة وعندما استدعت كبير أغوات القصر جمال الدين محسن طلبت اليه حضور الوزير الشيخ فخر الدين سريعا ، فى قاعة الأعمدة ، وهى قاعة الاستقبال فى القصر • وهناك وراء ستار حريرى ، أصدرت أوامر السلطان وعقبت عليها • يجب أن تذهب قبيلة بنى كنانة فى الحال الى دمياط لتكون حامية مقيمة فيها وأن تجهز المدينة بالأطعمة والذخيرة • ويجب أن تقوى تحصينات القلعة والقاهرة وأن يوضع حرس اضافى على الأسوار والبوابات • ويجب على فخر الدين أن يجمع جيشـا ثانيا من المماليك وأن يتقدم بهم فى الحال ليحول دون نزول الصليبيين الى البر • أما هى فانها ستسافر لتقابل السلطان وتأخذ معها الطفل الأمير خليلا ليكون فى مكان أكثر أمنا •

ويمكننا أن نتخيـل كبير الوزراء وهو يعترض •• « ولكنـه يا سـيدتى قد يكون أكثر أمنا لك وللامير خليـل أن تبقيا هنا فى القصر » • كما يمكننا أن نتخيل اجابتها « اننا يا صـديقى بين يدى الله • ان والد خليل مريض ويجب على أن أكون الى جانبه » •

***

كان ذلك فى ٤ مايو سنة ١٢٤٩ عندما ألقى الملك لويس ، ملك فرنسا ، الذى كان فى سفينة الرئاسة ، واسمها مونتجور على رأس لأسطول الملكى للحملة الصليبية السادسة ، مراسيه على مسافة من ساحل مصر بالقرب من الشاطىء الغربى لمصب النيل . وعلى بعد ميلين من مصب النهر ، وعلى الشاطىء الشرقى كان يوجد هدفه الذى يريده وهو ميناء دمياط ، مفتاح الدلتا وحركة النقل النهرى للبلاد المنظمة . وكانت دمياط محمية من الخلف ببحيرة المنزلة وهى مساحة واسعة من المياه المالحة وراءها لسان ممتد من الرمال الى حيث توجد مدينة بورسعيد الحديثة . وكان الوصول الى دمياط من الشاطىء الغربى الا يمكن أن يتم الا بواسطة عبور جسر من القوارب . وسيكون النزول الى البر والاستيلاء على دمياط مغامرة خطرة وخصوصا وأن لويس كان يعرف أن السلطان قد اكتشف خدعته وكان عائدا بجيشه راجعا من سورية ليصد الهجوم الصليبى . ولم يعد من السهل القيام بغزو مفاجىء . وأشار عليه قواده باتخاذ جانب الحذر ، فقد أعطبت العواصف بعض ناقلات الجنود بعد مغادرتها لقبرص وأبعدتها عن طريق سيرها فذهبت الى الموانى الفرنجية فى سورية . ولهذا فمن الأفضل الانتظار حتى تصل فينزلوا جميعا الى البر ومع ذلك فمن ذا الذى يدرى كم كان عدد المسلمين الذين كانوا مستعدين للقائهم على الشاطىء ؟

ولكن لويس كان قد انتظر الشتاء كله ليبدأ الحرب مع المسلمين . وكان يحس الآن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر من ذلك . وفى فجر اليوم الموافق ٥ من مايو قاد بنفسه أول جماعة تنزل الى البر ، فكان ما رآه فى انتظارهم مخيفا . ويقول المؤرخ الفرنسى دى جوانفيل انهم « قد وجدوا جيش السلطان كله على الشاطىء وكانوا قوما على

درجة كبيرة من الجمال ، وكان السلطان يلبس عدة حرب ذهبية انعكست عليها أشعة الشمس ببهاء » ومهما يكن فقد كان دى جوانفيل مخطئا • فان القائد الذى كان يرتدى عدة الحرب (الزرد) المصنوعة من الذهب لم يكن السلطان ولكنه كان وزيره فخر الدين ، أما السلطان الصالح فقد كان مريضا جدا ، واستلزم الأمر أن ينقل محمولا طول الطريق من دمشق الى القاهرة على محفة ، وكان فى هذه اللحظة يرقد فى خيمته فى أشمون طناح وقد امتلأت نفسه بالمرارة لعدم قدرته على قيادة قواته بنفسه ضد الغزاة الملعونين ، فانه طبقا لرواية مؤرخ عربى « ساد الجيش تمرد شديد بسبب مرضه ولم يستطع أحد أن يفرض أوامره على الجنود » •

ولم يعلم الصليبيون شيئا عن هذا الأمر • وأظهر الملك لويس شجاعة شخصية عظيمة وهو يقود عملية النزول الى البر بالرغم من سهام وحراب المماليك والبدو من العرب • وكانت قواته كثيرة العدد، وبالرغم من أنهم قد أنزلوا خسائر جسيمة بالمسلمين فقد تولتهم الدهشة عندما فوجئوا بمفاجأة غير مرتقبه لهم عندما تحطم الدفاع العربى فجأة وأصبح فى استطاعتهم أن يثبتوا مراكزهم جيدا فوق أرض مصر •

وعندما أرخى الليل سدوله ، تقهقر فخر الدين الذى لم يستطع السيطرة على مماليكه الذين لا يطيعون الأوامر ، وانسحب عبر جسر القوارب ، آمرا بنى كنانة بأن يضرموا النيران فى القوارب بعد أن يعبر هو والمماليك وأن يظلوا هم بالمدينة محتفظين بها من أجل السلطان • وبدلا من اطاعة أوامره فان رؤساء البدو الذين أصابهم الرعب عندما أصبحوا دون قائد ودون جيش يساعدهم ، أغفلوا أن يحرقوا الجسر وأخذوا يصيحون وهم يعدون داخل دمياط ، بأن كل

شيء قد ضاع ، وأضرموا النيران فى الأسواق وهربوا ، ولكن عندما عادت الى أذهان سكان المدينة المسلمين ذكرى المذبحة القاسية التى حدثت عندما استسلمت المدينة الى حملة صليبية سابقة ، هربوا هم أيضا فى هلع وتركوا وراءهم فى المدينة الأقلية المسيحية الصغيرة فقط التى لم تكن خائفة من وصــول أبناء ملتهم • وعبر أحد المسيحيين المصريين النهر ليخبر الفرنجة أن الحامية العربية والسكان المسلمين قد ذهبوا وأن المدينــة قد أصبحت لهم •

وفى اليوم التالى تقدم الملك لويس وقواته ، فى زهو فوق الجسر ودخل المدينــة واستولى على جميع الأسلحة والذخيرة والأطعمة التى كانت شجرة الدر قد أمرت بتخزينها هناك بناء على تعليمات زوجهــا لاحتمال مواجهة حصار طويل •

ولو كان لويس استمر فى تقدمه نحو الدلتا فلربمــا كانت أصبع القدر قد خطت فصلا آخر فى صفحات التاريخ يختلف تماما عما حدث• فقد كانت الحالة النفسية فى جيش السلطان المريض منهــارة وكانت قواته المنتقاة من المماليك بعيدة عن متناول يده • وبالرغم من أن النيل كان على وشك الفيضان بعد وقت قصير الا أنه كان هناك وقت ممكن معه الملاحة فى شبكة القنوات المتداخلة التى تصل مصبى النهر بالمجرى الرئيسى على بعد أقل من اثنين وعشرين ميلا من العاصمة • فلو أن لويس قد استمر فى تقدمه لأمكنه فى حركة واحدة جريئة أن يجعل من نفسه سيد القاهرة وحاكم بيت المقدس •

ولكنه تريث ، ويبدو أن ذلك كان لأسباب وجيهة • فمن ناحية كان خائفا من أن يدركهم الفيضــان الذى كان وقته يقترب • ومن ناحية أخرى فانه لم يكن يعلم بالحالة فى معسكر السلطان ، ولهــذا فضل أن ينتظر سفن النقل المختلفــة وكذلك وصــول أخيــه الثالث

الفونسو أمير بواتو ليعزز بقواته جيشه الصغير • وتحولت دمياط الى مدينة من مدن الافرنج وكانت شـعائر الدين المسيحى تقـام فى المسـجد الكبير ، وعين أسقف لها وأعطيت الشـوارع التجـارية للصليبيين القادمين من المدن التجارية فى ايطاليا • وأرسل فى طلب الملكة مرجريت وغيرها من سيدات الصليبيين اللائى كن قد ذهبن الى عكا من قبرص عندما أبحر لويس قاصدا مصر ، واستقر رجال البلاط والجيش ليعيشوا هناك فى سعادة تامة طوال أشهر الصيف الرطبة الى أن يأتى الخريف ويهبط النيل • وبعبارة أخرى حتى ينتهى المخزون من الأطعمة وتبدأ الحمى والأمراض تفتك بهم •

وأوقع وصول فخر الدين وجيشه المتقهقر معسكر السلطان فى ذعر فمن الذى يجرؤ ويخبر السلطان ؟ لقد كان مزاجه ثائرا نتيجـة لآلامه واحساسه بعدم قدرته على النشاط والحركة ، وبالرغم من أن المؤرخين العرب لم يسمحوا لأنفسهم بالكتـابة عن الأمور الأسريـة الخاصة ، أو يذكروا النساء بالاسم اللهم الا فى الظروف غير العادية ، يمكننا أن ندرك أن شجرة الدر هى التى كان يتحتم عليها نقل الأخبار الى زوجها •

وهاج وثار غضـبه ، ضد فخر الدين والممـاليك أولا ، وبذلت شجرة الدر كل ما تستطيعه لتمنعه من أن يصدر حكمه فى الحال باعدام الوزير المخلص وأحد الرجال القلائل الذين كانت تعرف أنهم جديرون بالثقة فيهم • ولكنه أنصت اليها ــ كما اعتاد أن يفعل دائما ــ وأبقى على الرجل الشيخ لخدمته الطويلة وولائه الذى لا ريب فيه بالرغم من أنه طرده وأعفاه من قيادة الجيش •

أما رجال قبيلة بنى كنانة الجبنـاء فلسوف يحكم عليهم بالموت شنقا ولم يكن لدى شجرة الدر ما تقوله حيـال أولئك • فقد كان

الوقت عصيبا ، وكان من الضرورى اتخاذ تدابير صارمة ضد من خانوا الأمانة وكان ضياع دمياط ضربة خطيرة وكان على بنى كنانة أن يدفعوا ثمن ما اقترفوه •

وقبل أن يصدق السلطان على حكمه على زعماء القبيلة أراد التأكد من أنه لم يكن يجانب شرع الله واستدعى مستشارية الدينيين من رجال الشرع وسألهم عن العقاب الذى يجب أن يوقع على الجنود الذين يتخلون عن مواقعهم وكانت الفتوى باجماع الآراء هى القتل وهكذا نفذ حكم الاعدام شنقا فى زعماء قبيلة بنى كنانة •

وعرف الصالح وقتئذ أنه كان على وشك الموت • وعرفت شجرة الدر ذلك أيضا • ولم تكن من أولئك الذين يغمضون أعينهم عن الواقع مهما كان قاسيا • لقد كان قلبها يتمزق لضعفه وآلامه ولكنها لم تجرؤ على التفكير فى مصير حياتها بعده • وكانت شجاعتها مساوية لشجاعة كليوباترة ، ويجب أن يكون انقاذ مصر من الغزاة الأجانب مقدما على كل الهموم والأحزان الشخصية •

وكان الموقف خطيرا وكان هناك الكثير مما يستدعى الاهتمام به• انها كانت ترتاب فى اخلاص رؤساء الأمراء المماليك وخشيت قيام الصليبيين بهجوم مباشر من دمياط مدفوعين بنجاحهم السهل • وربما يكون من الأفضل التفاوض معهم وعرض التنازل عن بيت المقدس مقابل رحيلهم عن دمياط كما سبق أن فعل والد الصالح قبل ذلك بعشرين عاما • اذ من الأفضل جدا أن يخسروا المدينة المقدسة على أن يحتل الفرنجة جزءا من مصر مهما كان صغيرا • وكانت هذه النصيحة قاسية على الصالح • فقد كان يكره المسيحيين وكان قد استولى ثانية بنفسه على بيت المقدس بعد اعتلائه العرش • ولكنه

أصغى اليها ووافق فى النهاية على أن يرسل رسالة الى لويس يبلغه فيها العرض رسميا .

وبينما كانوا ينتظرون الرد فى قلق ، كان الصالح يتقلب من جنب الى جنب فى نوبات الحمى وكان دائم السعال الذى تسيل معه أيام حياته ويتعذب من ساقه المتقيحة . وكان ضميره يقلقه ، ولهذا طلب من شجرة الدر أن تصدر بلاغا باسمه يطلب فيه من كل شخص يحس أن السلطان قد ظلمه أن يحضر للمثول بين يديه ويعرض قضيته فانه سوف يصحح ما حاق به من أضرار . لقد كان الجندى الذى عرفته الدنيا متجهم الوجه محبا للوحدة ، كان فى قرارة قلبه رجلا عادلا شريفا يخاف ربه ، رجلا كانت شجرة الدر تحترمه كما كانت تحبه ، وكان قلبها مطمئنا وهى تصدر القرار وقد ختمته بخاتم زوجها اذ أنها تعرف أنه كان يعد روحه لتدخل الجنة .

ولم يكن الرد المنتظر من الملك لويس قد وصل بعد . وأخذت شجرة الدر تسائل نفسها أى نوع من الرجال كان هذا الرجل ؟ كانت تعرف أنه رجل متوسط العمر ويصغر زوجها البالغ من العمر أربعين عاما بعشر سنوات . وكانت التقارير تصفه بأنه كان نحيلا شاحبا كثيرا ما يمرض ولكنه شجاع فى كل ما يتعلق بدينه ، بل أن البعض كان يسميه قديسا وكانت له زوجة ، لقد سمع عبيدها هذا الكلام مما تتناقله الألسن . وكانت الملكة مرجريت ، مثلها ، قد تبعت زوجها الى أرض المعركة . فهل كانت صغيرة وجميلة ؟ وهل كان لها ولد صغير مثل ابنها خليل الذى كانت تعبده ؟ انها كانت تتمنى أن ترى وجهها وملابسها ومجوهراتها ، وهل كانت مجوهراتها تعادل اللآلىء العجيبة والجواهر التى أغدقها عليها الصالح ؟ ولكنهما لا يمكن أن يتم التلاقى بينهما لقد كانتا متباعدتين ويفصل بينهما سور من العداوة أقامه الدين بين زوجيهما .

ولا توجد لدينا أى صورة لشجرة الدر ، ويرجع ذلك الى حياء المسلمين وللعزلة الشديدة التى كانت مفروضة على النساء ــ فيما عدا الفلاحات اللائى كن يعملن فى الحقول الى جانب أزواجهن • هل كانت صورتها تطـابق تصور الشاعر المعاصر لها بهاء الدين زهير الذى كان يصف المرأة الجميلة فيقول بأن شـعرها المتموج ينسدل على خدهـا وأن قوامها سمهرى يشبه الرمح ، أم أن حياة الحريم قد أكسبتها نعومة وأضفت على قوامها تلك البدانة التى لحقت بالكثيرات من الجميلات النحيلات اللائى حكم عليهن بالكسل والراحة فوق الوسائد الوثيرة ؟ ولكنها لا تزال صغيرة جدا وذات شخصية نشطة تواقة ، ولهذا فمن المحتمل أن تشبيهها بالرمح كان مازال منطبقا عليها •

ويمكننا أن نتخيل من صور العازفات على العود والمغنيات التى نراها مصورة على الأطباق ذات الطلاء اللامع التى ترجع الى العصور الوسطى فى مصر كيف كانت خصلتا شعرها مقصوصتين فى استدارة على خديها لتزيد من تحديد خطوطهما وكيف كان باقى شعرها الأسود الفاحم ، مجدلا فى ضفائر طويلة مسترسلة على كتفيها ، ولربما كانت فروع لآلئها المشهورة تتدلى مزينة أذنيها ومثبتة الى منديلها الحريرى ذى اللون الوردى الذى كانت تضعه فوق رأسـها وعصابة رأسـها الذهبية محلاة بزمردة •

وكانت خواتمهـا وأقراطها وقلاداتهـا وأساورها من الذهب ، وتضع فى ساقيها خلاخيل فضية ثقيلة كانت ترن عندما تمشى ، تلك الخلاخيل التى قال عنها أحد الشعراء : ان رنة هـذه الخلاخيل قد سلبته العقل ، ولربما كانت هذه الخلاخيل تكمل مجموعة حليها •

ومن المحتمل أن ملابسها كانت تشتمل على معطف ورداء حريرى وشـال وسراويل حريرية منتفخة مربوطة عند خنقـة السـاق وخفين

مطرزين ، من السهل عليها أن تخلعهما عندما كانت تضطجع على أريكة من الوسائد أو تجلس وهى متربعة لتأكل أو عندما تؤدى فريضة الصلاة خمس مرات فى اليوم على سجادة الصلاة التى جىء بها من بلاد الفرس .

وكانت العادة القديمة فى صبغ الحواجب والرموش باللون الأسود واستطالة حدود العينين بالكحل قد جعلت من عينيها أكثر ما يلفت النظر فى ملامح وجهها ، وكانت عيناها تلمعان حتى من خلال الخمار الذى كان يغطى وجهها عندما كانت تغادر الحريم .

وكانت المرأة المحجبة عند العرب امرأة تستحق المدح والتقدير . وبنفس الأسلوب أخفت شجرة الدر أغلى ما كانت تمتلكه تحت معطفها وكانت تميمة تتدلى من شريط فوق كتفها الأيسر ، وهى صندوق ذهبى صغير الحجم مرصع بالجواهر وملفوف بقطعة قماش ناعمة وبداخله جزء من القرآن الكريم كتبه بدقة أحد خطاطى القصر .

وقد أحست شجرة الدر فى هذه اللحظة أنها كانت فى حاجة الى هذه التميمية اذ أن أخبار عودة رسول السلطان من بلاط الفرنجة فى دمياط كانت قد وصلت اليها . فأسرعت هى الى جانب زوجها ، لتعلم ما هو الرد الذى رد به الملك لويس ؟ هل قبل العرض بالتنازل عن بيت المقدس مقابل دمياط ؟

وكانت الاجابة بالنفى ، ان الملك لويس لن يساوم مع من اعتبرهم كفارا . واستشاط الصالح غضبا ، ولو كانت صحته فى حالة حسنة لقاد رجاله فى هجوم يكتسح فيه الغزاة المتعجرفين ويرمى بهم الى البحر .

وجاءت أنباء سيئة فى أعقاب الأنباء السيئة ٠ فبينما كانت شجرة الدر تحاول أن تهدىء من ثائرة الرجل المريض الحزين ، جاء صديقهما الشيخ الوزير فخر الدين الذى كان السلطان قد طرده من منصبه يلتمس المثول بين يدى السلطان ٠ وقد سمح له بذلك على كره منه ، وفى هذه المقابلة أخبرهما فخر الدين بأن المماليك كانوا يدبرون ثورة، وأن رجال حرس السلطان أنفسهم قد انضموا اليهم أيضا ٠ أما هو فقد رفض أن ينضم اليهم ٠

ما الذى كان يريده الثوار ؟ انهم يريدون الحرب ، فقد برموا من طول الانتظار وعدم مهاجمة العدو ٠ وكانوا بلا قائد ولهذا بحثوا فى امكانية الاستفادة من ضعف الصالح لكى يشبعوا طموحهم وطمعهم فى السلطة ٠ وكان قيام ثورة فى القصر بغية التخلص من السلطان وزوجته وابنه الصغير ، فى أثناء غياب توران شاه ووجوده بعيدا عن البلاد ، يترك الباب مفتوحا أمام قائد جديد ليظهر من بينهم ويستولى على السلطة ويعلن نفسه سلطانا ٠

وكان الموقف حرجا للغاية ٠ وكان ينبغى على الصالح أن يتصرف بسرعة ولكنه كان بين نارين ٠ فان هو سحق الثوار بقسوة — كما كان يجب أن يفعل — فلسوف يفقد بذلك مماليكه الممتازين وأحسن ضباط وجنود الجيش ٠ وان هو توانى ازدادت الثورة اشتعالا وكان هناك حل آخر لوضع نهاية للثورة التى بدأت تتجمع نزرها وربما كانت شجرة الدر هى التى أرشدته اليه — وذلك أن يشترى الثوار الى جانبه ٠ وكوفىء أولا فخر الدين لولائه وذلك باعادته الى وظيفته كقائد للجيش ٠ وبعد ذلك ، وبمساعدة شجرة الدر، ألبسوا الرجل المريض ملابسه السلطانية ، وجلس فى قاعة الاستقبال ليستقبل زعماء الأمراء وليكافئهم على اخلاصهم وذلك بأن يخلع على كل منهم كسوة رسمية ، وكانت تقوم عند العرب مقام النيشان ، وهدايا ثمينة من الجياد والذهب والأسلحة ٠

وكاد المجهود أن يقتله ، ولكن الحيلة نجحت • لقد أخبر الصالح المماليك أنه قد أسند القيادة مرة ثانية الى الأمير فخر الدين وأنه ينبغى عليهم أن يتركوا المعسكر ويسرعوا بأقصى ما يستطيعونه من سرعة الى مدينة المنصورة التى تقع على بعد بضعة أميال من دمياط • وأنه يجب الاحتفاظ بالمنصورة بأى ثمن • ان اسمها مشتق من النصر، وبناها وأطلق عليها اسمها السلطان الكامل والد الصالح ، فى مكان انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة • وعلاوة على ذلك فقد كانت تعتبر خط الدفاع الأمامى لمدينة القاهرة بالرغم من وقوعها على بعد أميال كثيرة منها •

وقد انصرفوا من حضرة السلطان ،يقودهم عملاق شركسى أبيض البشرة أزرق العينين يدعى بيبرس ، بعد أن أقسموا بطاعة السلطان وتصميمهم على الدفاع عن المنصورة وأنهم لن يمكنوا الصليبيين من المرور • وهكذا قضى على مؤامرة المماليك وهى فى المهد •

وعندما بدأت مياه النيل تتلون باللون البنى وتختلط مياهه بالغرين ، وارتفع الى مستوى فيضانه على الأراضى ، وضع الجيش المصرى الخطط ونظم وسائل الدفاع عن المنصورة • وقد أقام المماليك معسكرهم شمالى المدينة الى جانب القناة الموجودة الآن والتى تسمى « البحر الصغير » والتى كانت تفصل دمياط عن المجرى الرئيسى للنيل وهو الطريق الموصل الى المنصورة ومن ثم الى القاهرة • وأسرع رئيس حجاب القصر وكبير الأغوات ، جمال الدين محسن على رأس حاشية السلطان ليعد القصر السلطانى على واجهة النهر شمالى المنصورة ، لاستقبالهم • وكان لابد من انقضاء ثلاثة شهور قبل أن يهبط النهر ويستطيع الفرنجة التحرك من دمياط •

***

واليوم يجد الزائر الذى يصل الى المنصــورة أنها احدى مدن الدلتا الهادئة حيث يتحرك الجميع فى هدوء وسرعان ما تنتهى المناقشات فى كل مكان بالمصافحة والابتسام .

وهى أشبه بجزيرة فى وسط مساحات شاشعة منبسطة من الحقول الخضراء المنزرعة بالقطن والبصل والبرسيم والقمح والتى تسير فيها القنوات ، وتبدو بيوتها ذات المشربيات الخشبية المتينة ، ومآذنهـا المدببة ، التى ترتفع فى السماء أهم بكثير مما هى فى الواقع . وعلى طول صف الأشجار الجميل الممتد على واجهة النهر توجد مجموعة من المقاهى المقامة فى الهواء الطلق ، تكمل صـورة ذلك الهدوء ، فان الجالسين عليها يلبسون الملابس السوداء والعمامات البيضاء ويرتشفون قهوتهم ويتكلمـون ويلعبون النرد ويدخنـون النارجيـلة ونـادرا ما يتحركون فى جلستهم الرزينة عندما تمر بهم العربات وما يصدر من صـوت رتيب عن عجـلاتها . ومن المستحيـل ، وأنت تقف فى أحد شوارعها وتشترى كوبا من بائع الشربات أو وأنت تتبع مجموعة لطيفة من النسوة الفلاحات فى أرديتهن الســوداء وهن يحملن سلال الخس والكرنب الكبير الحجم أو الأوز الحى فوق رءوسـهن أن تصـدق أو حتى تتخيل أن هذا كان المكان الذى شهد مصير مصر الاسلامية عندما كان معلقا فى كفة القدر وأنه تقرر مصيرها فيه للأجيـال التى تلت ذلك .

فمنذ سبعمائة عام مضت وقفت احدى الشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية المليئة بالقلق والعنف ، وراء أحجبة نوافذ الحريم بالقصر السلطانى الذى كان يقوم فى مواجهـة النهر خارج المدينة القديمة المحاطة بالأسوار ، وهى تراقب مياه الفيضان المرتفعة وقد أخذت تصفر

بعد أن ترسب الغرين منها ، وأخذت تهدأ من جديد ، وأخذت شواطىء النهر الخضراء تظهر أمام العين •

وكلما أخذت المياه فى الهبوط كان قلقها يزداد • فقد جاء الجواسيس بأخبار تقول ان الأخ الثالث لملك فرنسا ، الأمير ألفونسو أمير بواتو ، قد وصل الى دمياط ومعه كثير من السفن والرجال ليعزز قوة الصليبيين • وكان الوقت آنذاك نهاية شهر أكتوبر وأصبح النيل على وشك الهبوط لدرجة تسمح لهم ببدء حملتهم • وكانت شجرة الدر تعرف أن ذلك السكون غير الحقيقى الذى فرضته فترة الانتظار يمكن أن يتبدد فى أى لحظة • ومع ذلك كان من الواضح أن زوجها لن يعيش طويلا ، وهو وحده الذى كانت سلطته الملكية كافية لايقاف المماليك الطموحين المتمردين عند حدهم • وفى الحقيقة ، كان بقاؤه حيا حتى الآن معجزة حققتها ارادته الحديدية •

وكانت تعرف أنه على مسافة بضعة أميال شمالى المنصورة على شواطىء البحر الصغير ، كان رجال الجيش المصرى قد اعتادوا على حياة أضعفت من روحهم العسكرية • فقد دأب الأقوياء من أمثال بيبرس وأيبك على أن يحضروا الى خيامهم الفخمة ، الكثير من مظاهر الترف واللهو التى كانوا قد تعودوا عليها فى القاهرة • وبالرغم من أن فرقهم الموسيقية الخاصة من قارعى الطبول الكبيرة والصغيرة ونافخى الأبواق والمزمار كانت أصواتها تدوى بالنداءات العسكرية بشكل واضح وبالرغم من أنهم كانوا يمضون بعض الوقت فى التدريبات العسكرية مثل المبارزة ورمى السهام فانهم كانوا يفضلون عليها لعب البولو وصيد الغزلان بالصقور فى الصحراء • وكانوا قد أخذوا يتعودون كثيرا على الحياة السهلة المريحة •

على أنه من المؤكد كانوا يحافظون على نظم دينهم بأداء فريضة

الصلاة خمس مرات فى اليوم وأنهم كانوا يؤمون المسجد لصلاة الجمعة ، لكنهم كانوا أيضا يأخذون حماماتهم التركية حيث يقوم العبيد بتدليكهم ، وكانوا يلبسون الأردية الحريرية التى تعطر بماء الورد ، والأحزمة والعمائم المرصعة بالجواهر كما كانوا يضمخون لحاهم بالمسك ، أما هؤلاء الذين كانت لحاهم قد وخطها المشيب مثل القائد فخر الدين ، فانهم يصبغونها بالحناء باللون الأحمر .

ولم يكن الترف والحياة الناعمة ، ولا الاستماع الى أغانى الحب وعزف العود وشرب الخمر (وقد نهى عنها الدين ومع ذلك فقد كانوا يشربونها) من قنانى النبيذ النفيسة بينما يشاهدون احدى راقصات الغجر وهى تتمايل يمينا وشمالا لم يكن ذلك كله من العوامل التى يمكن أن تسمى حياة معسكرات حقيقية . وكانوا قد هدأت ثائرتهم باسناد القيادة الى فخر الدين ولكنه كان يتحتم عليه أن يخفى عنهم كيف كان السلطان مريضا بشكل ميئوس منه .

وقد قال فخر الدين لشجرة الدر انه عندما يتأكد تماما من اخلاصهم فانه سوف يقودهم فى هجوم مباغت على الصليبيين قبل أن يكون لدى العدو فرصة لمقابلة ذلك الهجوم . ولكنه لم يجرؤ على ذلك .

أما بالنسبة لما سوف يحدث عندما يموت الصالح .. فان التفكير فى ذلك كان سابقا لأوانه . وكان وجه السخرية فى الموقف يتلخص فى أن كلا من الجانبين كان يعمل على كسب الوقت غير متنبه الى ضعف الآخر . وقد بقى كل من المسلمين الصليبيين فى مراكزهم وهم مترددون بدلا من المبادأة الجريئة بالهجوم عندما سمح بذلك هبوط مياه الفيضان . وكيفما كان الأمر فقد اتضح فى معسكر الفرنجة أنه من الخطر عليهم أن يتباطئوا أكثر من ذلك . فقد كانت كميات الطعام قد أخذت فى النقصان وبازدياد عدد من يجب اطعامهم من رجال

الامدادات الجديدة ، فان الموقف كان يزداد خطورة . كما أن حرارة ورطوبة الصيف قد أخذت تضعف من قوى أبناء الشمال . وأخذ المرض يحصدهم ويموت بعض منهم فى كل يوم .

ودعا الملك لويس الى مؤتمر من اخوته ونبلاء وفرسان الصليبيين من المملكة الصليبية ـ بساحل الشام ـ وكانت تلك الخطة تقضى بمباغتة الجيش المصرى ، والتقدم نحو الاسكندرية بدلا من المنصورة وبذلك يخطون الخطوة الأولى نحو القاهرة ، لأن المسلمين سيتوقعون من الصليبيين أن يسيروا فى الطريق الذى سلكته الحملة الصليبية السابقة فى سنة ١٢١٩ ويتقدمون فى ذلك الطريق دون أن تتبادر الى أذهانهم خطة الاستيلاء على الاسكندرية . ولو أنهم اتبعوا تلك الخطة ونجحوا فى المباغتة بها لأصبح كل ساحل البحر الأبيض المصرى ملكا لهم ولأصبحت السيطرة على البحر بين أيديهم .

ولاشك أن التفكير فى هذه الخطة ملىء بالحيطة والدهاء . ولكن الأمير روبير سيد أرتوا أخا الملك لويس المندفع فى آرائه عارض الخطة . ان الهدف يجب أن يكون القاهرة . وقد قال « لنحطم رأس الحية » وقد اتفق معه أخوه الملك لويس فى الرأى . واستقر الرأى على اتباع طريق الحملة الصليبية السابقة وعبور البحر الصغير ثم التقدم نحو المنصورة .

وبدأت الاستعدادات فى الحال . وتهلل لويس الذى كان ثائرا غاضبا للتأخير فى الاشتباك مع المسلمين . ولكن زوجته الشابة مرجريت أميرة بروفانس كانت تساعد فى الاستعداد للحرب ، وهى منقبضة القلب . لقد كانت حاملا وكان الجو يؤذى صحتها ولسوف تكون أكثر أمنا لو أنها عادت الى عكا أو قبرص لتنتظر هناك نتائج الحملة ، ولكنها رفضت أن تغادر دمياط فى الوقت الذى كان فيه زوجها الذى

تحبه يحارب على أرض مصرية • وكان لويس عنيدا عندما كان يريد ذلك ولكن مرجريت كانت عنيدة أيضا • وقد نالت بغيتها وبقيت فى دمياط وكان كل ما يستطيع أن يعمله لويس من أجل سلامتها هو أن يضعها تحت رعاية بطريرك بيت المقدس الذى صاحب الحملة الصليبية ليشد من أزر المحاربين •

وفى منتصف شهر نوفمبر كان كل شىء معدا • وقد ودع لويس ومرجريت ، اللذان كانا يتبادلان الحب ، بعضهما البعض•وفى الصباح الباكر من يوم ٢٠ نوفمبر خرج لويس من دمياط على رأس الحملة الصليبية السادسة على الطريق الجنوبى قاصدا المنصورة •

***

وبعد ثلاثة أيام ، وفى يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ على وجه التحديد ، ودع زوجان آخران كانا يتبادلان الحب بعضهما البعض الوداع الأخير • فقد انتهت آلام السلطان الصالح ولفظ آخر أنفاسه بين ذراعى شجرة الدر • ولم يكن هناك أحد آخر حاضرا هذا الوداع • لقد سهرت عليه ورعته وحدها منذ رجع الى مصر • ونحن لا نعرف شيئا عن أفكارها ومشاعرها فهى خافية عنا ولم ينقلها الينا أحد كما سكت صوتها الى الأبد • وما من شك فى أنها وهى المسلمة المؤمنة ، قد تمتمت بآيات من القرآن ترحما عليه ، ولكن ما عدا ذلك فان ما نعرفه هو ما عملته بالفعل ، وعلى خيالنا أن يقتنع بذلك •

لقد فقدت شجرة الدر زوجا ، ولكن مصر فقدت سلطانا فى ساعة شدتها • وها هم الصليبيون قد غادروا معسكرهم فى دمياط وكان جيشهم يسير متقدما فى زحفه وقد أبلغها الجواسيس

أن الجيش الصليبى كان يتألف من الألوف من المحاربين تحت قيادة قائد يحبونه ويجلونه كقديس وكانوا مستعدين للموت من أجله الى آخر رجل فيهم • فلو عرف الفرنجة أن سلطان المسلمين الذى كانوا يخشونه قد مات لازدادوا جرأة ووحشية فى هجومهم ، ولو عرف المماليك ذلك لنشبت بينهم حرب أهلية وينتهى أمر مصر ، ووضعت شجرة الدر كامرأة أحزانها جانبا وأخذت تفكر • فكرت قبل كل شىء فيمن يتولى السلطنة • وكان زوجها قد أرجأ تسمية ولى عهده ، على خلاف العادة التى كانت متبعة فى العالم الاسلامى بأن يسمى السلطان ولى عهده فى حياته وكان ذلك راجعا الى أن كان يحتقر ابنه توران شاه ولا يثق فيه • أما ابنها خليل فهو مجرد طفل • ولكن بالرغم من سوء أخلاق توران شاه ، وكانت شجرة الدر تشارك زوجها رأيه فيه ، فقد كان واجبها واضحا • كان هو الوارث الطبيعى لعرش والده • وكان ينبغى عليها أن ترسل أحد رجالها الى سورية سر وترجو توران شاه الحضور فى الحال ليستولى على حقه فى تولى العرش فقد كان على الأقل من سلالة صلاح الدين الكبير ولسوف يرضى به المماليك سلطانا عليهم دون جدال •

ومهما يكن فان الأمر سيستغرق وقتا طويلا ليتسلم الرسالة ويعود الى القاهرة وقد يستغرق ذلك شهرين أو ثلاثة •• وربما أكثر من ذلك اذا كان عاكفا على الشراب • فهل يمكن أن تتفادى الكارثة قبل ذلك ؟ •

واذا حدث وتسربت الأخبار •• فماذا ستكون النتيجة ؟ ولابد أنها ارتجفت قليلا عندما تطرقت أفكارها بشكل لا ارادى لذكرى الكابوس القاتم ، ذكرى المذبحة والنهب والعبودية التى أتت فى

أعقاب غارة الغزاة الذين أخرجتهـا من بلادها ، كلا يجب ألا يلاقى خليل هذا المصير ولا حتى أهل مصر الأبرياء شعبها الآن • يجب أن تخفى خبر موت الصالح الى أن يصل توران شاه ليتولى عرشه •

حسنا ، ولكن كيف يكون ذلك ؟ من ذا الذى تستطيع أن تثق به ؟وكان ينبغى أن يعرف ذلك كبير حجاب القصر وكبير الأغوات جمال الدين محسن اذ من المستحيل اخفاء موت الصالح عنه • ولكنها كانت متأكدة من أنه يعرف مدى ثقتها فى مساعدة رجـال القصر وسوف يحفظ السر لمصلحته الخاصـة على أى حال • ثم انها كانت لا تستطيع أبدا أن تشك فى ولاء فخر الدين وسوف يسلم فى الحـال بأهمية مثل هذه الخطوة الفعالة • كان يجب عليها أن ترسل فى الحال رسولا ليحضره من معسكره • وكان من الضرورى أن يحمـل هـذا الرسول رسالة ممضاة ومختومة بخاتم السـلطان والا فانه لا يمكن لفخر الدين أن يأتى الى القصر ويترك الجيش فى هذا الوقت الحرج من الحرب •

وكان ينبغى أن يقوم شخص ما بتقليد امضـاء الصـالح ، ويعد الوثائق الرسمية وهناك شخص واحد فقط هو الذى يستطيع ذلك وهو الطواشى الرقيق سهيل الذى غالبا ما كان يتولى منصب السكرتير الخاص للسلطان فى أثناء مرضه وكان يمكن أن تشترى خدماته لها • فهل كان هناك شخص آخر لتشركه فى معرفة السر ؟ كلا فانه كلما قل عدد من يعرف السر كان ذلك أفضل وآمن •

واجتمع حلفاء شجرة الدر الثلاثة فى القصر فى اجتماع خـاص وأقسموا على أن يحتفظوا لأنفسهم بسر موت السلطان ومن يفشيه من بينهم يحق عليه الموت •• وأعدوا أمرا سـلطانيا وختموه بالخـاتم السلطانى ومهروه بامضاء الصالح الذى قلده سهيل باتقان ، وكان الأمر

يقضى بتعيين فخر الدين قائدا للجيش ونائبا للسلطان فى فترة توعكه . كما جاء فيه حض الجيش على أن يقاتل فى سبيل الله ورسوله بكل ما يستطيعه من بأس وأن يلقى بالكفار الى البحر . وترك فخر الدين القصر وقد تسلح بهذا الأمر السلطانى وكر راجعا الى المعسكر لينظم عرقلة جيش الصليبيين الزاحف ـ واعدا بجائزة مقابل كل رأس من رءوس الغزاة ـ ويقوى تحصينات « البحر الصغير » .

وكانت المشكلة الثانية أمام شجرة الدر ، هى كيف تتلخص من الجثة . وكان من الميسور أن تربط بحجرة وتلقى فى النهر ، ولكن ربما يجرفها التيار فى مجرى النهر ويكتشفها أحد الفلاحين ويتعرف عليها . وفضلا عن ذلك فقد كان الصالح زوجها وكانت تحبه ، وكان سلطانا من سلالة نبيلة ، يجب أن يدفن باحتفال مهيب وأن يشيد له ضريح لائق .

ثم فكرت فى خطة جريئة وهى أن تأخذ الجثة سرا بطريق النيل فى مركب شراعى الى قلعة المماليك البحرية بجزيرة الروضة بالقاهرة وأن تخفيها هناك حتى يصبح الوقت آمنا لاخراجها ودفنها بكل مظاهر الأبهة والفخامة فى ضريح يليق بمقامه ومكانته . وسوف تجعل أمهر البنائين يعملون فى تشييد ذلك الضريح فى الحال وتختار أحسن موقع فى القاهرة على مقربة من الجامع الأزهر وتدعى بأن تشييد هذا الضريح يتم بناء على أمر السلطان . ولما كانت العادة المتبعة هى أن يبنى السلطان جامعا وفيه الضريح الذى يدفن فيه ابان أيام حياته ، كما بنى الفراعنة أهرامهم فى أثناء حياتهم فسوف لا يتشكك أحد فيما تفعله شجر الدر .

وكان لابد من أن تغسل الجثة أولا وتكفن وتوضع فى صندوق ، ونستطيع أن نستشف من قصص ألف ليلة وليلة جو الرعب والدسائس

الغامضة الذى كان يتم فيه تهريب العمال الى القصر لينجزوا مثل هذه الأعمال المحفوفة بالمخاطر فهل كانوا معصوبى الأعين ، وكانوا يدورون بهم حول ممرات أشبه بممرات قصر التيه ، أم أنهم كانوا يلقون بهم بعد انتهائهم من العمل فى غياهب جب عميق أم أنهم كانوا يشنقونهم حتى لا يذيعوا سر ما فعلوه ؟ ومهما كان مصـــيرهم فقد لعب هؤلاء المصريون البسطاء دورهم فى تمثيلية بلادهم وقت الحاجة ثم اختفوا بعد ذلك من المسرح .

ولكى تخلق شعورا بأن كل شىء يسير فى مجراه العادى أصدرت شجرة الدر تعليمات ليقوم أحد المغنين وجوقة من الموسيقيين بالعزف فى لحظات معينة خارج جناح الرجل المريض لتسليته . وكان على سهيل أيضا أن يرتب الوجبات فى أوقاتها المنتظمة من الأصناف التى يحبهـا وأن تجهز أطباقه المفضلة وتؤخذ كالعادة الى باب جناحه . وهنـاك يجيزها ذواق السلطان الرسمى خشية السـم ثم يحملهـا سهيل الى الداخل ليأكل منها سيده .

وأخيرا تم اعداد كل شىء . وفى سكون الليل جاء جمال الدين محسن ليخبر شجرة الدر بأن قاربا يوجد تحت تصرفها تحت أســوار القصر . وعندما كان الجميع يغطون فى نومهم ، وتم ابعاد الحراس الى مكان آخر ، نزلت الى القارب سيدة محجبة فى ثياب سوداء وتحمل طفلا بين ذراعيهـا واتخذت مكانها الى جانب صـندوق كبير مغطى بالقماش وموضوع فى قاع المركب وكأنه بضاعة . وحلوا الحبل الذى يربط القارب الى البر ونشروا القلوع وابتعدوا عن الشاطىء .

وفى جميع أنحاء العالم ، يتشاءم الملاحون من حمل جثة ميت على ظهر سفنهم . ومما لاشك فيه أن هؤلاء الملاحين من أبنـاء النيل لم يشـذوا عن القاعدة ولكن محسن كان قد أجزل لهم العطـاء حتى

لا يكثروا من الجدل • وبينما كانوا فى طريقهم بقاربهم الصغير نحو جزيرة الروضـــة تدفعهم الرياح الشمالية القوية كان الليل المصرى الهادىء يزهو بالنجوم فى سمائه الصافية • ولابد أن هذه النجوم قد بدت للسيدة التى كانت تجلس الى جانب جثة زوجهــا وقد أخــذت طفلهــا بين ذراعيهــا ، وتدثرت بأردية ثقيلة وتحجبب عن العيــون المتلصصة بدت بعيدة عنها ولا شأن لها بها وبدت الدنيــا فى عينيهــا مكانا موحشا • •

هل هو ذئب صغير أم ثعلب ذلك الذى يتسلل بجانب الشاطىء ؟ أم أن ذلك الحفيف هو صــوت الأوراق الجافة من جريد النخيل ؟ أم أن هــذا الحفيف يعنى تمساحا ، أم أنه ثعبان المــاء ؟ •• وربما سمعت صوت أتان تنهق متألمــة وهى تضع مولودها ، أو بكاء طفل فى احدى القرى الهاجعة وهو يبكى من الألم أو الحمى •• ما الذى كانت تفعله الآن ؟ وما الذى كانت تستطيع أن تعمله لتوقف تيار القدر ؟•• وعندما مد الفجر خيطا أبيض فى ستار الظلمة وسمعت أذان الصــلاة يصل خافتا الى أذنيها من مئذنة بعيدة ثم تبعه أذان ثان وأذان ثالث•• أحست شجرة الدر عند ذلك بشىء من الراحة • لقد كانوا جميعا هى وخليل ، وسكان هذه البــلاد جميعا بين يدى الله الرحمن الرحيم • وهو وحده الحاكم القهار •

وبعد بضعة أيام من تلك الليلة قامت السيدة المحجبة ، ذات الرداء الأسود برحلة الاياب ، وقد وضعت الطفل بين ذراعيها ولكن دون أن يكون معها فى هذه المرة صندوق كبير فى قاع القارب • وتحت ستار الليل أيضــا ربط الملاحون القارب تحت أسوار القصر ، ونزلت من الســيدة ولاشك أنها احدى الجوارى فى احدى مهمــات السلطان الغراميــة التى ينبغى ألا تعرف عنها السيدة شجر الدر شيئا : انهم

يعرفون سلاطة لسان النساء • ثم أقلع المركب بعيدا ، وهكذا أدى أولئك الملاحــون دورهم وتركوا المسرح كما فعل المحنط وصـــانع التابوت من قبل •

وكانت لاتزال هناك أشياء لابد من انجازها • فقد أرسلت فعلا الرسالة العاجلة لاستدعاء توران شاه ولكن كان لابد من اعداد وثيقة يعينه فيها الصـــالح وريثه الرسمى • وكان لابد من توقيعها بامضائه وختمها بخاتمــه الســلطانى • وكان على شجرة الدر أن تحفظ هذه الوثيقة فى حوزتها الأمينة لكى تنشر على الملأ عندما يعود توران شاه، فمن المحتمل أن تحتــاج اليها أيضـــا قبل ذلك اذا ما ذاع السر عرف الناس أمر موت السلطان •

ولكــن السر ظــل محفــوظا حتى الآن • وكان المغنـــى يغنى والموسيقيون يعزفون ويأتون بالوجبات ويتذوقها ذواق السلطان ثم يحمل الطعام الى الحريم حيث كان الصـــالح مريضا وتقوم زوجتـــه المخلصة بالسهر عليه • وكان الأمراء وقواد المماليــك وشيوخ البدو يحضرون للمثول بين يدى السلطان ، كما كانت العادة فى العـــالم الاسلامى • ومن المؤكد أن شجرة الدر قد عقدت هذه الاجتماعات بنفسها من وراء ستار باسم زوجها • وأعلن كبير حجاب القصر أن مرض السلطان كان يضطره الى الراحة الكاملة فى ذلك الوقت ، وأنه قـــد عين بدلا منه السيدة شجرة الدر نائبة له • وســوف تستقبل مقدمى العرائض • وتستمع الى قضاياهم وأن الصالح ســوف يصــدر فيها قراراته وبراءاته من فراش مرضه بعد أن تعرضها عليه • وســوف تنقل كل أوامر السلطان عن طريقها الى أن يحين اليوم الذى يمن فيه الله عليه بالشفاء •

هل اضطربت شجرة الدر قليلا عندما أذيع هذا الاعلان ؟ هـــل

شكت فى قدرتها على تضييع شكوكهم ؟ وتقوم فى الوقت نفسه بحكم البلاد وتنظيم دفاعها ضد المسيحيين الغزاة وأن تبقى على استمرار الجيش على نظامه وشجاعته وتمام الاستعداد لملاقاة الأعداء ، قلما يعرف أهل الغرب الآن شيئا عن شجرة الدر . ولكنها بالنسبة للعرب ، احدى بطلات العالم وامتلأت قصصهم بمدائحها : شجرة الدر الجارية السابقة والزوجة والأم المخلصة ، ومنقذة مصر ، وملكتها المسلمة الوحيدة .

ولكن ذلك سبق لحوادث قصتنا ......

كانت شجرة الدر فى نظر الشعب هى زوجة الصالح ونائبة السلطان المؤقتة ولكنها كانت بينها وبين نفسها أرملة الصالح الحزينة. ولمدة ثلاثة شهور من نوفمبر الى فبراير ظلت الخدعة مستمرة ولم يشك أحد من رجال القصر أو من المماليك . وظل الجيش مخلصا حتى وصل توران شاه واعتلى العرش فى شهر فبراير .

***

كان الصليبيون فى ذلك الوقت يلاقون مشقة فى الوصول من دمياط الى المنصورة بسبب شبكة قنوات الرى المتقاطعة . وكان تقدم الملك لويس بطيئا ويتسم بالحذر ، وخاصة عندما أصبح فى مقدور الفرسان المصريين ، الذين أرسلوهم ليعرقلوا جيشه وهو يعبر الطرق المائية ، أن يحصدوا زهرة رجاله .وفى أحد المواقع خالف الفرسان الداوية أوامر لويس وطاردوا المسلمين بعيدا ليجدوا أن التقهقر صعب وغالى الثمن . وكان ذلك قبل عيد الميلاد بأسبوع عندما تمكن الجيش الصليبى من الوصول الى المكان الواقع على شاطىء « البحر الصغير »

فى قبالة المكان الذى كان المسلمون يعسكرون فيه على بعد ميلين شمال المنصورة •

وبقى الجيشان المتحاربان لمدة ستة أسابيع بعد ذلك يواجهان بعضهما البعض على جانبى « البحر الصغير » وكل منهما يتساءل ما الذى سوف يفعله الآخر • لقد كانت حرب أعصاب • وذهبت سدى كل المحاولات التى بذلها الجانبان لانهاء تلك الحرب • وحاول لويس أن ينشىء خندقا يوصل الى جسر يعبرون القناة فوقه ، ولكن نيران المسلمين أجبرته على أن يتخلى عن ذلك وأرسل فخر الدين فرسانه عبر برزخ دمياط من الناحية الجنوبية ليفاجئوا مؤخرة الفرنجة، ولكنهم عندما أصبحوا على مشارف المعسكر تقريبا حاصرهم فرسان الصليبيين بقيادة شارل أنجو وقهروهم •

وبعدئذ ، وفى أوائل فبراير ، جاء الى معسكر الفرنجة رجل من قرية السلامون متخفيا وعرض على لويس أن يبيعه معلومات عن وجود مخاضة عبر « البحر الصغير » وفى فجر يوم الثلاثاء خرج لويس بعد أن ترك حامية قوية لتحرس المعسكر تحت قيادة دوق بورجاندى ، ليعبر النهر عند هذه المخاضة وقد أرسل أخاه المتحمس روبير دوق أرتوا فى المقدمة ومعه قائد الفرسان الداوية ، ووليم لونجسورد ايريل سالسبورى ، ولديهم أوامر مشددة من الملك بألا يهاجموا المسلمين الا اذا أمر هو بذلك •

وكانت خطته هى اقامة مركز قوى على جانب القناة من ناحية المنصورة وأن ينشىء جسرا من القوارب عبر القناة ليضمن وسيلة التقهقر والاتصال بمعسكره وبقوة دوق بورجاندى التى تركها وراءه فى المعسكر • وعندما يتم ذلك كله ، وليس قبل ذلك بأى حال من

الأحوال ، يصـــدر أمره بالهجوم العام على جيش المسلمين ويصـــدر أمره باحتلال المدينة •

ووجدت جماعة المقدمة أن المخاضـــة صعبة وتتطلب التـــأنى فى عبورها ، وعندما أتم روبير عبور المخاضة أصابه الخوف من أن يباغته المسلمون ويقتلوه وقال لمن معه : « فلنفاجئهم ولنركب الى المنصورة رأسا » • ولكن قائد الفرسان الداوية ، ووليم لونجسورد اختلفا معه• وقالا له « تذكر أوامر الملك يتحتم علينا أن ننتظر وألا نهاجم حتى يصدر الأمر » فرد عليهم « هل أنتم جبناء فتتركونى أهاجم المسلمين بمفردى » ؟ وكان ذلك أكثر مما يحتملونـــه • وخطـــوا الخطـــوة الخطـــيرة ، والمهلكة فى تنيجتهـــا لأنفســـهم وللكثـــيرين غيرهم •

ولم يكن لدى أى فرد فى المعسكر الاسلامى شمالى المنصورة ، عندما استيقظوا فى الصباح من نومهم أية فكرة عما كان يجرى بين الآخرين • لقد كانوا هم وجيش الفرنجة فى حالة ســـكون منذ فترة طويلة ، ولهذا كان أول شىء قاموا به هو ما اعتادوا عليه كل يوم من الاغتسال والصلاة والأكل واللبس • ولمـــا كان الجميع لا يتوقعون شـــيئا ، فقد ذهب فخر الدين فى الصباح الباكر من يوم الثـــلاثاء ، ليأخذ حمامه المعتاد وليصبغ لحيته الرمادية بلون الحنـــاء الأحمر ، وعند ذلك سمعوا وقع حوافر خيل وصياح وصوت أسلحة معدنية •

اخترق روبير وقوته المعســـكر العـــربى وهم يجرون بخيولهم ويصرعون الرجال العزل من الســـلاح والذين لم يكونوا قد أكملوا ارتداء ملابسهم بعد • ووثب فخر الدين فوق جواده دون أن يرتدى زرده ودخل غمار المعركة ليصرعه فى التو أحد فرسان الداوية (فرسان هيكل سليمان) • أما هؤلاء الذين نجوا من المذبحـــة فقد فروا الى المنصورة وأبلغوا أخبار الكارثة الى القصر • يجب احاطة السلطان

علما فى الحال . لقد مات القائد . فما الذى ينبغى على الجيش أن يعمله الآن ؟

كانت هذه اللحظة أعظم اختبار لشجرة الدر . اذا عرفوا فى هذه اللحظة أنه ليس لهم سلطان ، فان حالتهم النفسية ستنهار فى الحال ، وسوف يتحول المماليك لمحاربة بعضهم البعض من أجل الوصول الى السلطة . وكانت الأمور تزداد تعقيدا وأصبح استمرار الخدعة طويلا من الأمور الصعبة . لمـــاذا لا يستطيع أى شخص أن يرى السلطان ؟ ما هى حقيقة أمر صحته ؟ وكانت شجرة الدر تعرف أن كلمات الهمس أخذت تنتشر فى كل مكان . ولكن لم يجرؤ أحد بعد على المجاهرة علانية بذلك الهمس .

ولم يكن هناك غير شىء واحد يجب عمله : أن تصـــدر النشرة اليومية ممهورة ومختومة باسم زوجهـــا ، تحض الجيش على الثبات وأنه تجب عليهم بالرغم من استشهاد قائدهم ، أن يستمروا فى القتال حتى الموت فى سبيل الله ورسوله تحت قيـــادة أمرائهم المماليك وأنه يجب الاحتفاظ بالمنصورة وانقاذ بلاد مصر المباركة .

وبموت فخر الدين فقدت شجرة الدر صديقـــا وفيـــا ووزيرا مخلصا ، ولكن لم يكن هناك وقت للأحزان الشخصية . لقد كانت المدينة وطفلها الصبى فى خطر . وبالرغم من أنها كانت لا تستطيع أن تقاتل من أجلهما بالسلاح كما يقاتل الرجال فقد كانت لديها أسلحـــة أخرى وكان ينبغى عليها أن تحسن استخدامها الى أبعد الحدود .

وأصدر روبير كونت أرتوا ، وقد استثاره نجاح هجومه المفاجىء واندحار الجيش الاسلامى الذى سالت دماؤه حارة ، أصـــدر القرار المفاجىء بأن يسيروا وراء الفارين الى المنصورة ، فربما اســتطاع الاستيلاء عليها بنفسه دون انتظار أخيه والجزء الأكبر من الجيش .

ومرة أخرى اعترض عليه كل من قائد الفرسان الداوية ووليم لونجسورد • لقد خالفوا من قبل أوامر الملك لويس : وربما كان هناك ما يبرر اندفاعهم ، ولكن من الرعونة أن يتقدموا بمفردهم • فالمدينة لابد أنها محصنة تماما بكل تأكيد وملأى بجنود المسلمين ولا يمكن أن تهاجم المنصورة بنجاح الا بجيش الصليبيين الرئيسى بكل عدته وعدده •

وعنفهم روبير « أيها الجبناء انى أتقدم مع هؤلاء الذين هم رجال » ومع أن الفرسان الداوية والفرقة الانجليزية كانوا يعرفون حمق ما كانوا يفعلون ونظرا لأنهم كانوا يشعرون بعجزهم عن منعه فقد تبعوه على مضض وبهذا حكموا على أنفسهم بالموت •

لقد كان صحيحا أن المصريين والجنود العرب الذين استبد بهم الذعر قد هربوا وأن أمراء المماليك وقواتهم انسحبوا فى غير نظام الى داخل أسوار المدينة • ولم يكن هناك قائد جديد يلم شعثهم وبدا لروبير كما لو أن الطريق أصبح خاليا • ولكن الأمر الذى لم يكن روبير يعرفه هو أن قائدا جديدا قد ظهر من بين صفوف المماليك : بيبرس البندقدارى الفارع الطول ، ذو الصوت الجهورى الحركسى المحمر اللون ، الرقيق السابق ، ذو العين الواحدة الزرقاء التى تشوبها سحابة بيضاء والذى يصفه المؤرخون الفرنسيون بذى العين الواحدة البندقدارى الجبار المخيف • وتنفذا للأمر اليومى الذى أصدره السلطان تولى بيبرس القيادة • فوضع الرماة المختفين فوق الأسوار وفى البيوت ووزع قوات المماليك المدججين بالسلاح على الأزقة والشوارع الجانبية وترك بوابة المدينة مفتوحة على مصراعيها عمدا •

واندفع روبير وفرسانه من خلال البوابة رأسا الى داخل الكمين• وأمطرهم الرماة المختفون بالسهام من فوقهم ومن حولهم وهاجمهم

المماليك فى الشوارع الضيقة وأصبحت جيادهم لا جدوى منها فى ذلك المكان المحصور ولم تستطع فرارا وهكذا قتلوهم كما يقتل الانسان الذباب • وقد استدار بعض الفرسـان محاولين الهرب من البوابـة سيرا على الأقدام ولكنهم طاردوهم فى القناة وأغرقوهم •

وتحصن روبير وحرسه داخل أحد البيوت ولكن المسلمين اقتحموا البيت وقتلوهم عن آخرهم • وسقط جميع الفرسان الداوية ولم يتبق من عددهم الذى كان يبلغ ثلاثمائة فارس تقريبا سوى خمسة فقط • وثبت وليم لونجسورد وفرسان الانجليز فى مكانهم بشجاعة واستمروا يقاتلون حتى النهاية • وأبيد الفرسان الرماة من الافرنج عن آخرهم وقضى قضاء تاما على خيرة فرسـان الصليبيين • وقد ذكر المؤرخـون العرب أن ألفا وخمسمائة من زهرة فرسـان المسيحيين قد قتلوا •

وبالرغم من أن بيتر فارس بريتانى جرح فى رأسه جرحا شـديدا فقد هرب وعدا الى خارج المدينة ليحذر الملك لويس ، الذى كان ند عبر المخاضة وأخذ يتقدم فى طريقه نحو المنصـورة على رأس الجزء الرئيسى من جيشه وأنذره بأن المماليك كانوا يستعدون للهجوم عليه• وأصدر لويس بسرعة أمره بالاسراع باقامة جسر القوارب الذى كان قد فكر فى تشييده خلفه وأعد قواته لتقاوم الهجوم • وأسرع المماليك يقودهم بيبرس ، الى خارج المدينـة وهم يلوحون بأعـلام ورايات القاهرة الحريرية الصفراء مع شارات أسلحتهم الخاصـة بهم ، وقد أخذت دروعهم وسيوفهم تلمع فى ضوء الشمس ، وهاجموا الجيش الصليبى مطلقين سهاما متتابعة كانت تقابل بسهام تطلق عليهم • وقاد لويس الذى أظهر شجاعة شخصية فائقة ، هجوما مضادا مما أدى الى تقهقر المسلمين • ولكن ذلك التقهقر لم يطل بل كان لتنظيم أنفسـهم ومعاودة الهجوم مرة أخرى •

ودفعوا بلويس الى « البحر الصغير » تقريبا • وحاول بعض الفرسان الصليبيين أن ينجوا بأنفسهم بالنزول بجيادهم فى الماء ولكنهم غرقوا عن آخرهم هم وجيادهم • وكيفما كان الأمر فان تقهقر لويس ، قد أنقذ حياته • وتم اعداد الجسر العائم • وبواسطته استطاع دوق بورجاندى أن يرسل رماة السهام المسيحيين الفرنسيين الذين كانوا منتظرين فى المعسكر لمساعدة اخوانهم وذلك بعبورهم من فوقه • وقد شتتت سهامهم المتتابعة صفوف المماليك الذين ارتدوا الى المنصورة وأغلقوا فى هذه المرة البوابة وحصنوها بالمتاريس الحديدية •

وعسكر الجيش الصليبى حيث كان الجيش المصرى معسكرا فى الليلة السابقة وشرع لويس فى الحال فى تحصين مراكزه آملا أن تقوم الاضطرابات بين الامراء المتنافسين الذين كان يدعى كل منهم أنه أحق بالقيادة منذ وفاة قائدهم وربما يطلبون هدنة حربية •• وانتشرت شائعات غريبة •• أن ما يقال عن مرض السلطان الذى لا يراه أحد ليس الا حيلة •• فلو أنهم عصوا أوامره الصادرة الى الفرقة المتقدمة وفى الوقت الذى كان لويس يبحث فيه عن شىء من الراحة ، حضر قائد فرسان الاسبتارية ليخبره بوفاة أخيه روبير فى المنصورة فانهار لويس وبكى •

وكانت شجرة الدر تستطيع أن ترى وتسمع كل ما دار فى المعركة وتتتبع الهجوم الشديد والهجوم المضاد لكلا الجانبين من نوافذ الطابق العلوى للحريم فى القصر • ونقل اليها عبيدها بأن بيبرس هو الذى أخذ على عاتقه مهمة القيادة ، وقاد الهجمات التى ردت جيش الفرنجة الى شاطىء القناة فلو لم يتول القيادة لاستطاع الغزاة أن يحرقوا المدينة وأن ينهبوها (ولم تكن تعرف أن القديس لويس لم يكن ليسمح

لرجاله أن يتصرفوا كما تصرف الصليبيون فى الحملات الصليبية الأخرى مما جلب العار على المسيحيين) ولكن كم سيمضى من الأيام قبل أن يصل توران شاه ؟ والى متى يمكن الاحتفاظ بالسر ؟ • ولكن يجب ألا تضعف وألا تتردد • وكان لابد من اصدار نشرة يومية أخرى باسم السلطان ، يثنى فيها على همة الجيش ويلوح له بالمنح والعطايا السخية عندما يتم اكتساح الغزاة ليس من المنصورة والطريق المؤدى الى القاهرة فحسب ، بل من كل أنحاء مصر •

وبعد ثلاثة أيام قاد بيبرس المماليك ، وقد شجعته تلك الوعود وعزز جيشه بقوات أتت من الجنوب ، وقام هو بهجوم ثان فخرج من المدينة بقوة وشجاعة أكثر من ذى قبل وحمل على الأعداء مطلقين سحبا من السهام على معسكر الصليبيين وحافظ لويس على ثبات جيشه وحارب جيش المسلمين وشن عليهم هجوما مضادا • وشن المماليك هجوما ثانيا ولكن ليصدهم الملك لويس ورماته •

ولكن بالرغم من أن الصليبيين ثبتوا فى مواقعهم فان خسائرهم كانت باهظة حتى أن بيبرس ، وقد عرف أنه قد انقذ المدينة من الاستيلاء عليها ، أوقف الهجوم وارتد فى نظام تام الى داخل أسوار المنصورة •

ومما يدعو الى العجب قلة عدد المؤرخين من الجانبين الذين كتبوا عن الأيام الخمسة عشر التى تلت تلك الحوادث ، فمن المحتمل أن هذين الأسبوعين كانا من أخطر الأوقات كلها بالنسبة الى مصر •

واستحقت المنصورة مرة ثانية أن تسمى « مدينة النصر » وأن يحيى الناس بيبرس ومماليكه لأنهم أنقذوها • ولكن الحقيقة التى

لا يمكن غض النظر عنها هى أن لويس والجزء الأكبر من جيشه ظلوا معسكرين على بعد ميلين منها وظلوا أيضا محتفظين بجسرهم العائم خلفهم دون أن يمسه أحد وظلت امدادات الأطعمة والذخيرة تأتى اليهم فى حرية تامة من دمياط .

وبالرغم من أن بيبرس قد أثبت فى الحرب أنه كان جنديا وقائدا عظيما فانه كان أقل نفوذا من أمراء آخرين من أمراء المماليك مثل عز الدين أيبك أو فارس أقطاى . وأخذت الغيرة والدسائس تبرز برأسها ، وبدأ الناس يجاهرون بشكوكهم الهامسة عن عدم ظهور السلطان . ولو علم الصليبيون بذلك ، وكانت لديهم القوة الكافية لأن يهجموا مرة أخرى .

كان الموقف متوترا ، وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط كيف كانت تتصرف شجرة الدر ، فانا نعرف أنها كانت تصرف الأمور دون مساعدة فخر الدين ولاشك فى أنها أخذت تغدق الخلع والذهب والجواهر والاقطاعيات على قواد المماليك كما قامت بتصريف جميع أمور القصر بكل ما لديها من شجاعة ومهارة . وظل يعزفون خارج باب السلطان المريض ، وكذلك ظل طعامه يجهز يوميا ويجيزه ذواق السلطان ثم يحمله سهيل بعد ذلك اليه .

ولابد أن شجرة الدر لم تكن تصلى فقط الصلوات الخمس المفروضة ولكنها كانت تدعو مئات المرات فى كل يوم وتذكر أنها — حقا — بين يدى الرحمن الرحيم .

***

وفى آخر يوم من شهر فبراير من تلك السنة وصل توران شاه وكانت المحنة الطويلة قد انتهت ، وقد أسرع توران شاه ، بمجرد استلامه رسالة شجرة الدر ، الى دمشق حيث أعلن نفسه سلطانا . والآن وقد أصبح فى الاستطاعة اذاعة نبأ وفاة الصالح ، فقد أعلن نبأ اعتلاء توران شاه العرش فى القاهرة وجميع أنحاء مصر . وقدمت اليه الوثيقة المزورة باختيار والده له وريثا ، ولكنه لم يكن بحاجة اليها . وكان الفرح عظيما . وأسرع أمراء المماليك الى قاعة الاستقبال بالقصر ليقسموا يمين الولاء ويهللوا له .

وحيت شجرة الدر ابن زوجها بسرور وسلمت اليه فى الحال كل تبعاتها . لقد كانت مخلصة حقا من البداية الى النهاية وحفظت له عرشه مصونا . ولكن ما الذى نالته فى مقابل ذلك ؟ انه لم يعترف بالجميل لأمانتها وانكارها لذاتها فى سبيل قضيته ، بل قابل ذلك بوقاحة وازدراء وشك . وانقلبت لحظة انتصارها وفرحها الى مرارة واتضح لها فى تلك اللحظة أنها وحيدة حقا .

وكان توران شاه برغم كل عيوبه وعنفه وانغماسه فى الملذات وما هو عليه من خلق غير كريم ، كان قائدا قديرا . أدرك أنه لو تمكن من أن يقطع امدادات الجيش الصليبى من دمياط فانه سوف يقع فى مأزق حرج لأن سكان القرى لن يبيعونهم شيئا . وفى الوقت الذى ترك فيه لويس مشغولا بمناوشات صغيرة ، حمل هو ، على ظهر الجمال أجزاء أسطول من القوارب الخفيفة ، الى فروع النيل السفلى . وهناك جمعت أجزاؤها وأنزلت الى الماء وسرعان ما كانوا يهاجمون ويغرقون المراكب المسيحية ، حتى أصبح لويس وجيشه معرضين للمجاعة والأمراض . وانتشرت الدوسنتاريا والتيفود انتشارا وبائيا وأخذ الجنود يموتون ، ويصف دى جوانفيل ما حدث له عندما كان

مريضا فى خيمته ، وكان قسيسه يقيم قداسا خاصا له فانتاب المرض فجأة هذا القسيس . ونهض جوانفيل من فراشه ليسعفه وهكذا « أنهى القسيس قداسه ولكنه لم يصل أبدا مرة أخرى ، لأنه مات » .

وكان لويس فى مركز ميئوس منه . لقد أضعفت موقعة المنصورة قواته الى حد أنه لم يعد يمكنه أن يفكر بعد ذلك فى شق طريقه عنوة الى القاهرة . ورأى أنه كثير على نفسه أن ينسحب عبر الجسر العائم الى معسكر دوق بورجاندى وأن يحاول من هناك أن يسير راجعا الى دمياط . وكان السبيل الكريم الوحيد الذى يمكنه أن يسلكه هو أن يحاول التفاوض مع المسلمين . لقد رفض منذ عدة شهور مضت عرضهم بتسليم بيت المقدس له مقابل دمياط ، فهل فات الأوان لقبوله لهذا العرض ؟

نعم لقد تأخر الوقت جدا . جاءت الاجابة بالرفض القاطع .. وكان لا مناص من الانسحاب ولكن كبرياءه العنيد ظل يلح عليه ، فأصدر أوامر بأن ينقل الجرحى والمرضى وحدهم بطريق النيل ، أما الرجال القادرون فعليهم أن يسيروا فى نظام تام عائدين فى الطريق الذى أتوا منه .

وفى الصباح الباكر من يوم ٥ ابريل هدم لويس المعسكر الصليبى وأخذ مكانه فى مؤخرة رجاله ليشجع الضعفاء فى رحلتهم الشاقة . وكانت هذه فرصة المسلمين ، فهاجموهم ، ومع أن الفرنجة قاوموا بشجاعة كافية وكان لويس نفسه يقاتل بعنف ليبعد المسلمين عن رجاله، فقد قتل وجرح مئات من الفرنجة . أما هؤلاء الذين عبروا الجسر العائم فقد نسوا ــ كما نسى رجال بنى كنانة ــ أن يدمروه بعدهم وترتب على ذلك أن المماليك تبعوهم وحاربوهم حتى وصلوا الى

معســكر . ولم يمض وقت طويل حتى استسلموا وسلموا أسلحتهم بدون علم الملك .

ووقع لويس فريسة للمرض ولم يستطع أن يمتطي صهوة جواده بعد ذلك . وحمله أحد فرســانه الى داخل كوخ في احــدى القرى المجاورة وهناك وجده المماليك وجذبوه من فراش مرضــه وصفدوه بالأغلال وأخذوه أسيرا ووضعوه في منزل خاص بالمنصــورة . وكان عدد الأسرى المسيحيين كبيرا جدا لدرجة أن توران شاه أحس بأنه لن يستطيع اطعامهم وأمر بقتل كل الضعفاء والذين أوهنتهم الجراح والحمى . واستبقى الباقين من جيش الملك لويس طلبا للفدية . وكانت شروطه قاســية . كان على لويس أن يتنازل عن دميــاط في مقــابل حياته ، وأن يدفع فدية لجيشه نصف مليون من الجنيهــات . وكان هذا مبلغا كبيرا ولكنه وافق عليه من أجل رجاله . وبعث في الحــال برسالة الى الملكة مرجريت بدمياط بأى ثمن حتى يمكن التنازل عنهــا الى توران شاه كفدية له .

وكانت أنباء هزيمة الصليبيين الفادحة قد وصلت دمياط فعلا وبعد ثلاثة أيام من وصــولها ، وضعت مرجريت طفلهــا وكان ولدا ، وكان يرافقها عجوز فقط ، وقد عمدته باسم جون ترسترام « طفل الأحــزان » وكانت مريضــة وضعيفــة ، ولكن ما أن ســمعت أن الايطاليين كانوا يعتزمون مغادرة الميناء حتى استدعت في نفس ذلك اليوم ، قوادهم الى جانب فراشها . انهم اذا رفعوا مراسيهم وتركوا المدينة الجائعة غير المحصنة فان لمدينة تسقط لا محــالة وسوف يفقد لويس حياته مقابل فديته . وقد سألتهم لو أنها استطاعت أن تشترى كل الطعام الباقى في المدينة وتوزعه بالتســاوى على الجميــع ، فهل يبقون في هذه الحالة ؟ . ونجحت توســلاتها واستمالت باقتراحهــا

العملى أهل بيزا وأهل جنوا العنيدين فوافقوا على البقاء • وبلغ الثمن الذى كان على مرجريت ، أن تدفعه ثمنا للطعام ثلاثمائة وستين ألفا من الجنيهات ، ولكنها أنقذت حالة المدينة النفسية وحياة زوجها • وما أن أصبحت حالتها الصحية ملائمة للسفر حتى أبحرت الى عكا لتجمع الفدية النقدية للجيش •

***

لقد أنقذت شجرة الدر مصر من الغزو الأجنبى ولكنها كانت أبعد ما تكون عن السعادة • لقد أحضر توران شاه معه محاسبيه ، ونحاها هى وخليل جانبا كما لو أصبحت جارية مرة أخرى • وأصبحت ،هى التى لم تطق صبرا فى يوم من الأيام على أن تكون لها منافسة فى الحريم تعامل بازدراء من نسوة حمقاوات يأخذن مثالهن من الموقف الوقح الذى كان يقفه منها السلطان الشاب • وقد ازداد خوفها على نفسها وعلى ابنها الصغير • وأخيرا وصلت الأمور الى ذروة السوء عندما اتهمها توران شاه بتبديد ثروة أبيه • وكانت الاتهامات رغم كونها أبعد ما تكون عن الحقيقة تحمل تهديدا صريحا • وكان الوحيدون الذين تستطيع شجرة الدر أن تتجه اليهم لنجدتها هم رفقاؤها القدامى فى الاسترقاق ، المماليك البحرية ، الذين كانوا يدينون بمركزهم وولائهم لزوجها فأرسلت اليهم رسالة سرية طالبة حمايتهم ، وكانت تعلم أيضا بأنهم أصبحوا يكرهون سيدهم الجديد لطبعه المتقلب وسلوكه المهين لهم •

وبعد ذلك ببضع ليال ، وبينما كان توراه شاه لا يكاد يستطيع أن يقف على قدميه مترنحا من سكره فى احدى الولائم ، اقتحم الغرفة عليه جماعة من المماليك البحرية يقودهم بيبرس وسيوفهم مشرعة فى أيديهم • وضرب بيبرس السلطان الضربة الأولى فجرى

توران شاه وهو ينزف دما بعد أن أثخنته الجراح وألقى بنفسه فى النيل بجانب البرج الخشبى الذى كان الملك لويس مأسورا فيه فى ذلك الوقت ، وقد رآه الملك بنفسه وهو يحاول عبثا أن يسبح التماسا للنجاة ، ولكن المماليك تبعوه وقتلوه فى الماء .

ومات السلطان الشاب الذى اكتسب كراهية الجميع ، واتفق المماليك على أن يولوا شجرة الدر ملكة عليهم . وهكذا انضمت أخيرا شجرة الدر الى جماعتنا من ملكات مصر .

وبعد ذلك حكمت شجرة الدر البلاد وحدها لمدة ستة شهور ملقبة نفسها فى وثائق الدولة الرسمية باسم « أم خليل » مملوكة الصالح وخادمة الخليفة (١) (الزعيم الروحى للعالم الاسلامى فى بغداد) وتحوى مقتنيات المتحف البريطانى قطعة من عملتها النادرة وتقرأ عليها أن خليلا كان مشتركا معها باعتباره ملكا .

وكانت تعرف كل شىء من الحكم اذ أنها حكمت مصر فى الواقع فترة من الزمن ، بالرغم من أنها لم تكن تحكم باسمها . ولكنها واجهت فى الحال أزمة حادة غير عادية . فقد أطارت الحماسة والنصر بمقتل توران شاه عقول المماليك . وصاحوا « لنقتل الآن الملك الكافر » وكان من أبسط الأشياء أن تضرم النيران فى سجن لويس ، فى البرج الخشبى !! ولكن رغب مماليك آخرون فى الحصول على

---

(١) سكت النقود بألقابها هكذا « المستعصمية » (مملوكة الخليفة المستعصم بالله قبل أن يهبها للصالح) الصالحية (أى مملوكة الصالح أيوب) ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين (وخليل هنا تلاعب باللفظ فيما بين اسم علم واسم فكرة بمعنى صديق) . وكانت تكتب على المراسيم فى العلاقة بخطها « والدة خليل » . ويخطب باسمها على منابر مصر فيقول الخطباء « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

المـال • واندفع اليه بعضهم فى داخل غرفته ملوحين بسيوفهم الملطخة بالدم وهددوه قائلين انهم قد قتلوا عدوه توران شاه وأنهم يجب أن يكافأوا ••• والا !! •

وواجههم لويس بهدوئه وبوقـاره المعتـاد وكان قد بدأ أكثر شحوبا ونحافة وضعفا بسبب مرضه السابق وبقائه فى السجن • وأخيرا نكسوا سيوفهم وهم خجلون من أنفسهم •

وفضلا عن هؤلاء الأمراء المتهورين كان هناك آخرون يرغبون فى قتل لويس اذ أخذ بعض المتعصبين من المسـلمين ، ومن الشـيوخ والفقهاء يشجعون الممـاليك على قتل جميع الأسرى الفرنجـة الذين فى قبضتهم • ولكن الملكة شجرة الدر أيدت الاتفاق الذى كان قد عقد مع لويس • اذ الشهامة الاسلامية وحفظ العهد أصبحا فى خطر ، فهم ملزمون بالمحافظة على المسيحيين الذين كانوا تحت رحمتهم الى أن توفى شروط الفدية •

وكانت الفدية متوقفـة على الملكة مرجريت • ولهـذا السبب فبالرغم من أنهما لم يلتقيا أبدا فان مصـيرى الملكتين الشابتين كانا متشابكين • واعتمادا على نبل وشرف وشجاعة احداهما كانت تتوقف حيـاة الرجل الذى تحبه الأخرى • وكانت سـعادة مرجريت أميرة بروفانس وابنها جون تريسترام « طفل الأحزان » موضـوعة فى أيدى شجرة الدر « أم خليل » المرأة المحجبة فى الحريم ولكنهـا مع ذلك كانت ملكة مصر •

وأخيرا جاءت الأنباء بأن الفدية النقدية قد وصلت الى دميـاط وأنها سوف تدفع ، وأن المدينة سوف تسلم الى المسلمين عند وصول الملك لويس وفرسانه • أما باقى الجيش فسيطلق سراحه وسيسافر فيما بعد •

واستخدمت شجرة الدر نفوذها ، فقبلوا تخفيض جزء من الفدية اذ اكتسب الملك لويس خلال فترة أسره ، بصبره الرائع ووقاره الهادىء احترام أعدائه فلم يناقش القرار حتى أشد المماليك قسوة وسلمت دمياط رسميا الى السلطات المصرية وأبحر الملك لويس الى عكا ومعه أخواه الباقيان والفرسان والنبلاء الآخرون بعد أن أطلق سراحهم أخيرا • وانتهت بذلك الحملة الصليبية السادسة المشئومة •

انتهت الحملة الصليبية وأصبح القديس لويس والملكة مرجريت سالمين والى جانب بعضهما البعض ، ولكن شجرة الدر التى كانت ذات أثر ، فى كل من هزيمتهما وفى الابقاء أيضا على حياتهما وسعادتهما ، كانت قد بدأت حكمها الرسمى باعتبارها سلطانا (لا سلطانة اذ لم يكن هناك مثل هذا اللقب فى الاسلام) واستغرقت القاهرة ومدن مصر فى فرح مضاعف : لنجاتهم من الغزاة الأجانب ، ولاعتلاء حاكم جديد العرش ، حاكم تفادى نكبة حرب أهلية • ولأول وآخر مرة فى مصر الاسلامية نوى باسم سيدة باعتبارها سلطانا على البلاد •

وكانت الشوارع التى يتدلى من نوافذها شقق الحرير والأطلس النقية* فرحة وغاصة بالمشعوذين والحواة ومروضى الحيوانات والراقصين وبائعى الأطعمة والسقايين ولاعبى الأراجوز الشرقى وجماعات الفلاحين الكثيرى الضوضاء من آهل القرى الذين كانوا يتنزهون فى الشوارع وهم يتزاحمون بالمناكب فى خطوات تقليدية مثل الرقصات (١) التى نراها على جدران مقابر أجدادهم الفراعنة

---

(١) حددت الكاتبة رقصة العمود ، ولكن لم تكن فى مصر القديمة رقصة بهذا الاسم وانما نرى على جدران بعض المعابد صورة لعمود يتسلقه افراد فى أحد الاحتفالات الدينية .

فى طيبة . وكان الرواة يقصون قصصا حماسية عن أعمال صلاح الدين العظيمة ويمتدحون ملكتهم وفى المساء عبر الدراويش من أصحاب الطرق الصوفية فى الصحراء عن امتنانهم وولائهم لله العلى القدير ، بطرقهم الغريبة الخاصة فى الرقص وعمل الذكر وأضيئت المساجد بمئات من المسارج وتلألأت مآذنها بالأضواء .

وعين قائد جديد للجيش . ولم يكن بيبرس فانه كان لايزال صغيرا ولم تكن أيامه فى تولى السلطة باعتباره واحدا من أعظم سلاطين المماليك فى مصر قد أتت بعد . ووقع الاختيار بالاجماع على رجل أكبر منه مركزا ، وهو قائد المماليك البحرية عز الدين أيبك الجاشنكار أى ذواق الطعام . وكان أيبك فى الثالثة والخمسين من عمره وكان تركمانى الأصل وكان فى الأصل رقيقا مملوكا للصالح أيوب . وقد قال عنه المقريزى المؤرخ العربى بأنه كان لأيبك منزلة سامية بين الأمراء لحميته الدينية وكرمه وفطنته .

وكانت شجرة الدر تعرف عنه أنه طموح ولكنها أحست أنه الرجل المستقيم الذى تستطيع أن تثق به . وكان صديقها الوفى كبير الأغوات ، جمال الدين محسن لايزال الى جانبها وكان يعمل سكرتيرا لها وموضع ثقتها بالاضافة الى وظيفته الرسمية باعتباره كبيرا لحجاب القصر ، كما كان معها أيضا « سهيل » الذى كانت تستطيع دائما الاعتماد عليه .

وكان من أول الأشياء التى ينبغى عليها أن تهتم بها عند عودتها الى القاهرة الاسراع فى اتمام بناء ضريح زوجها حتى يمكن اخراج جثته من مخبئها الأمين فى قلعة المماليك البحرية بالروضة وأن تقيم له جنازة ملكية تتسم بالعظمة والروعة اللائقين به . كما فكرت أيضا فى بناء مدرسة مجاورة باسم الصالح ، ويجب أن تكون مبنى جميلا

بقدر ما يستطيع أن يبتكر المهندسون ومن الممكن أن يستخدموا الكساء الخارجى لأحد الأهرام الصغيرة كما سبق أن فعل صلاح عند بناء أسوار القلعة •

والى هذه المدرسة يستطيع أبناء الأسر المتدينة أن يحضروا ليتعلموا قراءة وتلاوة القرآن الكريم ، كما سيفعل ابنها خليل • انه يتحتم عليه قراءته وتلاوته عندما يكبر •

وكانت هناك أعمال كثيرة لابد من عملها من أجل البلاد بعد انتهاء الحرب • يجب المحافظة على نظام الرى الحيوى للبلاد حتى تتمكن الحقول من انتاج الحبوب الغذائية التى تمنع المجاعة ، كما كان ينبغى اعادة فتح طرق التجارة الخارجية وأن يؤمن التجارة والمستوردون وخاصة هؤلاء الذين كانوا يتعاملون مع الشرق ، كما ينبغى أن يطمئن كل فرد الى العدالة طبقا للشريعة الاسلامية وكذلك يجب أن تكون الضرائب التى يدفعها الناس ضرائب عادلة • لقد أنقذت القاهرة من مصير الفسطاط وكان ينبغى عليها أن تتأكد من أن القاهرة تسودها السعادة والرخاء •

والآن وقد وجدت شجرة الدر نفسها وقد أصبحت لديها السلطة لتعمل كل هذه الاصلاحات لشعبها ، ان هذا الوقت كان أسعد أوقات حياتها ــ اللهم الا الفترة الأولى من زواجها بالصالح ــ ومع أنها كانت دائما تخفى نفسها وراء حجاب وستارة حريرية ، فقد جلست للقضاء بين الناس فى قاعة العدل عند سفح قلعة الجبل وقد أحاط بها كبير القضاة ــ القاضى ــ وفقهاء الشريعة الاسلامية • كما كانت تعقد المجالس فى قاعة الأعمدة ، التى ظلت موجودة الى أن تخرب القصر بعد ذلك بسنوات كثيرة ، وكانت توجد فيه منصة عالية تعرف باسم « منصة الأميرة » ، كما أقامت فى القلعة جوقة موسيقية

عسكرية تعزف ليلا وكانوا يعزفون على آلة خاصــة تسمى الخليلية تكريما لاسم ابنها الصغير

ولكن سرعان ما جيم ظل قاتم على حياتهـا ، ظل لم يستطع أى شىء أن يزيله . لقد فقدت أبنها الوحيـد خليل . ولا تعرف كيف فقدته ، فمن المحتمل أن موته كان نتيجة لأحد أنواع الحمى المفاجئة التى تأتى بها الرياح المتربة فى مصر .. مثل الجـدرى والدوسنتاريا والطـاعون . وكيفما كان المرض الذى قضى عليـه فان دليلنا على ما أصابها أن اسمه لم يظل طويلا مقترنا باسمها على عملتهـا باعتبـاره الملك المنتصر ، من أنها ظلت تلقب نفسها بلقب « أم خليل » .

وعند ارتقائها العرش بعثوا برسالة رسمية بذلك الى الخليفـة « أمير المؤمنين » فى بغداد . ونظرا لأنه كان الزعيم الروحى للعـالم الاسلامى فان مباركته للسلطان الجديد كانت أمرا يجب الحصـول عليه . ولكن بعد ستة شهور جاء الرد الذى نزل كالصاعقة على قلب كل انسان « اعلمونا ان كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسـل لكم من يصلح لها .. » كما رووا فى الأثر بأن البلية تنزل بالبلد الذى تحكمه امرأة ولهذا فان الاسـلام الصحيح لا يقر ذلك .

وظهرت أزمة بسبب ذلك ، لم يكن هناك من يرغب فى أن يطـأ أى جيش أجنبى آخر بقدمه أرض مصر مرة أخرى حتى ولو كان جيشا اسلاميا . وعلاوة على ذلك فان خطر الحرب الأهليـة بسبب ارتقـاء العرش قد برزت برأسها الكئيب مرة أخرى . وقامت مناقشة حاميـة بين الأمراء القواد وكانت نتيجتها أنه يجب أن يطلب من شجرة الدر أن تتزوج من أيبك الذى يمكن أن ينـادى به سلطانا بدلا منهـا .

وبالرغم من أنها سوف تستمر تحكم البلاد ، فان الحكم يكون باسمه وبذلك ترضى التقاليد .

ما الذى كان تشعر به الملكة نحو ذلك ؟ من العسير أن نخمن احساسها وقد زعم بعض المؤرخين أن أيبك كان حبيبها وأن المماليك اختاروه اكراما لرغباتها وذكر آخرون بأنها وافقت على أن تتزوجه من أجل ايجاد حل ، ولا شىء غير ذلك . والحقيقة هى أنه ما من أحد يعرف خبيئة نفسها ولكننا نعرف فقط ما الذى تم فعلا . وعلى أى حال فمن أجل مصر ، وافقت شجر الدر على ذلك التدبير ، وكان شرطها الوحيد هو أن يطلق أيبك زوجته التى كان له ولد منها .

وربما كانت الوحيدة فى حياة الحريم التى لم تكن تطيق أبدا وجود منافسة لها فى عواطف زوجها أو أن تصبر على المكائد والغيرة التى تنشأ من جراء الزواج بأكثر من واحدة . ولكنها بعملها هذا خلقت لنفسها عدوة لدودة أخذت تنتظر فرصتها لتضرب يوما ما .

وهكذا وبعد ستة شهور ، حل بدلا من شجرة الدر زوجها الجديد وتودى به سلطانا فى جميع المساجد فى كل أنحاء البلاد ، وتسمى باسم السلطان الملك المعز عز الدين أيبك ، وبعثوا الى الخليفة رسالة جديدة تنبئه بما حدث وتطلب منه البركة مرة أخرى ، ولم تقابل الرسالة فى هذه المرة بالرفض .

***

واستمرت شجرة الدر تحكم باسم زوجها من وراء الستارة الحريرية وخمارها الذى تضعه فوق وجهها مدة ثلاثة أعوام ، ونحن

لا نعرف مشاعرها تجاه زوجها ، كما خفيت علينا معظم أعمالها خلال هذه الفترة فقد ذهبت الى مكة لأداء فريضة الحج .

وكانت نهاية شجرة الدر نهاية مفجعة . فقد ازداد أيبك طموحا بمرور الوقت ، وأرسل فى طلب يد ابنة أمير الموصل ليتزوجها . وعندما سمعت شجرة الدر بذلك صممت على قتله . وشك أيبك فى نياتها وذهب ليعيش خارج القصر . ولكن رسالة غرامية منها أعادته الى القصر ولكن ليهجم عليه من أعدتهم لقتله وهو فى الحمام . وعندما استنجد بها لتنقذه جاشت فى نفسها بعض عواطفها القديمة وصاحت فى القتلة أن يتوقفوا ، ولكن بعد فوات الأوان . وقد قال لها جمال الدين محسن اننا اذا لم نقتله فانه سيقتلنا جميعا . وهكذا مات أيبك .

وحاولت شجرة الدر أن تنقل خبر وفاته الى الأمراء بأنه مات ميتة طبيعية ولكن أصدقاء أيبك وقفوا على الحقيقة من عبيدها . وكان أولئك الأمراء على درجة كافية من القوة جعلتهم يتهمونها ويسجنونها فى البرج الأحمر بالقلعة . وكانت تعرف أنها لن تغادره وهى على قيد الحياة ، ولهذا سحقت فى هاون كل عقود لآلئها الثمينة والجواهر الأخرى التى أهداها اليها الملك الصالح فأحالتها الى ذرات حتى لا يستفيد منها أحد ولا يتاح لأى امرأة أن تتزين بها .

وكانت لحظة سقوط الملكة هى اللحظة التى كانت تنتظرها مطلقة أيبك ، فأرسلت جواريها الى البرج ليحضرنها الى المكان التى كانت فيه وهناك قتلنها بقباقيب الحمام الخشبية .

وهكذا ماتت شجرة الدر التى كانت دائما سيدة وملكة الحريم والتى لم تقو عليها دسائسه ومؤامراته ومنافساته العادية ، ماتت فى

النهاية بأيدى الحريم • ولكن بالرغم من أن مطلقة أيبك قد قتلت جسدها فانها لم تستطع أن تقتل شهرتها ومن الممكن زيارة مقبرتها الفاخرة التى تشبه اللؤلؤة فى جمالها بين مقابر المماليك تحت القلعة ، كما تغنى الشعراء العرب بقصة حياتها واخلاصها لمصر •

وعندما تزهر أشجار نار الغابة • المزروعة على جانبى الشارع الموجود فى القاهرة والمسمى باسمها وتبدو كشعلة مضيئة ذات لون برتقالى أحمر ، فان قصر وقت تزهيرها البديع مناسب كل المناسبة لحياتها القصيرة وقصتها النضرة •

الفهرس

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٦٩٩ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5875 - 5

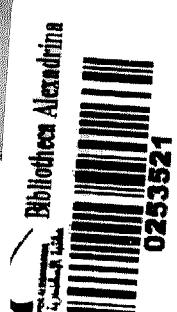
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

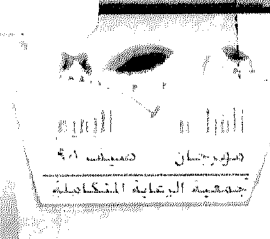
شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨



مائة وخمسون قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب